الطبعة الرابعة

سعود السنعوسي

أسفار مدينة الطِّين

سِفرُ التَّبَّة

II

kalemat

رواية

مولاف
MOULAPH

سعود السنعوسي

أسفار مدينة الطِّين

سِفرُ التّبّة

II

رواية

مصورة بكائنات مشاعل الفيصل

kalemat

مولاف
MOULAPH

الكاتب: سعود السنعوسي
الكتاب: أسفار مدينة الطِّين، سِفرُ التَّبَة، II

لوحة الغلاف والرسومات الداخلية: الفنانة مشاعل الفيصل
تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9922-8675-0-2
الطبعة الأولى - 3000 نسخة - تموز / يوليو - 2023
الطبعة الثانية - 3000 نسخة - آب / أغسطس - 2023
الطبعة الثالثة - 3000 نسخة - أيلول / سبتمبر - 2023

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

kalemat
دار كلمات للنشر والتوزيع
البريد الإلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

مــولاف
MOULAPH

Moulaph.com
Moulaph
MoulaphKw

كلمة

سأظل على راحلةِ الأسفارِ على كتفي مزودةٌ ظمأى
ينهشها ليلٌ وحشيُ الأنياب
لستُ الأول مصلوبًا في الدّربِ
ولا الآخِر مقتولًا في الحرب
أجيالٌ من قبلي مرّت
هذا مقطوع السّاقين
وذا من دون يدين
والدّربُ على مصراعيه
مفتوحُ الأبواب

خالد سعود الزيد

«كلمات من الألواح»

البحث

(ذخيرةُ أيام الخَرَف)..

فصلٌ هاربٌ من مُذكّرات كاتب الأسفار؛ صادق بوحَدَب

الأربعاء، 6 يونيو 1990

زيارةُ الرّجُل الغريب

«المطعون باسمٍ مكروه.. يكرهُ الأسماء»

بكّرتُ في المجيء ساعة لأعوض ساعة.. ويا لها من ساعة!

وصلت إلى مكتبي حوالي الخامسة والنصف صباحا، قبل ساعتين من موعدي مع الرجل الذي هاتفني قبل أسبوع، واتفقنا على لقاء صباح اليوم لأهديه الجزء الثاني من الرواية.

نزعت غترتي وعقالي وعلقتهما بالمشجب وراء الحاجز الخشبي، ووضعت الجريدة على المكتب بعدما قرأت عمود الوفيّات في الصّفحة الأخيرة. أطبقت الجريدة وتركت فوقها مفاتيح سيارتي والبيجر، ونسخة الرواية غير ممهورة بتوقيع للرجل الذي يعرفني منذ الستينيات ولا أعرفه. أدرت جهاز الكاسيت وأخفضت صوت الموسيقى، ثمّ أعددت قهوتي وشربتها أمام النافذة مثل كل يوم.

لكن خلاف كل يوم، كان دَوّار الجهراء أمام نافذتي شبه خالٍ في هذا الوقت المبكر، إلا من ثلاث حافلات زرقاء لشركة النقل العام، وسرب حمام يحط على بوابة السور القديمة في وسط الدوار. والشمس في أول طلوعها تطل من وراء فندق شيراتون على شارع السور عن يساري. وشارع فهد السالم عن يميني في ظل البنايات يستيقظ كسولًا على أصوات الزّرازير والبلابل.

هكذا بدا يومي من أول ساعة بكرتها لقراءة الجريدة. فتحتها من منتصفها، أبحث في الصفحة الثقافية عن جديد يهاجم الرواية، مثل أعداد الأيام الماضية، لا يخلو أحدها من مقالة يذود كاتبها عن وهم الحقيقة مطاردًا خيالات رواية. لكن منتصف الجريدة اليوم تلقف إعلان «پاميرز» في كامل الصفحة اليُمنى. وداسَ إعلان «أحذية السّرحان» بحذاء جلدي فاخر على كامل الصفحة اليُسرى.

قلبت الصفحات من أولها. استشهاد طفلين فلسطينيين في الذكرى الثالثة والعشرين للنكسة. ترقبوا! الجزء الثالث من فيلم العودة إلى المستقبل على شاشات السينما. أربعون ألف طفل ضحايا حرب لبنان. نشتري مكيفات مستعملة لأعلى سعر. كأس العالم على مرمى يومين: تصريح لمدرب المنتخب الإماراتي، وصورة للاعبي المنتخب المصري. شيفروليه سوبَربان 1990 اختيار الديرة الأول للحج والسفر. شكاوى تأخر بريد وزارة المواصلات، القبض على مهربي ويسكي، وأعمال منافية للآداب في بنايات الشقق المفروشة.. وإعلانات تحذيرية: لا للمخدرات، والإيدز مرض العصر.

لا جديد إلا عمود الوفيات في الصفحة الأخيرة. جريدة على منوال كل يوم؛ ملخص أخبار العالم كلها هنا، وليس من أخبار الداخل إلا ما لا يهم بين الإعلانات التجارية، وأخبار مهربي الويسكي وشاربي الكلونيا وشمّامي صمغ الـ Patex.

في تمام السابعة والنصف طُرق باب المكتب، فأذنت للطارق بالدخول بعدما ارتديت غترتي وعقالي. فأقبل الرجل الذي عرّفني بنفسه في الهاتف بصفته قارئًا متابعًا يعرفني من الستينيات، تحسست بخاخ الفنتولين في جيب دشداشتي الأيسر، وخالستُ نظرة إلى النافذة وأنا أصافحه. لا غبار في الخارج. فانبرى الرجل يبرر كأنما فطِن إلى تسأولي المُضمر:

«إن لم يزعجك.. بقائي باللثام والنظارة».

«بل يزعجني.. المعذرة، تفضل أولًا..».

أشرتُ نحو الأريكة الجلدية السّوداء أمام مكتبي فجلس الرجل

بدشداشة متغضنة، ونظارته الشمسية تغطي نصف وجهه الملثم بالغترة. فقلت له أتغصّب ابتسامة:

«..من غير المعقول ألا تفصح عن اسمك في مكالمة الهاتف، وتطلب لقائي في مكتبي كي لا تكشف عنوانك، ثم تزورني بنظارة شمسية ولثام!».

لم يفُه الرجل الغريب بكلمة، وظل جامدًا مثل صنم. قلت له:

«أنا لا أعرف حتى من تكون!».

أطلق زفرة قصيرة تهيأت لي ابتسامةً من وراء لثامه:

«من أكون؟!».

«بالنسبة إليّ على الأقل.. أنا لا أعرف لك اسمًا ولا أرى لك وجهًا».

«لا بأس..».

أجابني، وأوشك أن يفك لثامه ثم أمسك عن الفعل واستدرك:

«..تحتاج إلى عمر بأكمله لتعرف من أكون.. اسمي ووجهي لا يقولان شيئًا».

لم أحر جوابًا، فضحك وخيرني بين أن يخبرني باسمه أو أن يكشف لي عن وجهه. كان الأمر أشبه بمزحة لا تناسب الموقف، ولا تليق برجلين، كاتب في مثل سِنّي وقارئ يبدو على قدر لا بأس به من الاحترام. شككت لوهلة أنه مقلب من أحدهم، لكن صوت الرجل ما كان مألوفًا ولا ذكرني بأحد. انفلتت مني ضحكة مترددة. أوشكت أن أسأل عن اسمه، لكني سألته عمّا يستحيل تزويره:

«وجهك لو تكرمت».

نزع النظارة السّوداء وفكّ اللثام. وأطال النظر إلى وجهي يبتسم في صمت. فقلت له:

«أنا أعتذر».

أشار بيده ألا أكترث. وقررت أن أحترم أي تصرف من هذا الرجل. وسارعت إلى ركوة القهوة أخفي توتري. فسألته من وراء الحاجز الخشبي كيف يُفضّل قهوته وأجاب:

«سادة».

مكثت أعد القهوة وصورة الرجل تنهش رأسي. ما الذي تعرض له كي يفقد ملامحه على هذا النحو؟ حادث سيارة أو حريق؟ وكيف سوف أتعرف إلى رفيق الستينيات وقد فقد ملامحه؟ صادفت في حياتي عددًا من الناس تعرض لتشوه خِلقي أو بفعل حادث، وإن قلت إن وجه الرجل كان مشوهًا فأنا أكتبها على سبيل المجاز إلى ما لا يوصف. فالتشوه الذي طال هذا الوجه جعل منه أي شيء إلا أن يكون وجهًا. ولمّا فارت القهوة خرجت من وراء الحاجز الخشبي، وكان الرجل قد أعاد وضع النظارة السّوداء واللثام.

«إذا سمحت لي».

قال يتعذر بستر وجهه، فأجبته وأنا أصب القهوة في فنجانه:

«أكيد.. أكيد.. خذ راحتك».

وفيما كنت أصب القهوة في فنجاني مال نحوي كأنما يبوح بسر:

«كنت أبلغ من العمر عشرة شهور.. أحبو.. وفي أول محاولة للوقوف..».

أمسك عن تتمّة كلامه ثانيتين قبل أن يستطرد:

«..سقطت على وجهي في التنور».

أوشكت أن أضحك فكبحت الضحكة وابتسمت للدعابة، لكن ابتسامتي أيضًا كانت خطيئة، فما من دعابة هنا، والرجل لم يكن يمزح أو يشاكسني أو يغازلني بأحداث الرواية، فنبوءة التنور هذه جاءت في الفصل 32 من الجزء الثاني الذي لم يقرأه بعد، على حد زعمه، وأنا منذ تلك اللحظة وما تلاها لا أفهم زيارة الرجل الغريب، ولا أتذكر لا في الستينيات ولا في غيرها أني عرفته أو رأيته. انسحبت إلى المقعد وأنا أجيبه محرجًا:

«الحمد لله على سلامتك.. نجّاك الله وكتب لك عمرًا جديدًا».

وما كدت أعود للجلوس وراء مكتبي حتى أفلتَ ضحكة، وأمال رأسه على مسجل الكاسيت إلى جواره، يُصيخ السّمع إلى الصوت الخفيض للطبل والصنج والتصفيق. سألني:

«سَنكِني؟».

أومأت أوافقه، فأنزل اللثام إلى ما دون شفتيه، فارتشف من فنجانه قبل أن يعيد اللثام ويقول:

«تُحب سماع السّنكِني، ومكتبك يطل على بوابة الجهراء في وسط الدوار.. وعلى يسار العمارة شارع السور.. حيث كان السور القديم.. عجيب..».

أمسك جملته ينظرُ إلى لوحة فيصل المشيعل على الجدار، لوحة حفل زار في بيت المرقاب المثلث، ثم قال:

«..أنا بالفعل في حضرة كاتب الأسفار».

أفلتتْ تنهيدة تشبه ضحكة، وما فهمتُ سياق قوله إطراءً كان أم سخرية. قلت له:

«اِنسَ كاتب الأسفار الآن، نحن لسنا في الورق.. أنا صادق.. وأكون ممتنًا لو رحمتني من كلمة أستاذ».

«أكيد أكيد.. أتشرف بك أســ. آاا.. إِمممـ..».

لا أدري إن كان في اسمي مشكلة، أم أن هذا الرجل لا يستطيع مخاطبة الناس بأسمائهم. تأكد لي أني لا أعرفه. ورحمته من مأزقه في مخاطبتي باسمي، وسألته إن كان متأكدًا أنه لم يقرأ الجزء الثاني من أسفار مدينة الطين، أو أن أحدًا لم يحكِ له بعض تفاصيله، فهز رأسه قاطعًا: «أبدًا». غريب! قلت في نفسي، فمن أين جاء بحكاية التنور؟ لكني لم أسأل. أنزل لثامه ثانية وارتشف من قهوته. ثم تلفت حوله قبل أن يقول:

«مكتب كلاسيكي على طرازه منذ الستينات».

وما ادخرت وقتًا لأسأله كيف يعرفني ومتى التقينا في الستينيات؟ فاعتدل في جلسته وأسند ظهره إلى الوراء:

«نحن لم نلتقِ أستاذ.. عفوًا.. نحن لم نلتقِ..».

أسقط كلمة أستاذ كما طلبت منه، لكنه ما خاطبني باسمي. بدا الأمر غريبًا مثيرًا للفضول.

«كيف لم نلتقِ وأنت تعرف عنوان مكتبي منذ الستينات.. كما تقول.. فهمت أنك..».

«لقد حمّلت قولي أكثر مما يحتمل أستاذ.. قرأت كل أعمالك.. ومن بينها كتابًا نشرته في الستينات.. سنة خمسة وستين.. أربعة وستين أعتقد..».

رفع رأسه إلى السقف يحاول تذكر عنوان الكتاب. صفقَ بكفيه فقال:

«..لغة الصخور.. نعم.. في آخر هذا الكتاب رقم تليفون المكتب والعنوان.. الأمر بهذه البساطة».

أنا حرفيًا صنعت من الحبة قبة. أنا لا أعرف هذا الرجل، ولا هو يعرفني، أو بالأحرى هو يعرفني كاتبًا على نحو يفوق معرفتي بنفسي. فهو محق في ذاك الكتاب تحديدًا، أدرجت عنوان المكتب ورقم الهاتف في آخر صفحة. لكن من أين جاء بحكاية التنور تلك؟ ولما انتبه لسكوتي قال:

«لن أطيل عليك أستاذ. لقد تابعناك منذ مقالاتك الأولى في مجلة البعثة مذيلة باسمك المستعار؛ كاتب الأسفار ثم..».

قاطعته:

«تابعناك؟ أنت ومن؟».

ضحك وهو يقول:

«أنا وعمتي».

قال إنهما يتابعان كتاباتي منذ نشرها باسمي المستعار، ثم باسمي الحقيقي في أول مجموعة قصصية قبل أربعين سنة. قال إنه ما يزال يقرأ كتاباتي لعمته، فهي من معجباتي على حد قوله، وإنهما لم يُفوّتا كتابًا لي منذ الأول حتى «أسفار مدينة الطين». ألقيت نظرة على الجزء الثاني من الرواية على سطح مكتبي، فقلت:

«لعلك تقصد حتى الجزء الأول من أسفار مدينة الطين».

«نعم بالضبط، سِفر العباءة.. آخر ما قرأنا لك. اتصلت بمكتبة الربيعان قبل أسابيع أطلب الرواية، فأرسلوا لنا بالبريد مظروفًا ليس فيه إلا الجزء الأول، وكان بعض سطور النسخة مطموسًا بالحبر الأسود بقرار الرقيب. قرأناها أنا وعمتي، فراسلنا كل المكتبات ولم نعثر على سِفر التَّبّة لديهم».

«هذا صحيح.. صدرت الرواية بعبارات مطموسة، وبحواشٍ مدرسية وضعها الأخ الظريف محرر رقابة وزارة الإعلام من دون علمي، ثم صدر قرار لاحق بسحب النسخ وإتلافها.. كان ينبغي منذ البدء نشرها في بيروت».

«فهمت حينما قرأت في الجرائد بيانات بعض العائلات التي اتهمت الرواية أنها تعرضت لأجدادهم.. وسمعت عن الهجوم في المقالات والقضايا التي سوف تُرفع ضدك من جمعية دينية أعتقد، لكني ما قرأت لك ردًا على كل ما أثارته الرواية».

«أنت متابع خبير، ومُلمٌّ بتفاصيل تجربتي.. أما لاحظت أني توقفت عن الكتابة في الجريدة منذ أربع سنوات؟».

«بسبب الرقابة المسبقة على المطبوعات؟».

«نعم، ولأكون صريحًا معك.. منذ حَلِّ البرلمان وصدور القانون لم أرسل إلا ردًّا واحدًا على البيانات التي هاجمت الرواية في الجرائد قبل أسبوع، لكن مدير التحرير هاتفني وأبلغني رفض الرقيب الحكومي المقالة، ونصحني المدير أن أعيد إرسالها إلى الجريدة بعد تحريرها وإزالة بعض الكلمات الممنوعة إن كنت راغبًا بنشرها في الجريدة».

«وأنت رفضت».

«طبعًا».

«نزق الكاتب».

لا أنكر أنه باغتني بالقول. أجبته وأنا أفكر بغير يقين:

«أبدًا.. تجاوزت هذه المرحلة.. لكني حين قمت بتحرير المقالة، فرّغتها من بعض الكلمات الممنوعة: ديموقراطية، دستور، برلمان، مجلس أمة.. ولم تسلم في المقالة إلا كلمة خيال، فصارت المقالة خيالية بصورة لا يحتملها الواقع الذي نعيشه. لا أرى فيها حجة على بيانات الناس ومقالات حراس الغبار في الصحف، ولا على هجوم الخطباء على المنابر، ودعائهم على أيدينا أنا والفنانة فياصل المشيعل بالشلل، سمعت هذا بأذني في مسجد «الجِبْلاوي» مقابل بيتي. لا سبيل أمامي وأنا أدافع عن حقي في حريةِ كتابةٍ كفلَها دستور مُعطّل تُمنع الإشارة إليه في الإعلام. فصرفت النظر عن الرد. أما القضايا لو رُفعت ضدي فأمرها متروك للمحكمة بعد سحب الرواية».

أنزل الغريب اللثام وارتشف من فنجانه ثالثة:

«بصراحة.. هذا سبب إصراري على لقائك أستاذ. وهذا ما جاء بي وأنا ليس لي أحد في الكويت؟».

لاحظ استغرابي فاستدرك:

«أعني أنا من فيلكا.. وليس لي معارف في الديرة وما زرتها إلا ثلاث مرات على ما أذكر، أولها لحضور حفل أم كلثوم عقب النكسة، وثانيها لحضور إحدى مسرحياتك في السبعينات، مسرحية «على أطلال المقام» لو كنت تتذكرها.. والثالثة هي زيارتي لك اليوم».

هززت رأسي أرحب، فقال إنه ركب عبّارة الفجر ليبحر من فيلكا إلى العاصمة. وإنه جاء بسيارة أجرة من مرسى «رأس السالمية» إلى «قِبلة» وفقا للعنوان الذي يعرفه منذ الستينيات. قلت له:

«لو أنك أخبرتني لأرسلت لك النسخة عوض أن تجيء من فيلكا من أجل كتاب».

«ما جئت من أجل كتاب فقط..».

قال الرجل، ونظارته السوداء العاكسة لشمس النافذة تحول دوني ودون تخمين نظرته. أتصور أنه انتبه لارتباكي، أو أنه تعمّد يربكني بأسلوب السكوت المدروس بين جملة وأخرى. استطرد:

«..وليس لدي إلا أقل من ساعة قبل إبحار العبّارة».

«يمكنك الانصراف متى أردت».

أجبته وأنا أدفع الجزء الثاني من الرواية، أبرزها على طرف سطح

المكتب. فقال:

«أعرف أنه سؤال غير لائق. لكن.. اسمح لي أستاذ.. أتمنى ألا تستهين بسؤالي.. من أين جئت بتلك الحكايات في سِفر العباءة؟».

ومضت صورة الشايب في رأسي، ولا أظنني كنت لبقًا مع الرجل الغريب وأنا أدق رأسي بسبابتي:

«من هنا».

بدا واضحًا أنه يعرف إجابتي فسارع يجيب:

«عفوًا أستاذ..».

ثم أشار بسبابته إلى رأسه واثقًا:

«..لكن من «هُنا» لا يستطيع الروائي أن يتخيل أناسًا حقيقيين».

«حقيقيون؟!».

«نعم، منهم مَن صدّر أحفادهم بيانات الصحف وهدد بإقامة الدّعاوى في المحكمة.. استنكار السيدة غنيمة الطاروف إقحام جدها صاحب مربط الخيل في الرواية.. وعائلة الخوّاص التي نسبت إليها شخصية غير محترمة.. وأبناء المرحوم عبداللطيف السواعيد مثلًا، كما أعلنوا في بيانهم، هم من ذرية الحاج عبدالله بن صالح الذي أسميته في روايتك أبا السواعد، يقولون إنك أسأت إليهم ونسبت إليهم حكايات ملفقة. والشيخ عيسى الخصيمي، إمام مسجد الخصيمي في كيفان، حفيد الملا عبدالمحسن خصيم الصاجّات في روايتك، وكان بيان الأحفاد محكمًا بإدانة الرواية. والملا إبراهيم كريم العين، هو جد الداعية عمران آل كريم عين خطيب

مسجد «الجِبْلاوي» في الفيحاء كما قال الحفيد في ندوته بالدلائل والتفاصيل. أما عائلة..».

«هذا يكفي يا.. يا سيد قارئ.. هذه مجرد أسماء تتشابه ولم يكن في نيتي أبدًا أن أمسّ حياة أناس حقيقيين بخلاف الشخصيات التاريخية، ثم إن هؤلاء المدّعون ليس لأجدادهم سِيَر في المكتبات ولا أحد يعرفهم.. من أين أجيء بحكايات أسلافهم؟!».

«هذا بالضبط ما جئت أسأل عنه..».

ترك جملته مفتوحة قبل أن يردف:

«..من أين جئت بتلك الحكايات أستاذ؟».

كدث أنفلث وأقول له مِن الشايب، لعنة الله على الشايب الذي لقنني تلك الحكايات، لكنه سارع يقول:

«إحساسي يقول إنه سليمان بِن سهيل.. هو بنفسِه من حكى لك كل ذلك».

تمالكت أعصابي:

«أرى أن اهتمامك مبالغ فيه.. أنا روائي..».

قاطعني، أول مرة منذ مجيئه:

«وأنا يهمني أمر شخصيتين ظهرتا في سِفر العباءة..».

قاطعته للمرة الألف منذ مجيئه:

«قُل هذا من الأول.. قضية جديدة؟ مَن؟ أم حَدَب خالتك؟ أم أنك حفيد بن هولين؟ أو قُل لي إنك ابن خَليفُوْه البَرَنْتى».

مال بصدره إلى الأمام وارتفق ركبتيه:

«أبدًا والله! ثم إن شيخ البحارة سَنَد، في الجزء الأول، كان أرمل وبلا ذرية، ولا أظنه تزوج شايعة وأنجب أولادًا في الجزء الثاني.. أما خَليفُوْه البَرَنْعَى فقد كان، على ما كتبت، بَرَنْعَى..».

ثقته مثار استفزاز وعجب. استطرد:

«..تعاطفت مع شخصية خَليفُوْه وتفهمتها، أن يكون ذنبك في وجهك؛ هو ما أعاني منه تمامًا.. إنما.. أريد أن أعرف المزيد عن عزوز الهذار وأمينة البيعاريّة.. أنت تعرف أن عبدالعزيز الهذار الفيلكي شخصية حقيقية، وهو -رحمه الله- من شهداء معركة الجهراء.. أعجبتني إشارتك إلى اعتزازه بشاربه، هذه حقيقة يعرفها أبناء الجزيرة ويفاخرون بها.. وأنا أريد أن أعرف المزيد من الحقائق عن هذه الشخصية أستاذ.. خصوصًا عن حياته في الديرة».

«لن تجد حقيقة لدي.. قلت لك إني أجيء بتلك الحكايات من رأسي.. ثم إني لم أقرأ ولم أسمع باسم الهذار بين أسماء شهداء المعركة في الكتب أو في أي مكان».

أنزل لثامه وجاء على ما بالفنجان من ثمالة القهوة. أعاد اللثام واستطرد:

«لعلك قرأت كتاب عبدالله الحاتم «من هنا بدأت الكويت»، والأكيد أنك قرأت في الصفحة 244 قائمة الأسماء التي ذكرها وقال إن أصحابها من مشاهير شهداء المعركة..».

كرّر عبارته الأخيرة يفصل بين الكلمات ويشدد على لفظ حروفها:

«.. مِن.. مشاهير ..شهداء المعركة».

هززت رأسي أستعجله ليتم ما يرمي إليه:

«نعم، قرأت الأسماء الخمسة والستين في كتاب الحاتم، وقرأت أسماء أكثر في كتب أخرى.. والأكيد أن اسم الهذار ليس بينها».

«عبدالعزيز الهذار لم يكن من مشاهير المعركة.. فلم تذكره المصادر التي ذكرت مشاهيرها.. الأمر بهذه البساطة يا أستاذ».

«ومن أين لي أن أكتب له حكاية وأنا لا أعرفه وليس هو من المشاهير المذكورين في المصادر؟! قلت لك إني أكتب من رأسي».

«إذن أنا أستأذن..».

نهض وهو يقول:

«شكرًا لك أستاذ».

فنكشت أمره الذي لفتني بعدم لفظِه اسمي. قلت له إن اسمي كما يعرف «صادق»، وإني أحب أن أنادَى به. تحرّج وهو يقول:

«أكيد أكيد.. شكرا لك».

عجيب أمره، أسقط كلمة أستاذ ثانية كما أردت، لكنه ما قال «صادق». تقدم إلى مكتبي ووقف يقول:

«لكننا سوف نلتقي بعدما أقرأ الجزء الثاني ممهورًا بتوقيعك لعمتي زمزم».

شممت عطر ماء الورد حينما اقترب يلتقط الرواية من طرف المكتب. فتح الغلاف ثم وضع النسخة مفتوحة أمامي على صفحتها

الأولى:

«ألن تباركها بتوقيعك أستاذ».

أطبقت غلاف الرواية وأجبته:

«مع كامل الاحترام للسيِّدة المحترمة زمزم، الرواية لك، وعليك أن تقول اسمك إذا أردت توقيعي».

أزعجتني جرأته بالإمساك بقلمي وفتح غطائه. ناولني إياه ودفع إلي الكتاب مفتوحًا على أول صفحة. قال:

«توقيعك أستاذ».

«اسمي صادق!».

ارتفع صوتي رغم محاولتي التحكم في أعصابي، فارتفع صوته فورًا:

«وأنا غايب بْؤدَزياه».

أطبقت الكتاب ودفعته إليه وأنا أعتذر عن التوقيع لاسمٍ مستعارٍ أهبل. فأعاد فتح صفحة الغلاف ودفع الكتاب إليّ. وقال على طريقته بتقطيع الكلمات:

«غايب.. عبدالعزيز.. الهذار..».

لعله انتبه إلى وقع الاسم على وجهي مثل صفعاتٍ ثلاث، فأسرع يمازح:

«..لكني لحسن الحظ بلسان واحد».

افتعلت ضحكة وقلت إنها مزحة، لكنه أخرج بطاقته المدنية من جيبه، وقرأت اسمه، ووقعت له على صفحة الغلاف الداخلية بلا حول ولا قوة على قول شيء. حمل الجزء الثاني وسألني إن كان هناك ثالثًا وأجبته بأنه ما زال مسوّدة بفصول متفرقة. وفي أمان الله رحل. وصار سِفر التَبّة بين يديه.. مضت دقيقة أو اثنتان وأنا أفكر لماذا تركته يرحل مع الكتاب؟ ومن أين يجيء الشايب بحكاياتٍ يلقنني إياها؟ وإلى أين تُفضي؟! فتحت النافذة أطل على رصيف العمارة في الأسفل. أوقف الرجل سيارة أجرة. وابتلعته المركبة البرتقالية فانعطفت بدوار الجهراء يسارًا، واختفت في شارع السور.

قال لي الشايب قبل أربع سنوات إن هذه الحكايات سوف تدخلني في مشكلة لا تخطر لي على بال ولم أصدقه. وها أنا على موعد مع مصيبة قضائية فريدة على ما يبدو. قاتل الله الشايب وحكايات الشايب واليوم الذي قابلت فيه الشايب!

***

سلسلة إبداعات كويتية

(25)

أسفار مدينة الطين

«٢»

سِفر التبَّة

إلى غايب عبد العزيز الهدار
ومحبتي زمزم

بوحدب
١٦/٦/١٩٩٠

تأليف

صادق بوحَدَب

رسوم

فياصل المشيعل

تصدر السلسلة عن المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب كل شهرين وتوزع إصداراتها مع سلسلة «من المسرح العالمي».

سعر النسخة

الكويت ودول مجلس التعاون الخليجي؛ نصف دينار.

الدول العربية الأخرى؛ ما يعادل دولارا أمريكيا.

الدول الأجنبية؛ ما يعادل دولارين أمريكيين.

المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب - إدارة المطبوعات والنشر - أبريل ١٩٩٠

«وقبل بلوغِه الحَوْلَ يولدُ في التَّنُّور من جديد»

أم حَدَب / سِفرُ التَّبّة: 32

يبدأُ سِفرُ التَّبّة

يسبقه سِفرُ العباءة

(23)

نبوءات أم حَدَب

«أمثولة العَنفُوز والمولاف»

اعتكفت فضّة في حجرتها الجديدة صائمة عن الحياة. ولو قُيّض لها الإضراب عن النَّفَس لأضربت. وخادمة شريفة إلى جوارها تُقمّط الرّضيع. جاءت إلينور تسأل عن حال الوليد والصبيّة النّفساء بعدما أبطِل زواجها، فألفت زجاجة أخرى للدواء الذي أسماه خَليفُوْه «ماي غريب». والغريب.. أن الطّبيبة قلّبت الزُّجاجة بين يديها وأبصرت مُلصق بلد المنشأ منزوعًا في أسفلِه أيضًا، مثل القنينة الأولى التي صادرتها قبل خمسة أيام. غير أنها هذه المرّة لم تُصادرها وتركتها في فراش سَيف. واكتفت تسأل فضّة من أين تجيء صاجّة الجزيرة بهذا الشيء. غير أن الفتاة النّفساء المفجوعة في حظّها الرّديء ما ردّت على الطّبيبة ولا ألقت لسؤالها بالًا. وظلّت تبحلق صامتة إلى الفراغ على حالها مُذ أفجعها القدَرُ بحُكمه قبل ثلاثة أيام. تتخايل لها أطياف سليمان في كل وقتٍ ولا تصدق أن شيئًا مما كان لن يعود. زيجة صارت وانتهت مثل تمثيليةِ غرسٍ أدّتها مرارًا في لعبة المحاكاة القديمة. *بَزُوي كان زواجنا يا سليمان.. بَزُوي.*

سعت إلينور إلى أن توجِدَ لها مجازًا للحديث عن الزواج المسيحي، وأن شيئًا من قَبيل إخوة الرّضاع ليس موجودًا لدى المؤمنين بالآب والابن والرُّوح القُدُس، غير أن الفتاة الصّامتة ما واربت بابًا تنفذُ منه الطّبيبة إلى ساعة تبشير. ولمّا طالَ الصّمت ولم تُجب فضّة على سؤال الطبيبة عن زجاجة الماء الغريبة أجابت خادمةُ

شريفة، وهي تُهدهد الرّضيع، أن أُم صَنقُور تأتي بالبركة من البحر. مِن موجةٍ مباركةٍ تجيء بالعجائب لمنفعة الخلق، وأن خادمة المقام امرأةٌ مبروكة، ولها ولدٌ صغيرٌ لا يكبُر، يُخرج الضّوء من كفّه. صَنقُور القصاصة الذي شوهد مرارًا يزور الدّيرة بين آنٍ وآن. قيل إن بعض مُصلي مسجد «السّاير» القِبلي شاهدوه أكثر من مرة وقت صلاة الفجر، يُضيء صخرة السّاحل بكفّه المشِعّة قبلما يُغرق نفسه عامدًا في البحر. وينتظرُ الرّجال خروجه طويلًا حتى شروق الشّمسِ ولا يخرج، ثُمّ يراه أهل الدّيرة بعد شهرٍ مثل قِطّ بسبعة أرواح.

اشتفّت الطّبيبةُ ثُمالة الشّاي في كأسها الصّغيرة، وهي تُنصت إلى أساطير صاجّة الجزيرة ومعجزاتها على لسان خادمة الجارة. فخرجت من حُجرة الفتاة، ونشَزَت إلينور بهيأتها المغايرة أمام النّساء في اللّيوان، بفستانها الرّبيعي المشجّر قصير الكمّين، مكشوفة السّاقين إلى أسفل رُكبتيها بشِبر. تُزيِّن جيدَها الأبيض بسلسلةٍ ذهبيةٍ دقيقةٍ تنتهي بصليبٍ صغيرٍ لا يكادُ يُرى. وقد ضمّت شعرها الدّاكن القصير أعلى رأسها. كانت تحملُ أدويتها في حقيبةٍ جلديةٍ سوداء، وفي يدها الأخرى كأس الشّاي الفارغة.

ووقفت شايعة عند باب الحجرة، تستمع إلى تحذير الصاجّة أُم حدَب من جفافِ فضّة، وضرورةِ حملِ سَيف إلى مُرضع. فقاطعتهما إلينور وهي تمدُّ كفّها بالكأسِ إلى شايعة تشكرها على حسن الضيافة. ودخلت الصاجّة حُجرة فضّة وخرجت تحملُ الرّضيع، عابسة في وجه الطبيبة التي تتحدّث عن معجزات المسيح ولا تأتي بواحدةٍ مثلها. تبغضها كما لو أنها المتسبِّبة ببلاءٍ بشرتها ولعنتها بالبياض الماسخ. ابتسمت إلينور وأخبرت شايعة أنها قامت بواجبها

تجاه المريضة. وأوصتها أن تهتمّ بغذاء كنّتها والكف عن تغطية وجه الرّضيع بالبُوشِيّة كيلا يختنق. برطمت أم حدَب قبل أن تقول للطبيبة:

«هذا مو شغلك».

وكأنما لم تسمعها الطّبيبة. أكملت حديثها لأم سليمان وهي تطمئنها أن تعب فضّة طبيعيٌ لمن هي مثلها في سِنٌ صغيرةٍ على الزّواج والإنجاب. صاحت عليها أم حدَب طائشة الصّواب:

«والصبيان والبنات العَنكريز متى يتزوجون؟! إذا شابوا؟!».

استأذنت الطّبيبة ومضت أم سليمان بوجهٍ أصفر توصِلها إلى الباب:

«مشكورة يا خاتون حليمة».

انفرجت شفتا إلينور الدّقيقتان عن ابتسامة واسعة، مُنتشية بما يخلفه وقعُ اللّقب في كلّ مرّة تُنادَى به. يُنسيها ما استقبلت به من ألقابٍ قبل سنوات؛ الكافرة، المسيحية، النّصرانية، العَنكريزية.

وشريفة في الليوان تحتسي الشّاي مع أم غايب، تُبحلق إلى إلينور فاغرة الفم. لكزت رفيقتها:

«أمينة! شوفي شوفي العَنكريزية الماسخة! بيضا كما القطنة الله ياخذها!».

غصّت أم غايب بضحكتها حتى انهمرَ الشّاي من منخريها:

«إذكري الله يا بنت الناس! والذي أعطاها يعطيك».

هفهفت شريفة مهفّة السّعف أمام وجهها فرنّت أساور معصمها اليُمنى. وهجست مُخَزِّرةً عينيها تتفرّس إلى الطّبيبة وهي تقطع الحوش إلى الباب:

«*الله يأخذ منها ويعطيني إن شاء الله*.. يقولون إنها تغتسل بالحليب، وهذا سر بياضها.. مصيبة تصيبها التي لا تخاف الله».

ألفَت إلينور الحمّارَ الذي جاء بها ينتظرُ عند الباب. فطلبت منه بعربيةٍ تُذكِّر المؤنّث وتؤنّث المذكّر، أن يُعيدها إلى مَشفى الإرسالية. تقدّمَ إليها الحمّارُ يجرُّ حِماره الأبيض، أحمر الظهر بفعلِ الحِنّاء، يتدلّى من رَسَنِه خَرَزٌ فيروزي يُبعِد شرورَ العَين والحسَد. احمرّ وجه شايعة إزاء قلّة حياء المرأة السّافِرة وهي تمتطي الحِمارَ مُنفرجة السّاقين مثل الرّجال. يظهرُ جزءٌ من سروالها الدّاخلي القُطني الطويل تحت الفستان، على مرأى من الحمّارِ ورجال السّكّة الغرباء في رائعة النّهار.

وما كادت شايعة تستديرُ مُقفلة إلى ضيفاتِها في الليوان حتى تناهى إلى مسمعها طرقٌ على الباب. شالت عباءتها وبُوشِيّتِها وحثّت خطوَها، وكأس الطّبيبةِ ما زالت في يدها. أمّلت النّفس بعودةِ سليمان. لكنه المُلّا إبراهيم كريم العَين، بدِشداشَتِه القصيرة وبِشْتِهِ الرّمادي المُرقّع، ينظرُ مباشرةً صوبَ وجهها المتواري بالبوشِيّة يُخَزِّز عينه اليُمنى:

«رأيتُ الخاتون العَنكريزية تخرجُ من داركم، كاسية عارية على ظهر حمار بغير حياء. يقولون إنها تزورُ ابنتكُم تداويها..».

هزّت أم سليمان رأسها موافقة من دونِ أن تُجيب. ومطّ المُلّا

إبراهيم شفتيه وهو يُمسّد لحيتَه الحمراء. ضيّق عينه يتفحّص المرأة ملتحفة السّواد أمامه:

«..الحذر الحذر.. هؤلاء النّصارى يُبشّرون بمِلّتِهم بين مرضاهم في بيت الزجاج وفي بيوت الناس. وأنا أخشى عليكم فتنةً في دينكم.. كُل الحرام حلال في مِلّتِهم».

استغفرت شايعة قبل أن تُجيب مُطرقة، وعيناها على كأس الشّاي في يدها:

«خاتون حليمة لا تُطيل البقاء يا مُلّا، بالكاد تحقنُ مريضتنا بالدّواء وتنصرف.. حتى أننا لا نسقيها من أوانينا، وإن شرِبت من آنيةٍ كَسَرناها».

امتقعَ وجه المُلّا إبراهيم:

«أرى أن أهل الدّيرة يصرّون ينادونها حليمة، ويا عجبي أن تُشَرّف النّصرانية باسم مُرضعةِ النبيّ عليه الصّلاة والسّلام!».

اكتفت شايعة تُصلّي على النبيّ، في حين أولاها المُلّا إبراهيم ظهره، يمضي في السّكّة مُتذمّرًا يضرب كفًا بكف:

«إنها نهاية الزّمان».

وجلت شايعة من تحذير المُلّا إبراهيم، لولا صوت المُلّا عبدالمحسن يتداعى في ذاكرتها مُطَمئِنًا: «يُسَخّر الله الكُفّار لتطبيب المرضى مِن عباده الصّالحين». جِراحة المُلّا عبدالمحسن، في مَشفى الإرسالية الأمريكية قبل أربع سنوات، كانت بداية الشّقاق بينه وبين المُلّا إبراهيم الذي ما انفكّ يؤكّد أنها نهاية الزّمان.

***

آمن المُلّا إبراهيم كريم العَين بنهاية الزّمان الوشيكة، مُذ صارَ للنّصارى شأنٌ في الدّيرة. ومُذ شيّدوا فيها بُنيانًا أرادوه كنيسة صغيرة مخفيّة في أرض الإرسالية أقصى الحَيّ القِبلي. قيل إنهم يزمعون أن يُعمّروا فيها برجًا، وقيل بعد بناء البُرج يُعلّق النّاقوس *يا نهاية الزّمان*.

تيقّن إمامُ مسجد سوق الحريم من قُرب الواقعة، مُذ صارَ النّصارى يُبشّرون بدينِهم، مُستغلين ضعفَ مرضاهُم وعوزهم إلى العلاج في «بيت الزجاج». يدسّون سموم منشوراتهم التبشيرية مع الأدوية لمن يستطيع القراءة من المرضى. إنها نهاية الزّمان، وغدًا تقومُ السّاعة إذا ما ظهرت الكنيسة للعلن، وإذا ما علّقوا النّاقوس في برجها الأخرس الخفيّ في الحَيّ القِبلي.

وما فتئ أفراد الإرسالية يُدهشونه ببدعِهم، ما دفعه إلى الطّواف على المساجد قبل عامين يؤلّبُ أئِمّتها، عندما شاهد الكُرَة الزّرقاء التي صارت حديث النّاس في الدّيرة؛ كُرةٌ على سطح مكتب الدكتور ميلْريا ذي الشّارب المتهدّل، كبير أطباء مَشفى الإرسالية المُشرِك الكافر. يقولون إن تلك الكُرة صورة لشكلِ الأرض التي خلقها الله بسيطة.

ما قَبِل المُلّا إبراهيم بهذه التُّرّهات، كُرةٌ بخطوطٍ وطلاسِم غير مفهومة يعيش فوقها الخلق! تسللت أخبارها من المجلات المعلقة بدفّتي باب مكتبة الشوق، فاعتلى المنبرَ وصاحَ في خُطبةِ الجُمعة، الأرضُ مُسطّحةٌ ولو كره المشركون والصامتون. يُشير إلى ما بين

قدميه، ويسألُ المصلّين أفلا ينظرون {..إلى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}. وهاجم الخطيبُ عبدالعزيز الرشيد ويوسف بن عيسى وصقر بن شبيب ومن لفّ لفّهم من دُعاة قراءة الصحف وطباعتها بحجة تعلُّم ما يسمى بالعلوم العصرية. وصارَ يطوفُ على الدّواوين والمقاهي والمساجد يجتمع بأئمّتِها، يُحرِّض على طرد أطباء المَشفى تجنُّبًا لفتنةٍ تقود إلى سخط الله على الدّيرة. واستمرّ بتأليب النّاس وتحذيرهم، إلى أن انتشرَ أمرُ انزعاج إخوان مَن طاع الله من وجود الإرسالية في الكويت، واتهامهم أهل الدّيرة بالكفر والزّندقة. فأمر الشّيخُ سالم الخطباء والوعّاظ، في المساجد والمجالس، بأن يُبَيِّنوا للنّاس فساد عقيدة الإخوان وتطرفهم في الدين وتعصبهم المجحف ضد كل طوائف المسلمين. فخشِيَ المُلّا إبراهيم أن يضعَ نفسه موضعَ خصومةٍ مباشرةٍ مع الأمير خصيم الإخوان. فصرفَ النّظر عن طردِ أطباء مَشفى الإرسالية، واكتفى يُحذِّر النّاس من اللجوء إليهم طلبًا لإبراء السّقم. وحرّمَ عليهم استفتاء المُلّا عبدالمحسن في أمور دينهم، بعدما سلّمَ المُلّا الضّالُ نفسه للنّصارى يُطبّبونه ويعبثون بأحشائه، حتى أنه سلّم لقولِهم بكُرويةِ الأرض وبرّر في خُطبة الجمعة من منبر مسجد السّوق: «سبحان من بسطها تحت أقدامنا وهي مستديرة».

غدًا تشرق الشّمس من مغربها ويفوت الأوان..

إنها نهاية الزّمان..

***

رتّجت شايعة بابَ دارِها بعد انصراف المُلّا إبراهيم مُلتحِفًا بِشتَهُ

الرّمادي، وهو يواصل ترديده بصوتٍ مُرتفع:

«إنها نهاية الزّمان..».

وعادت إلى جليساتِها في الليوان. وصبّت لنفسِها الشّاي في الكأس الفارغة في يدها، وتمطّقَت بعد حسوة، فنهرتها الصاجّة:

«يا ويلك من الله! أتشربين من كأس أم الصُّلبان التي لا تعرفُ الله؟!».

فشهقت شريفة ووضعت كفّها على صدرها، فاغرة الفم كأنما توشك أن تستفرغ:

«وع!».

فانتفضت أم سليمان تدرأ عنها التُّهمة:

«على هَونِك يا أم حدَب! ليس في بيتي إلا دزينة كؤوس واحدة، هل أكسر منها كأسًا كُلّما زارتنا الخاتون؟!».

برطمت الصاجّةُ وبيدها الرّضيع ولم تُحر جوابًا. *ولِمَ تزورك الخاتون؟ قطيعة تقطعها الصّفرا أُم الصُّلبان، لونها يجلب المرض!* فسألتها شايعة:

«الآن وقد عزلنا فضّة في حجرتها الجديدة، متى يعودُ سليمان يا صاجّة؟».

«يعود، إن شاء الله يعود».

أطلقت شايعة زفرة طويلة. سألتها الصاجّة:

«خير؟».

انفلتت أُم سليمان بالحديث عن ولدها يوم سماعه الخبر:

«كان ولدي سليمان الذي أعرف يوم أقبل من البحر.. ساعةَ سمع الخبر ورفعَ رأسه إلى السّماء..».

نظرت إليها النّسوة الثلاث يدفعنها لتتمة حديثها:

«..لكنه.. بعدما انحاش من النّظر إلى السّماء وأنزل رأسه.. خرج من بيتي ولدًا آخر لا أعرفه.. ما كان سليمان بن سهيل.. ما كان ولدي..».

حملَت حفيدَها من بين يَدَي أم حدَب، ومالَت الأخيرة على صُرّة الأصداف والقواقع إلى جوارِها وهي تقول:

«ولدك ضعيف إيمان.. ليس رجلًا بعدُ.. صغير وما خبر الدنيا.. دلْوع وغدًا يكبر ويعقل.. لا تخافي..».

وفرشت قماش صُرّتها على بساط الخوص المجدول. فراحت تهزُّ قبضتيها المطبقتين على بعضهما بالقواقع والأصداف. ولهجت بما يُشبه الصّلاة تستعيذُ من سوء الفأل(1)، وطلبت إقبال البشائر:

«..إن أقبَلَت باضَ الحمامُ على الوتد، وإن أدبَرَت بالَ الحمارُ على الأسد..».

طشّت الصاجّة القواقع والأصداف على خرقة القماش بعدما لفظت تعويذة الحمام والأسد. ثمّ راحت تُحملِق إلى قوقعتين خرجتا من الخرقة. التقطت كُبراهما بإصبعيها:

«..هذا سليمان ولد شايعة..».

استطردت بعدما أطالت التّحديق إلى القوقعة. قالت ما منحها

مالك الغيب وكاتب الأسفار من معرفةٍ يخُطّها في هذه الصحائف:

«..لا يَزينُ العَنْفُوْز في غير محلّه.. وهكذا سليمان..».

لا تعرفُ شايعة هيئةَ سمكةِ العَنْفُوْز إلا رمادية كابيةً كئيبة في مساطبِ باعة السّمك في الفُرْضة(2)، ولكنها سمعت كيف تبدو السّمكةُ تحت الماءِ زاهية الألوانِ بهيّة تسرُّ النّاظرين. هزّت أم سليمان رأسها تدفعُ الصاجّة إلى مزيدِ كشفٍ لفألِ ولدِها، في حين تنصتُ أم غايب وشريفة إلى العجوز الحدباء:

«..يعودُ المُؤلاف إلى مكانٍ يألفُه.. وهكذا سليمان..».

تتخيّل شايعة طيورَ دارِها، تلك الوفيّةُ للمكان. كُلُّ الطُّيور تحطُّ وتطيرُ إلى غير رجعة، إلا المُؤلاف يتوِّجُ غيابه بالمجيء أبدًا. وتومئ برأسِها مطمئنة، تتحرّى تتمّة حديث الصاجّة التي أطبقت جفنيها تقول ما لا يُفهَم:

«..يهرب مِن سِفر التَّبّة مثل العَنقُوز، ويعود إلى بيته القديم مثل المولاف..».

تومئ شايعة بغير فهمٍ وهي تداعب أُذن سَيف الخطلاء. فتلتقط أُم حدَب القوقعة الصُّغرى وقد بدَت في حجم عقلة الإصبع. فقالت:

«..هذا سيف ولد فضّة وسليمان!..».

رنَّت أساور شريفة وهي تُهفهف بالمهفَّة. فسارعت الصاجّة تستدرك:

«..ولد الأخوين فضّة وسليمان..».

اضطربت ملامحها وجحظت عيناها وهي تبحلق إلى القوقعة الصُّغرى بين إصبعيها:

«..إستِر يا ستّار! بالَ الحمارُ على الأسد!..».

رفعت شايعة حفيدها تُسند رأسه إلى كتفها. *يا ربّي اِكتب له الخير والبركة*. تستطرد العجوزُ البرصاء بعد صمت:

«..هُوَ هُوَ.. هُوَ ابن أُمّه وابن عمّتِه، هُوَ ابن خالِه وابن أبيه. وهُوَ الذي يحرقُ مكانًا ينامُ فيه!».

استعاذت شايعة بالله من إصرار أم حدَب على نبوءة النّار. تتذكّر

ساعة مولدِ حفيدها قبل عشرةِ أيام، وساعةَ قولِ الصاجّةِ وهي تُعالج حبل شرّتِه، إنها ترى في مجيئه النّار. فعصرَت حفيدَها بين ذراعيها وصدرها. وردّت على أُم حدَب المشغولة بقراءة فأل سليمان وسيف في القواقع والأصداف:

«فأل الله ولا فألك يا صاجّة! كفّي عن ذكر النار. لن يخرج الولد من البيت، ولا طاقة لِـ فضّة على فراقه..».

تختنق بعبراتِها ويتهدّج صوتها:

«.. ولا أنا..».

تلتفت صوبَ الباب تُمنّي النّفسَ بنبوءة المُؤلاف:

«..يجب أن يُعجّل سليمان بالمجيء».

عاودت أُم حدَب التقاط قوقعة سليمان، وتفرّست فيها عاضّة على لسانها قبل أن تُجيب:

«يطول به الدّربُ إلى دارِه، يُبطئ.. لكن لا يُخطئ..».

قرّبت القوقعتين، الكبيرة والصّغيرة، إحداهما إلى الأخرى وفرّقتهما مرّتين، ثمّ ألصقتهما ثالثة وهي تقول:

«..تجمعهما صُدَفٌ مثل غريبين، فيتعارفا في صدفة أخيرة..».

لمّت أُم حدَب قواقعها وأصدافها في قلبِ صُرّتِها وهي تُنهي:

«..هذا ما يقوله كاتب الأسفار.. والعلم عند الله».

ردّدت أم غايب وشريفة:

«ونعم بالله.. سبحانه».

الاطمئنان الذي انتابَ شايعة استحالَ قلقًا تجلّى في ملامحِها واختلاج منخريها وشفتيها. عاودت سؤال الصاجّة بصوتٍ مُرتجف:

«يُبطئ طويلًا؟».

تَرنو الصاجّة إلى أُم غايب وشريفة:

«العلم عند الله».

وتُردِّد أُم غايب وشريفة:

«ونعم بالله.. سبحانه».

تتكئ أُم سليمان بكفِّها على الأرض، تعاون نفسها على النُّهوض حاملة حفيدها:

«أذهبُ إليه في بيت العَم سَنَد».

تُطبِق أُم حَدَب قبضتها على ركبةِ شايعة تدفعها إلى الجلوس ثانية:

«يعودُ المُؤلاف حُرًّا على هواه.. إن أقبلتِ عليه أدبرا».

***

(24)

مسجدان وكنيسة وكنيس

«والصاجّةُ ما الصاجّة إلا في يومِ السَّدِيس»

بيت أُم حَدَب، ليلة السَّدِيس، طقس التَّسليم:

«السّبت سبَفبوت، والأحد عنكبوت، والاثنين بابين، والثّلاثا منارة، والأربعا بشارة، والخميس نذبح إبليس، والسَّدِيس [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 1990/138]، والجمعة عيدنا وعيد الرّسول».

سوف يُردّد أطفالُ الدّيرة هذه الكلمات منقوصةً على سبيل اللّهو

في قابل الأيام. يغنّونها بلا فهمٍ ولا مغزى، مثلَ أي أُهزوجةٍ خالدةٍ تسرّبت من الصاجّات إلى أبناء الطين، زمن مدينة الطّين، وجاوزتها إلى من يعيش الغد في بيوتٍ غريبةٍ كبيرةٍ متينةٍ مثل بيت الزُّجاج في الحيّ القِبلي العتيق. وما ردّ أحدٌ كلمات الأهزوجة إلى أصلها، وحارَ حُرّاس الغُبار(3) في تفسيرها، ولا يدرون أنها في الأصل تعويذة من تراتيل السّدِيس الأُثمونيّة، تكسرُ أقفالَ اليوم الخفيّ، وتفتحُ لصاجّات الدّيرةِ مَجازًا سالِكًا يُفضي إلى ملكوت كاتب الأسفار.

تربّع خَليفُوْه على الأرض في زاوية الحَوْش المثلّث، واندسّ أشهب وإلينور وراء ظهره، يحضرون طقس التّسليم صامتين. ولمّا ردّدَت الصاجّات من تراتيل الأُثمون مُطرِقاتٍ مُغمضات؛ طارت طيوزُ اللّوْهةِ الواقفة على شور البيت المثلّث، فاحتجبَ القمرُ الأحدب في غير أوان خسوف. وتوهّجت النّجوم في كوكبةِ العذراء قبل انطفائها واحدة تلوَ شقيقتها، مثل جمراتٍ على الرّمل زحفَ عليها موجُ اللّيل. وانتقلت عدوى الأفولِ إلى بقية النّجوم المنثورة في الفضاء. فتسربلت الأجرامُ المضيئة عباءاتِ اللّيل البهيم.

وحده نجمُ رأس الغول، نذيرُ الشّر، بزغَ عاريًا في الشّمال مُلازِمًا محلّه، وحيدًا في الظلام مثلَ غول. يُسلّط عينه النّجمية الوحيدة على الأرض. ويغمزُ بين وهَجٍ وخُبوّ. يراوحُ بين صِبغتيه الحمراء والزّرقاء في وميضٍ أبديٍّ في ظلمة اللّيل العتيم.

فضّت الصاجّات الثّماني المتربعات على الأرضِ حلقةَ التّراتيل، وتصاعدَ دُخان بخور اللُّبان والحَزمَل والملح المحروق في حَوش الصاجّة أُم حدَب. وانحنت كبيرةُ الصاجّات على حُفرةِ نارٍ توسّطت

حوش دارِها، تُقلِّب جمرها بمنقاشٍ حديدي، تحمل في يدها الأخرى العصا الذّهبية، وتتدلّى من عنقها وتتوهّجُ بفعل اللّهب قلادةُ الأصداف والأظلاف. ولا تنفكُ العجوزُ التي تبلغُ المئة بعد أثمونَين ترحب بضيفاتها السّبع المشغولات في تفاصيل ليلتهنّ العظيمة:

«حيّا الله البنيّات».

والصاجّات السّبع من حولها مُنهمكات يحضّرن لطقسِ التّسليم في حفلِ زارها الأخير. حفل تتعرّف فيه كبيرتهُنّ إلى خليفتها بعدما أوشك نجمها السّاطع على الزّوال. بعد مئةِ حولٍ شهدت فيها ما شهدت، وقدّرَت فيها المصائر بأمر كاتبِ أسفارِ المدينةِ العائشِ في الغد.

تألّقت في حوْش الدّار العجائز الثّماني بدرّاعاتٍ شعّت حول حُفرة النّار؛ حمراء، صفراء، بيضاء، سوداء، رمادية، بنفسجية، برتقالية وزرقاء.

باشَرَت أم حدَب النّار في الحفرة، وسخّنت أم حزام وأم صلاح الدُفوف فوق اللّهيب المستعر، وشدّت أُم غريب خيوط الطّبل البحري الكبير وسوّت جِلدته، والتقطت أم صَلبوخ وأم عبدالرّحيم الجمر من الحفرة، وطافتا بين أركان الحوش الثلاثة تحملان المباخر، وأمسكت أُم جابر بآنية نقيع الزّعفران الأصفر تمزجها بماء لقاح النّخيل وزيوت الهند، وأقعَت أُم عَوَض بدرّاعتها الزّرقاء في زاوية أحد اللّواوين الثّلاثة، تولي ظهرها للحوش تنحني وتُقرّب جبينها عند التقاء جدارين، مُبيضّة العينين مُزبدة الشّدقين تسعل شعالًا يُشبه النُباح. تبعث سَحنتها على القشعريرة حتى في أبدانِ

ضليعات السّحر والكهانة في البيت المُثلّث في المرقاب.

يبدو البيت الكائن في وسط الحيّ، تحت سماءِ اللّيل الظليم، مثلَ فضاءٍ مُرصّعٍ بالنّجوم تتطاير فيه الشُّهب، بفعلِ الشّرر المتصاعدِ من حُفرة النّار المستعرة، وأنوارِ تسعةِ سُرُجٍ مُعلّقةٍ بأعمدة اللّواوين المحيطة بالحوش ثلاثي الأركان. يُمثّل كُلُّ سِراجٍ في طقسِ التّسليمِ صاجّةً من صاجّات الدّيرة الثّماني. وتاسع السُّرُج يُمثّل صاجّة الجزيرةِ المعذورةِ بغيابها في خدمة المقام ومُريديه. غصّت جدران الدّار الطّينيةِ بالطلاسم المخطوطة بالرّماد والطّبشور، ولطخات حِنّاءٍ لكفوفٍ مُتباعدة الأصابع، ومِسبحات كهرمانية وفيروزية وصدفية وأخرى من أخشاب الصّندل الفوّاح. وخُصَل كثيرة من سقطِ شعرٍ أم حدَب مدسوسة بين شقوق الجدران درجت على جمعها منذُ صِباها؛ خُصل سود، شيباء وأخرى ناريّة الصّبغةِ بفعلِ الحِنّاء. وعلى الجدار عن يمين الباب الخشبي عُلّقت ثماني عباءات، وأُسنِدَت ثماني سَعفاتٍ راكِزة الأعقاب في الأرض.

شمّرت الصاجّات عن سواعدهنّ. وحملت أربع منهنّ الدُّفوف بعد إحمائها قُرب حُفرة النّار. وعلّقت أُم غريب الطّبل الكبير بحبلٍ على رقبتها، تمسحُ على وجهيه الأيمن والأيسر بكفّين مشدودتين. وقُرب اللّيوان أم عبدالرّحيم وأُم عَوَض تُمسكان أقراص الصّنج النّحاسية. وأم حدَب تُمسك السّعفة والعصا الذّهبية أمام صدرها. ووقفت كُلُّ صاجّةٍ أسفلَ سِراج، تُسند ظهرها إلى عمودٍ من أعمدة اللّواوين التّسعة المطلةِ على الحوش وحُفرة النّار. بقي بينها عمودٌ واحدٌ بلا صاجّة تُسند ظهرها إليه. عمودٌ مدهونٌ بالأخضر، رُسِمَت عليه عينٌ تُبصر من خلالِها الصاجّةُ أم صَنْقُور طقسَ التّسليم وتشهدُ أحداثه

وهي بعيدةٌ في الجزيرة.

نُقِرَت الدُّفوف بإيقاعٍ «سَنكِني» لا يُسمع إلا في غناء الرِّجال، فالصاجّات لا يولين اهتمامًا لأجناس الغِناء ما دام هذا النّوع يستهوي كاتبَ الأسفار ويُطربه ويُقرّبهنّ إليه ليلة السّديس. ولولا ولوج العجائز ليلة اليوم الخفيّ لهزَّ ضجيجُ النّقر والقرع والتّصفيق والرّنين والغناء البيوتَ النائمة في حيّ المرقاب كلّه.

بدأت الدُّفوف بأربع ضرباتٍ فشاركتهم أُم غريب في الخامسةِ تقرعُ الطّبل. ثُم ارتفع رنينُ أقراص الصّنج النُّحاسية بين يَديّ أم عبدالرّحيم وأم عَوَض المتخشّبة بعينين بلا حدقتين. أرعدَ حوشُ أم حدَب بالقرع والنّقر والرّنين. وانفرجت شفتا أُم غريب عن آهَةٍ انسلّت من أعماقِها شفيفةً مثل هديرِ موجةٍ عظيمة، تُلحِق الآهَ بآهٍ تمتدُّ حتى انقطاع النّفس. تشدو حامِلة طبلها البحري، تصفعُ وجهه الأيمن، ثُمّ تُعاجل الأيسر بصفعةٍ أقوى كأنها تُمسك بوجه عدو. وأُم حدَب غائبةٌ أسفل عمودها تُراقص السّعفة والعصا الذّهبية طَرِبة. تُنقّل خطواتها بخِفّةٍ موزونةٍ محسوبةٍ كأنها في غمر الصّبا. تودِّعُ غمرَ الكِهانة بالغناء والرّقص والابتهال لكاتب الأسفار.

انحنت الصاجّات الأربع يُرِحن الدُّفوف على الأرض بين سيقانهن. واستقمنَ فأرعدت كفوفهنّ المشدودة بالشّربّكة (4). وأمطرن حَوْش أم حدَب بتصفيقٍ معلوم العدد. ثُمّ انحنين واستقمن ثانية رافعات الدُّفوف فوق الرؤوس، يُهلِكنها صفعًا حتى تُصدر ما يُشبه الرّنين، كأنما الدُّفوف لِشدّة الصّفع أنّت ناسيةً صوتها. ولبثن في حالهنّ طويلًا لولا نُباح أم عَوَض الذي ارتفع في الحَوْش بعد منتصف ليل آخر أيام الأثمون. فسكتَ النّقرُ والقرْعُ والتّصفيقُ والرّنين والغناء. ثُمّ

جرّت أم عَوَض خطواتها إلى منتصف الحوش، وراحت تحثو التّراب على حفرة الجمر. فسطعت شعلات السّرُج في الظلام أكثر. وأقفلت أم عَوَض إلى عمودها وقد استعادت سوادَ حدقتيها.

تسمرت العجائز مُسنِدات الظهور إلى أعمدتهنّ صوامت. يُمرِّرن أنظارهُنّ على السّرُجِ المعلّقة على الأعمدةِ فوق الرؤوس. ينطفئ سِراجا أم حزام وأم صلاح في اللحظة نفسها، وتلهث أم حدَب. ينطفئ سِراج أم غريب. وتتصبّب أم حدَب عرقًا وتئن. تنطفئ سُرُج أم صَلبوخ وأم عبدالرّحيم وأم جابر. وكبيرة الصاجّات بالكاد تقف أسفل سِراجها وقد ناءت بحدَبَتها التي تزداد وزنًا كلما انطفأ سراج. انحنت تُنقِّل بصرها بين سِراج أم عَوَض وسِراج العمود الفارغ. فانطفأ سِراجُ أم عَوَض أخيرًا وبقي سِراجا أم حدَب وأم صَنقُور يشتعلان شطرًا من اللّيل حتى آخر السّحر.

طالَ الوقتُ وشارفَ يومُ السّدِيس آخره. وأم حدَب توشك على الشقوط. *إعتقني*. وكِلا السّراجين صامدٌ وهّاجٌ قُبيل الفجر. *أنا تعبت*. وعجائز اللّيل واقفات مُنهكات خائفات. *والقصة طالت*. حتى غزاهُنّ الشّك في نيّة كاتب الأسفار تتويج صاجّةٍ جديدةٍ ترأس صاجّات الدّيرة. *لا تلعب مع أم حدَب*، رجوتك *يا كاتب الأسفار!* فلو أشرقت شمش الجمعة قبل انتهاء طقس التّسليم سوف يَعلقن في يومِ السّدِيس هذا أبدًا، يلتهمهُنّ اليومُ الخفي فتُطوى سيرتهُنّ في مدينة الطّين أبد الدّهر.

انطفأ السّراج في عمودِ أم حدَب أخيرًا، وتصاعد خيطُ دُخانه دقيقًا مُرتجفًا يعرجُ إلى السّماء، وظلّ سِراج أم صَنقُور وهّاجًا يُنير عمودها بين الأعمدة الثمانية التي التهمها الظّلام.

رفعت الصاجّات رؤوسهنّ إلى السّماء خائرات القوى، يشهدن أُفولَ نجمِ الغول بعدَ ثلاثين حولًا من أفولِه الأخير، عندما شارفت كبيرة الصاجّات الرّاحلة أم جوهر على إتمام مئويتها. اختفى النّجمُ في ليلة سِدِيسِ قبل ثلاثة عقود، ليلة طقسِ تسليم أم جوهر العهدة إلى الصاجّة السّبعينية آنذاك؛ أم حدَب.

جثت أم حدَب على ركبتيها وأراحت حدَبَتها إلى العمود. وجهها الأبرص بلون الدّم. تأكد لها أخيرًا أن النّجم سوف يبزغُ على صاجّة الجزيرة الأربعينية في سِديسِ مُقبل، وأنها لم تعُد صاجّة بعد اليوم، وأنها لن تلجَ السّديس إلا ضيفة فيما بقي لها من حياة في ثاني الأسفار. وتسارعت العجائز إلى العمودِ ذي السّراج المشتعل، يقفن أمامَ رسمِ العين مُطرقاتٍ ذليلات لا يرفعن عيونهنّ عن الأرض، إلا أم جابر راحت تسكبُ خليطَ الزّعفران ولقاح النّخيل أسفل العمود المُصطفى. فعادت إلى البُنيّات تقفُ بينهُنّ لا ترفع عينيها عن الأرض.

نهضت أم حدَب قبيل طلائع ضياءِ الجُمعةِ تؤذن بانقضاء السّدِيس. وقفت مُتحاملة على ضعفها، وجرّت خطواتها في تُراب الحَوْش على مهلٍ مطبقةً القبضة على العصا الذّهبية. وأقبلَت على عمود أم صَنقُور حيث السّراج المشتعلِ في رمقِه الأخير. والشُّعلة تسطعُ وتُراقص خيال الظلمة في الحَوش. فتفرّقت الصاجّات المُطأطئات لمرور الحدباء إلى العمود المبارك. وأبصرن على الأرضِ ظلّها العظيمَ يتراقصُ وراءها. يشاهدنها في الظّل، تنزعُ قلادتها وترفعها عاليًا أمام العمود. فماءت إلينور في زاوية الحَوْش، وصاحت أم حدَب بالشّاب المتربّع في زاوية الحَوْش:

«خَليفُؤهْ!».

فحطّت طيورُ اللّوهَةِ على الشور ثانية، وقطع الشّاب حَوْشَ أُم حَدَب، وسلّمته القلادة والعصا الذّهبية مرصّعة المقبض باللآلئ، على أن يحتفظ بالعصا وصيًا على عرش طوعَس، وأن يوصل القلادة إلى صاجّة الجزيرة بعد أثمونَين ويومين تُسوّي خلالهما أُم حَدَب آخر ما بقي لها في مدينة الطّين. وعاهدها خَليفُؤهْ على أن يحفظ الأمانة أسبوعين وأربعة أيام، في صندوقٍ تحرسه القِطَط، قبل تسليم القلادة لكبيرة الصاجّات خادمة مقام الجزيرة. وارتفعَ نشيجُ العجائز في الحَوْش المثلّث. وما ماتت العجوز بعد طقس التسليم هذا، غير أنها في ناموس أسفار مدينة الطين.. قد ماتت.

وأرّخت الصاجّات تفاصيل ليلتهنّ العظيمة تلك في رزنامة مدينة الطّين، تحت عنوان: ليلة أم صَنقُور.

***

مسجد السوق الكبير، صلاة الجُمعة، الخطبة الأولى:

«الحمد لله الملك الرّحمن الرّحيم السّلام المعبود. فائق الرّحمة الغفّار ذي المن والجود. واهب الحياة وخالق الوجود، الذي تفرّد بالوحدانية، والملائكة وأولو العِلمِ على ذلك شهود..».

استهلّ إمام مسجد الشوق الكبير خطبة الجمعة بعدما اعتلى منبره يتكئ على عصاه، مُجلّلًا بِبِشتِهِ البُنّي يشعُّ وجهه بلحيته البيضاء.

يُلقي الخطبة الأولى أمام المصلّين وهو يُمرّر خرزَ سِبحته بين أصابعه. وأمارات الكدر مرسومة على قسماتِه. يبدو منفعلًا على

خلاف عادته. تعبرُ أصداءُ صوته الأعمدة الطّينية المدهونة بالجِص، وترتطمُ بجدران أكبر مساجد الدّيرة. يُمشِّط ببصره صفوف المصلين الذين نسيَ نصفُهم حادثة علاجه في مشفى النّصارى قبل أربع سنوات، ونصفهم الآخر لم يكترث للأمر برُمّته.

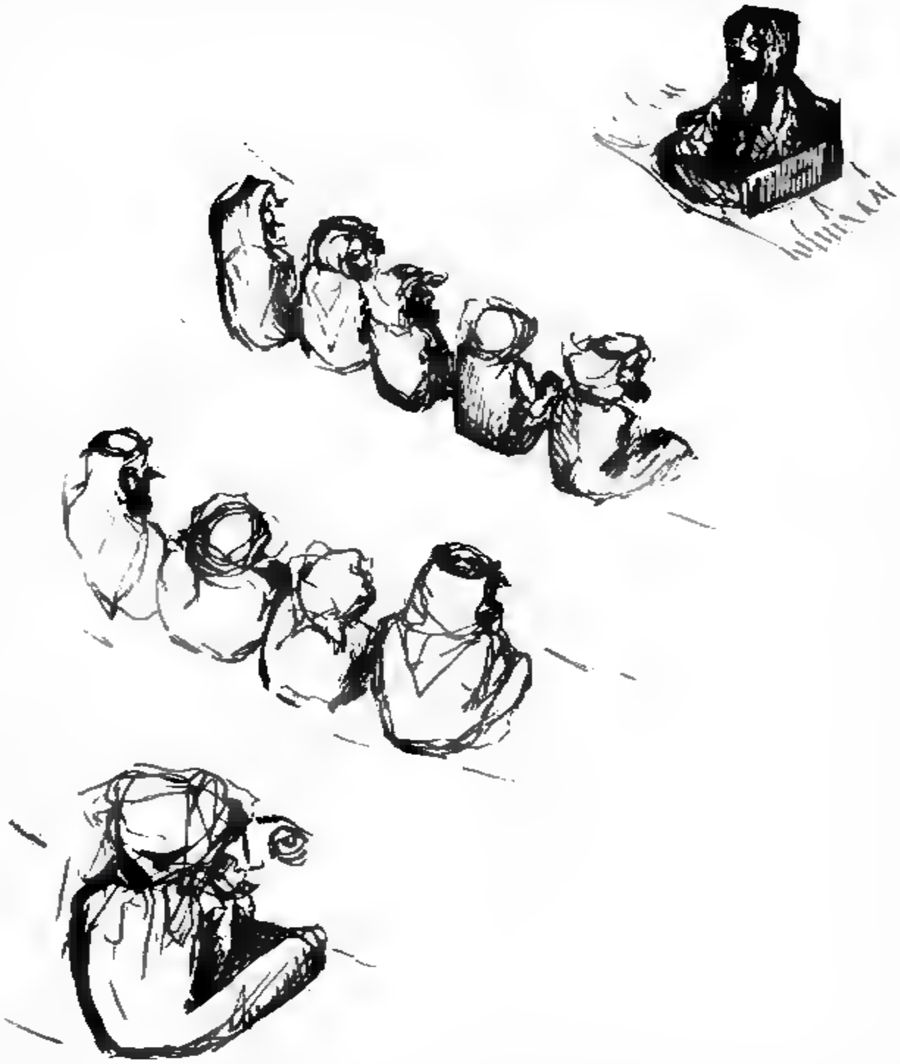

يلحظُ المُلّا في أوّل الصّفوف أبا السّواعد، الحاج عبدالله بن صالح، في بياض عقاله وغُترته ولِحيته ودِشداشَتِه وبِشته، يمُدُّ ساقيه يتوسّط أبناءه الثّمانية. يميلُ اثنان منهما يُدلّكان ساقيه ويُنصتان إلى الخطبة بخشوع.

«..الحمد له لا نُحصي ثناءً عليه. هو كما أثنى على نفسه حيث كان

ولم يكن هناك وجود. نحمده تبارك وتعالى ونستعينه فهو الرحيم الودود. ونعوذ بنور وجهه الكريم من فكرٍ محدود، وذهنٍ مكدود، وقلبٍ مسدود».

نقّلَ المُلّا عبدالمحسن بصرَهُ بين وجوه المصلّين الخاشعين، المتربّعين على بُسُط الحصير في أرض المسجد يُصيخون إلى استهلالِه الخطبة. النُّوخِذا بِن حامد يتربّعُ في الصّف الثّالث يُسنِد ظهره إلى عمود، يُنصِت إلى الخُطبة مُطرقًا، وإلى العمود نفسه أجيزه عَزّوز الهذّار يُسند ظهره، يُميِّزه خصيمُ الصاجّات مِن شاربه الكثّ وغترته المعقودة أسفل ذقنه مثل حجاب. يدلقُ ما في جوفه تسبيحًا واستغفارًا.

«..واعلموا عبادَ الله أنه عزّ وجلّ قد قالَ في مُحكم التّنزيل، بسم الله الرحمن الرّحيم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَينِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾. صدق الله العظيم. إخوتي في الله؛ إنما السّحر كُفرٌ وفتنة يدخل بيتَ المرءِ دونما علمه. والسحرُ حرامٌ تعاطيه، وحرامٌ طلبه، وحرامٌ تصديق أهله، بل هو من السبع الموبقات. ولا يُعفى المرءُ من عقاب الله جلّ جلاله بحجّةِ جهله بأمور بيته، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن خاتم الأنبياء والمرسلين نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم قال: ألا كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مسؤولٌ عن رعيّتِهِ، فالأمير الذي على النّاس راعٍ، والرجل راعٍ على أهل بيته، والمرأةُ راعِيَةٌ على بيتِ بعلِها وولده، والعبد راعٍ على مال سَيِّدِهِ وهو مسؤولٌ عنه، ألا فكُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مسؤولٌ عن رعيّتِهِ».

سكت يلتقطُ أنفاسه، فهمسَ يُسبّح باسم الله ويستغفر، ثُمّ استأنف

خطبته يُبحلق إلى الهذّار عاقد الحاجبين، يضربُ عصاهُ ثلاث ضربات في الأرض:

«..أيُّها الإخوة المؤمنون قُو أنفسكم وأهليكم شرّ النفّاثات في العُقَد. يُعالجن بالبِدَع والخُرافات شرّ العين والحسد، يوهِمنَكم بكشف الغيبِ والغيبُ في علم واحدٍ أحد. ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلّامُ الْغُيُوبِ﴾. صدق الله العظيم. عباد الله لا تُمكّنوا الشّيطان من دخول بيوتكم. ولا تُشرعوا لعجائز الشّر الأبوابَ فتُهدم البيوت من بعد عُمرانها. عجائز تدفن عظام القطط في البيوت

فيتفرق شمل أهلها. إيّاكم إيّاكم والحائدات عن الصّراط المستقيم، يُفسدن عليكم دينكم ودنياكم ويسوقنكم، والعياذ بالله، إلى الجحيم. إنما السّحرُ حقٌّ ذكره الله في كتابه الكريم، فتنةٌ خصّ بها اللهُ مَلَكيه هاروتَ وماروت اللّذين أنزِلا في بابل غير بعيدٍ عنّا. يقول المولى عزّ وجل في كتابه الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾. فكم من زوجٍ فارق زوجه بفعل مكيدةٍ شيطانية، وكم من ولدٍ شبّ من غير أبٍ وأبوه على قيد الحياة لأن سِحرًا فرّقَ بين أبويه.. أفتؤمنون بالصاجّات وبالله تكفرون، والعياذ بالله؟ أتصدقون خرافاتهنّ وما يكتُبنَ من أحرازٍ تحملها نساؤكم وبعض الرّجال؟».

قطعَ الهذّارُ تسبيحه رافعًا رأسه ينظر إلى الخطيب على منبره. أبصرَ عينيّ خصيمِ الصاجّات ما زالت تُبحلق إليه، فتحسّسَ عَضُده حيث الحِرز الجلدي تحت كُمّ دِشداشَتِه، ثُمّ طأطأ ثانية يُتمتم بتسبيحٍ أبدي.

«..إخوتي في الله إن ما يبلغ المرءَ من أخبار شيطانات الإنس، من أعمال الرِّجس، ينفطر لها الفؤاد ويشيبُ لها الرأس. كيف لا ومُتعاطي السّحر مطرودٌ من رحمة الله لا إله إلا هو..».

استلّ نفسًا عميقًا وأطلقه مصحوبًا بالاستعاذة والاستغفار، وأردف:

«..وأما شرُّ العَين الحاسدة فهي شأن السّحر، حقًّا ذكره الله في كتابه. وكلُّ ذي نعمةٍ محسود. فاعلموا عباد الله أنه في الصّحيحين قال محمّدٌ بن عبد الله صلى الله عليه وسلم: «لا رقيةَ إلا من عينٍ، أو حُمّى». وأما دواء العَين أحبتي في الله فهو سهلٌ مُتاحٌ إن شاء الله

تبارك وتعالى؛ بالتّوبةِ وكثرة الاستغفار، والذّكر والرُّقية، وما أُوصى به النّبي عليه أفضل الصلاة والسّلام. وللرُّقية شروط وأحكام، ليس من بينها ما تصنعه أخوات إبليس من علاجاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان. اسألوني مثل ماذا..».

لم يسأل حضور الخُطبة بطبيعة الحال، غير أن عيونهم المُصوّبة إلى الخطيب قد فعلت.

«..إنهنّ يعالجن المحسودات مُصابات العَين بالبِدَع والنّجاسة أجلّكم الله، بالدّم والشّعر المحروق والسّحر، فيزيدون الضُّرّ ضُرّا، وقانا الله وإياكم من شرورهن. فلا يخدعنكم بخلط كلام الله عزّ وجل في أحرازٍ وتمائم يدعونها رُقية والرُّقية منها بَراء. فلا يبرأ المحسود إذا ما تنسّمَ شعر الحاسد محروقًا كما تُشيع عجائز إبليس، فالرُّقية ما أباحه الله في القُرآن الكريم، أو بأسمائه جلّت قُدرته، أو بما ثبت من السُّنّة الشّريفة. أمّا لو كانت بما سوى ذلك فهي حرامٌ يودي بالمرء إلى سوء العاقبة، والعياذ الله».

ارتفعت همهمات الرّجال تستعيذ بالله من سوء العاقبة، فصمتَ الهذّاز عن التّسبيح.

«..وأما ما ثبت عن النّبي عليه الصّلاة والسّلام، فإنه أوصى باغتسال المعين بماء العائن.. من هما المعين والعائن؟ أما العائن فهو الحاسد الذي لا يذكرُ اسمَ اللهِ إن رأى ما ينقصه عند غيره، فيطلق سهامًا تخرج من نفسه نحو المحسود فيصيبُه. وأما المعين فهو المُصاب بشرّ العَين الحاسدة. فإن مسّ أحدَكم من العائن ضُرٌّ فاطلبوا العائن أن يغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه

وداخِلَةَ إزاره في قدح أو نحوه، ثم صُبّوا ذلك الماء على من أصابته العَين ليغتسل به فبإذن الله يبرأ من شَرِّ أصابه. وإن لم يكن العائن معروفًا للمعين فليلتجئ المعين إلى الله تعالى، وليقرأ ما ورد في السُّنة، هذا ما أباحه الله رحمة للعالمين فلا يغرنّكم فعل الشّياطين المُزيّن بكلمات الله التامّات. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذِّكر الحكيم. أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرّحيم».

أنهى المُلّا عبدالمحسن الخُطبة الأولى. وجلس يُريح ساقيه يتردّدُ أمامه الاستغفار في صفوف المصلين، وهمش الأصوات بالدُّعاء، وفرقعة الأصابع واحتكاك خرز السُّبحات. فنهضَ خصيمُ الصاجّات بعد بُرهةٍ يستعينُ بعصاه لإلقاء الخُطبة الثانية قبل إقامة صلاة الجُمعة.

***

مسجد سوق الحريم، صلاة الجُمعة، الخُطبة الثانية:

نهضَ الخطيبُ مُشتمِلًا بِبِشْتِهِ الرّمادي. يُبسمل ويُحمدل ويُحوقل، ثُمّ استهلّ الخطبة الثانية بصوتٍ قرارٍ ولسانٍ فصيح:

«الحمد لله الحسيب الرقيب المنتقم ربِّ الأرباب. القوي الجبّار المهيمن شديد العقاب. الذي أمرَ المؤمنين ألا يُقِرّوا المنكرَ بين ظهرانيهم، فيغمّهم العذاب. أو يُمهلهم في غَيِّهِم يعمهون إلى يوم الحِساب».

تنسابُ دمعة من عين عَطا الله بين المصلين في المسجد الصّغير ذي الصُّفوف الثّلاثة. يمسحها بظاهر كفِّه، ويتكوّر بجسدِه النحيل

داخل دِشداشَتِه الواسعة، فيرفعُ رأسه إلى كريم العَين يُنصت إلى صوته الهادر.

«..من يهْدِه الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آلِه وصحبه أجمعين، أما بعد..».

قِلّة من رجال الدِّيرة لا تُصلّي الجُمعة في مسجد الشوق، أو في مساجد الديرة الكبيرة، تفضيلًا لهذا المسجد الصّغير قُرب سوق الحريم رغم كثرة المساجد. يُفضِّل البعض هذا المسجد لفصاحة خطيبه ونبرة صوته وخُطبه الملتهبة التي يسمعها المتربّع حتى في الصّف الأخير في ساحته. ارتفع صوت كريم العين مُنتفخ الأوداج:

«..بانت أشراط السّاعة واقتربت نهاية الزّمان. وويلٌ لمن لا يعقل ولا يتدبّر، والعاقبة للمتّقين. وطوبى لمن أتى الله بقلبٍ سليم. يقول أشرف الخلق نبيُّنا صلى الله عليه وسلّم؛ يأتي على النّاسِ زمانٌ الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر. وإنّا والله نقبض على الجمر في زمن الفِتَن هذا. ونعضُّ على إيماننا بالنّواجذ كي لا نصير إلى ما صار إليه من قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. أقولها من هذا المنبر المبارك، إن السّاكت عن الحق شيطان أخرس، والحقُّ أن في الدِّيرة أُناس على ضلال، تمثّلَت في سوء أفعالهم علامات السّاعة وعجّلوا بقدومها. وقد أحلُّوا ما حرّم الله من ظهور الفُحش واستحلال الخمرة والمعازف. اِنبذوهم فقد نبذهم الله وخلقُه ودُحِروا إلى جحورهم في الخَوَط المظلمة وراء أسوار المقابر».

صمت يلتقط أنفاسه ويُعطّرها بالأذكار قبل أن يستطرد صائحًا:

«..يا عبد الله اتق الله فلن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتى تتبع ملّتهم. وها هم العَنكريز في بيت الزُّجاج يدعون مرضاهم إلى دينِهم ويُزينونه في عيون العباد المبتلين بالمرض. وقبضنا على جمر إيماننا بأيماننا وصبرنا وحاذرنا وحذّرنا، لكن أن يُبشّر لغير دين الله في السوق فهذا والله ما يندى له الجبين! أنظروا عباد الله واتّقوا وقو أنفسكم عذابًا شديدا..».

وأخرج كريمُ العين عددًا من مجلّة «الهلال» طواهُ في مَخبَى دِشداشَتِه. مجلّة مهترئة الأطراف من رحلة سَفرٍ شاقةٍ وطويلة، أمضتها في التّرحال تسعة شهورٍ من بلدٍ إلى بلدٍ ومن يدٍ إلى يد، حتى استقرّت آخر أمرها معلّقة بباب مكتبة الشوق قبل أن تطالها يدُ المُلّا. ولوّح الرجلُ الوقورُ بالمجّلة:

«..أين يوسف بن عيسى وعبدالعزيز الرشيد وصقر بن شبيب من ذلك وهم يدعون الناس إلى قراءة الصحف وطباعتها؟!..».

فتح المجلة وقرأ من أوائل الصّفحات:

«..هُنا، في هذه المجلّة المصرية، من يُسمّي نفسه توفيق مفرّج لا وفقّه الله ولا فرّج له همًا، فاسمعوا ماذا يقول: عيد ميلاد -والعياذ بالله- يقول في مثل هذا اليوم ولد يسوع! ويسوع يعني سيدنا عيسى ابن مريم عليهما السّلام! ويقول من هذا العيد نستمدُّ سرورًا يدوم معنا إلى مجيء العيد الآخر وهكذا إلى ما شاء الله! أيُّ عيدٍ هذا الذي تبشر فيه مكتبة الشوق وليس في الإسلام إلا عيدان لا ثالث لهما؟! ما لنا ولعيد ميلاد المسيح كأننا أمة لا تاريخ لها ولا

أعياد؟ إن أعياد المشركين من وحي الشّياطين، يفرحون بأعيادهم بفعل كل ما هو محرّم من سكر وفجور وغناء».

ألقى بالمجلّة على الأرض عند قدميه وتنحنح قبل أن يرفع صوته ثانية:

«..عباد الله إن الغناوي أصبحت محلّ ذِكر الله في بيوتكم وأنتم لا تشعرون. فالمرأة إن دقّت الهريس غنّت. وإن خمّت حوش دارها غنّت. وإن أنامت صغيرها غنّت. وإن ضاق صدرها أو نالها من الفرح نصيبٌ غنّت! ولا يُعفى الرّجل من اللّوم، وهو يجلس في المقهى ويستمع إلى المعازف في أسطوانات تلك البدعة التي أدخلها إلينا شياطين اليهود وانتشرت في بعض البيوت وأنزلت الغناء منازل ذكر الله تبارك وتعالى، وصار الرجل يستعين على قضاء أعماله بالغناء مثل الحريم أيضًا، كأن ذكر الله لا يعين المرء على تعبه ولا يبارك عمله. تأملوا معي عباد الله، كيف يبارك الله طعامًا أُعِد على المغاني؟ وكيف يبارك لكم في أعمالكم وبيوتكم وأبنائكم وأنتم منصرفون عنه وهو الغني الكريم».

صمت المُلّا إبراهيم يلتقط أنفاسه قبل أن يستطرد:

«..لا تسكتوا عن المنكر عباد الله.. فمن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه.. نعم، باللسان يا مؤمنين فإن رأيتم ما حرّم الله خبّروني. كونوا لي عينًا أصير لكم لسانًا من منبر هذا المسجد.. أخبرني أحد الإخوة الثّقاة من مُصَلّي مسجد «السّاير» بأن رجلًا يعمل مع العَنكريز في «بيت الزجاج»، يُشاهده مرارًا بعد خروجه من المسجد فجرًا، يجلس النّصرانيُ عند مدخل المستشفى

سكرانًا ويُحيِّي المُصَلِّين الخارجين من المسجد ويقول: تقبّل الله..».

ارتفعت أصوات المصلّين استغفارًا واستعاذة من الشّيطان، واستطرد المُلّا:

«.. إنما أقول قولي هذا لأني لسانكم، فأُسمع الآخرين عدم رضاكم، ينتقل من لسان إلى لسان، فيعلم الآثمون أن الخلق مع الله ضدّهم. أعينوني أعانكم الله.. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، صدق الله العظيم.. إخواني عبادَ الله، أطيعوا الله ورسوله وأولي الألباب..».

شدّ كريمُ العين العُصابة البيضاء على رأسه، ورفع المُصلُّون كفوفهم أمام وجوههم يؤمّنون وراء كريم العين.

«..اللهم أجِرنا من خِزي الدنيا وعذاب الآخرة..».

وكرّروا آمينهم مثل موجٍ يتكسّرُ عند منبر المُلّا بعد كُلّ دعاء.

«..واجعل الموت راحة لنا من كل شر. ربنا إنّا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. ربنا آتِنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار. وصلِّ اللهم على نبينا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين، والحمد لله رب العالمين.. وقوموا إلى صلاتكم يرحمني ويرحمكم الله».

وصلّى كريمُ العين بالرّجال، وما كاد يُلقي السّلام يمينًا وشِمالًا مُنهيًا صلاته حتى أقبل إليه عطا الله. لثمَ جبينه وكتفه وتربّع عن يساره وهامَسه:

«مُلّا.. ما حُكم السرقة من كافر؟».

«حرام! مالم تكن غنيمة حرب.. حرااام».

قذف كريمُ العين كلماته الخمس سريعة وأبطأ يمُطُّ السّادسة. ثُمّ مال على عطا الله كأنما يُبصره بعينه الكريمةِ وهمسَ:

«ماذا سرقت من بيت العَنكريزي سوّد الله وجهك؟!».

أخرج عطا الله من مخبَى دِشداشَتِه علبة إبر الغرامافون التي سرقها قبل أربعة أيام. وناولها كريمَ العين الذي سارع يقذفُ علبة الرِّجس في حِجر تلميذه بعدما أبصر على غطاء العلبة صورة كلب المونغريل:

«اِعلم يا ولد بخيتة إنك ارتكبت بدل الإثمِ إثمين؛ أولهما السرقة وثانيهما حمل صورة مخلوق من ذوات الأرواح.. لا، وهناك إثم ثالث.. أنك دخلت بهذا الشيء إلى المسجد».

***

الكنيس في الحيّ الشّرقي، صلاة السّبت:

«..وما عادت فتياتنا هذه الأيام كما عرفناهن. يُشاهَدن اليوم خارج البيوت حاسرات الرؤوس. ويرتدين ملابس غريبة إلى درجة الفجور، ملابس قصيرة تكشف سيقانًا لا تغطيها سوى جوارب رقيقة. وقد خلعن برقع الحياء وما عدن يُشبهن أمهاتهن..».

ارتجل الحاخام شمعون أجاسي خطابًا بعد إلقاء الدّرس الدّيني وتلاوة الصّلوات وبضعة من مزامير داوود.فأشاح بوجهه عن النّساء المحشورات في رُكنِهِنّ الخلفي. وواجه الرّجال في الصفوف الأمامية بصدره، مُحتدًّا في حديثه بعد ثلاثة أيامٍ من عيد الغفران. وبدت التفاتته إلى عاموس بِن شاؤول المنشغل عن الخطاب مقصودة ومدروسة:

«..أمّا الشباب فليسوا بأفضل حال منهن. وما عدنا نعرفهم وقد

تخلّوا عن ثياب آبائهم، وما عاد فيهم من يلبس الرّداء والزبون والطربوش. ولا نميزهم بين الآخرين، وقد صاروا مثلهم يعتمرون الغترة والعقال بحجة أن مظهر المرء لا يمس جوهره. واعلموا أن من يستبدل ما على رأسِه اليوم، يستبدل ما في داخل رأسِه غدًا.. فما بالكم تشبهون كلّ شيءٍ إلا أهلكم..».

أعاد عاموس لفّ غترته حول رأسه كيفما اتفق. ومرّرَ شمعون بصره على وجوه الآباء أسفل الطّرابيش في الصّف الأوّل:

«..واحذروا وحذّروا أولادكم أن يقودهم الفضول إلى الضلال عن الطريق بسبب انكبابهم على قراءة منشورات التبشير الأميركية، فيصدّقوا القسيس ويكذّبوا الحاخام».

تنبّه عاموس إلى حديث الرّجل الذي كذّبته الرّمّانات الثّلاث قبل خمسة عشر عامًا. وتذمّر في سريرته إزاء الكاهن المتجهّم. *كريم عين يهودي*. وعلى دأبه ما اكترثَ بِن شاؤول للدّروس الدّينية الأسبوعية. *لأنها الدروس نفسها*. ولا أنصتَ إلى الحاخام الذي يحرّم كلّ شيء، وهو يُكرّر قصة السّبي البابلي والشتات المعادة للمرة الألف. وشاغلَ نفسه عن أحلامهم بأرض الميعاد البهيّة، التي وعد بها إلههُم أبراهام، وجدّد الوعد ثانية لابنه إسحق، *ثمّ لحفيدِه إسرائيل الذي صارع الرّب، ولذريته من بعده!*

شرَد عاموس بخياله ثانية. يُفكر في أرض ميعاده هو، وحلمه القديم وأرض جدودِه، في الشّمال القريب، في البصرة، أرض البلابل التي لا تُغادر بساتينها إلا في أقفاص.. أرض النّخيل وأهوار الماء العذب. لا يدري ما الذي يحول بينه وبين السّفر إليها برًّا في يوم،

أو بحرًا في نصف يوم. فتأفّف معتكر المزاج على مألوف طبعه كلّ سبت. يحلمُ بسيجارةٍ في يومٍ لا توقد فيه نار. يتحرّى خروجه من الكنيس ليُشعلها له أيّ عابر في «براحة مبارك». يطوف ببصره على تفاصيل المعبد الصّغير في ملَل؛ القناديل المطفأة على الجدران، وتجويف الحائط المواجه للقدس قِبلةً، حيث تابوت لفائف الشّريعة المخطوطة على رَقّ غزال، محفوظة في التجويف المُغطّى بالقماش الأحمر الشّفيف.

أطال بن شاؤول النّظر إلى الرّجل ذي اللّحية الطويلة الكثّةِ المجلل بلباسه الكهنوتي، جُبّة كتّانيةً رثّةً سوداء مشقوقة المقدّم، تنفرج عن ثوبٍ مُحاط الوسط بحِزام الزّبون. وتنسدل من رباط رأسه خصلتان شَيباوان. أنهى حديثه لروّاد الكنيس يذكرهم بوصايا المندوب السّامي السّابق في الخليج، ابن دينهم السير بيرسي كوكس، بالابتعاد عن السياسة وتجنُّب إثارة المشاكل مع الأهالي، وعدم استفزاز الأمير الذي منع بيع الخمور في السّوق. فرفعَ شمعون صوته يدعو أبناء دينه أن يكفُّوا عن تقطير النّبيذ في بيوتهم، تلافيًا للمشاكل مع المختارين الذين كلّفهم الشّيخ سالم بِن صُباح في الأحياء يتربّصون بصانعي العَرَق وبائعيه وشاربيه.

«..ولا تُدخِلوا أنفسكم في خصومةٍ مع المسلمين حتى في التجارة، فهم الرابحون في آخر الأمر. وتذكروا خسارة صالح محلب العظيمة، بعدما حرّم المتعصبون من شيوخ الدين الشيعة شراء الثلج من معمله.. فخسر وباع المعمل لتاجر مسلِم شيعي».

تململ بِن شاؤول في جلسته. ومالَ على شابٍ يجلسُ إلى جواره وهمسَ في أذنه:

«ألا تشمُّ غيحة سيجاغة؟».

جحظت عينا الشّاب وبرطم بعدما شمّ ريحَ اليانسون نفّاذةً في أنفاس بِن شاؤول:

«أشم غيحة عَغَق!».

فأدار الشّاب وجهه عابسًا يتابع حديث الحاخام، على حين أطبق عاموس شفتيه، ونهضَ يُدير ظهره للرّجل الذي غلبته الرُمّانة قبل سنين. ومضى إلى الخارج حيث ينتظره البُلبُل كثير الذّرق والتّغريد عند باب الكنيس، واقفًا على غُصين شجرة الأثل العملاقة. حطّ البُلبُل على رأس صاحبه الذي أخرج له من علبة التّبغ دودة سمينة جزاء انتظاره. فحثّ عاموس خطوَهُ يبحث بين السّابلة عمّن يُشعل له سيجارة في يوم السبت.

***

الكنيسة في الحَيّ القِبلي، بعد خدمة الأحد:

فرغ إدوين من إلقاء موعظة قصيرة في الغرفة الكنسية. كانت الخطبة بالإنجليزية والعربية، حضرها الدكتور ميلريا والممرضون والممرضات والمرضى، وبعض من عاملي الوكالة البريطانية، وامرأتان غريبتان لم أميز أيا منهما في البدء وهما متخفيتان بعباءتيهما.

هذا أول يوم أحد لا تسأل فيه مبروكة إدوين سؤالا إيمانيا. عرفناها شغوفة لا تكف الأسئلة. وكنت أراهن أنها سوف تنطق اليوم

بالتحديد، على عادتها تحاصر إدوين بالأسئلة عما تحفظ من الكتاب المقدس، لكنها ما زالت صامتة منذ مجيئها من عند صخرة الساحل السوداء قبل أربعة أيام. وكلما سألتها إن كانت بخير تكتفي بهز رأسها.. نعم.

أما الزائرتان الغريبتان فقد عرفت إحداهن من صوتها تاليا. هي إحدى صديقات أم سليمان التي تسكن المطبة في «شرق». امرأة غنية على ما أعتقد، يبدو ذلك واضحا من صوت الأساور في يديها كأنها أجراس صغيرة. سألت الزائرة إدوين السؤال الذي يردده الأهالي كل يوم منذ وصولنا في ديسمبر 1911:

- أنتم تؤمنون بثلاثة آلهة، الله والمسيح ومريم، وأنتم تقولون -أستغفر الله- إن المسيح هو ابن الله، ألا تعرفون أنه من الكفر القول إن الله جل شأنه، يتخذ زوجة وأن يكون له ولد؟

وفسر لها إدوين بعناية ووضوح مفهومنا عن هذه البنوة الروحية، وأكد لها أننا نؤمن بإله واحد هو الله الذي يؤمن به المسلم والمسيحي واليهودي، وهو الذي بأمره وإرادته جئنا إلى الكويت. لكن المرأة لم توله اهتماما ووجهت لي سؤالا، وقد بدا لي سؤالها الثاني هو سبب مجيئها لخدمات العبادة يوم الأحد:

- أصحيح أنك بيضاء لأنك تغتسلين بالحليب؟

ضحك الجميع حتى أن إدوين لم يتمالك نفسه وشاركهم الضحك، إلا مبروكة وسركيس فقد بدا مظهرهما غريبا اليوم، كثيرا الشرود كأنهما لم يكونا معنا.

أخرجت المرأتين بعدما أكدت لهما أني لا أستحم بالحليب

ألبتة، وأني بالكاد أشربه لأن كثيره يسبب لي مشاكل في المعدة. وأوصيتهما ألا تعرضان بشرتهما الحنطية للشمس إن كانتا تطمحان ببشرة فاتحة نضرة. وهنا استدارت إلي تلك التي لم تتكلم طيلة الوقت تقول:

- قيل لنا إن جميع أطفالك من البنات، فهل هذا صحيح؟

- نعم، هذا صحيح، فلنا ثلاث بنات.

- ماذا يقول زوجك عن ذلك؟ ألا يطلقك لأنك لم تنجبي له ولدا؟

- كلا، لن يطلقني.

- حسنا، إذن قولي لنا، ألن يتزوج امرأة ثانية على رأسك؟

- كلا، لن يتزوج، إني أعرف أن الرجل المسلم يقدر شرعا أن يتزوج أربع نساء في وقت واحد عدا الجواري والإماء، ولكن للرجل في بلادنا زوجة واحدة فقط، وإن اكتشف أن رجلا تزوج من اثنتين فإنه يعتقل ويسجن، وزوجي لحسن الحظ لا يريد زوجة ثانية، إنه راض بي.

- اسم الله على رجلي من السجن! حتى لو تزوج بأخرى.

استدارت ذات الأساور وانصرفت من غير تحية وهي تنادي صديقتها بلقب «أم البنات»، فصار الأمر واضحا بالنسبة لي. بعض الألقاب في الكويت هو في الأساس شرح لصفات أصحابها، مثل أي مكان آخر. فالمرأة التي لا تنجب تسمى أم غايب، لأن لا حضور لولد لها تتسمى باسمه مثل أم عبدالله وأم سليمان وأم محمد و و و.. وفهمت على الفور أن المرأة - أم البنات- لم تنجب لزوجها ولدا.

وسألتني أم البنات قبل أن تلحق برفيقتها ذات الأساور عن دواء يساعد في إنجاب ذكر فقلت لها الإيمان، فانصرفت مترددة.

عدت إلى الداخل وقد أقلقني مظهر سركيس أكثر من حال مبروكة. كان متورم العينين غير مرتب الشعر يابس الشفتين. ليس من عادته أن يذهب إلى ما يسمونه الحوطة مساء السبت. فهو يستريح من الشراب استعدادا لخدمات العبادة يوم الأحد. لكنه اليوم كان في حال يرثى لها. وأستطيع أن أخمن كيف كانت ليلته. تقدم سركيس إلى إدوين، بعد خدمة الرب، أحمر العينين متعرق الجبين قلقا وعلى وجهه علامات الخوف. وسأل عما يشاع حول طلب الإخوان من الشّيخ سالم تكفير الأتراك.

- لماذا هذا الطلب؟ ما شأن الأتراك؟ وما أهمية تكفيرهم؟ وهل ينوي الأتراك المجيء إلى هنا إذا ما كفرهم الشيخ سالم؟

لم أر في حياتي ملامح الخوف والكراهية في الوقت ذاته كما رأيتها صبيحة اليوم في وجه سركيس. كان هزيلا خائر القوى ترتعش شفتاه وهو يسأل عن الأتراك. فأخذه الدكتور ميلريا إلى عيادة الرجال يعالجه، وقد لاحظ عدم اتزانه وثقل لسانه وانخفاض درجة حرارته وعدم انتظام تنفسه.

Eleanor J. T. Calverley

Sunday, September 26, 1920

11:45 PM

ما تذكّر سركيس من سهرة البارحة إلا خروجه من المَتسَى قُبيل

الفجر. *أحبو على أربع*. فعبر السِّكك من المرقاب إلى سكن الممرضين في الحيّ القِبلي. *محمولًا على ماذا؟* لا يسمع صوتًا في الدّرب المظلم الصّامت. *إلا نهيق حِمارٍ ودعاء حَفّار:*

«الله يسامحك ويصلحك ويهديك».

وتفتّقت ومضات ذاكرته مثل مشاهد مبعثرةٍ من حلمٍ قديم. وتذكّر صوت أذان الفجر عند وصوله إلى مدخل الإرسالية.. ترجّل من الحِمار مترنّحًا، وسارع مُتعثر الخُطى إلى مقعدٍ خشبي عند الباب يواجه البحر. وانتظر لحظة خروج المصلّين من مسجد «السّاير» القِبلي، ليُمطرهم على عادته بالدُّعاء: «تقبّل الله».

وبعد خدمة الرّب في الظّهيرة؛ عالجه الدكتور ميلْريا بالأحماض والمحاليل المضادة للجفاف. وفتح النّافذة المقابلة لسريره في الحجرة، وأوصى الممرضين أن يُجبروه على الإكثار من شُرب الماء قبل أن ينصرف. ولم يفُه سركيس بكلمةٍ واحدةٍ وهو يستعيد شيئًا فشيئًا ومضاتٍ من ذاكرة البارحة. بكى كثيرًا أمام زوّاد الحَوطة في ساعة سُكرٍ شديد، وقد تناهبت مشاعرُ الخوف والحزن والشّوق الفزّ روحه النّشوى. *واعترفتُ لهم أوّل مرّةٍ بالسّر الذي جاء بي إلى هُنا قبل ثلاث سنوات*. كيف فرّ من الدولةِ العَليّةِ بعد قرار الوزير طلعت باشا استهداف ذكور قَومِه خلال الحرب العُظمى. *لعنه الرّب*. وكان أبوه شاعرًا ومفكّرًا بَلغهُ ورودُ اسمِه ضمن أسماء مثقفين طالبت الحكومة العثمانية باعتقالهم. *أبي وأعمامي وأصدقاؤهم من مُوالِي حزب الطاشناق*. فهرّب الأبُ زوجته وابنتيه إلى أقارب في حلَب. *وفررتُ من موت محقق ليلةَ القبض على أبي وأعمامي في إسلامبول وترحيلهم إلى ولاية أنقرة*. قيلَ إنهم أُعدِموا هناك

بتهمة إدخال دُوَلٍ أجنبيةٍ في الشأن العُثماني. *ما أدخلوا أحدًا في شأن أحد!* ولكن مقالات الأب في صحيفة الاتحاد الثوري الأرمني المناهضة للعثمانيين في الخارج كانت حُجّة الحكومة العُثمانية ضده.

وما حملَ الشّاب معه في هروبه إلا محفظته وقصبة نفخٍ موسيقيةٍ غريبة الاسمِ ما فارقته قط. *الدُودوك.* آلة خشبية تشبه النّاي. *مصنوعة من خشب شجرة مشمش في أرمينيا، أرض المشمش.* وأدركَ الفارُّ الأرمنيُّ حَلَبَ وراء أُمّه وشقيقتيه وما عثر عليهنّ ولا سمع بأمرهنّ أحدٌ من الأقارب هناك. *لكني سمعتُ في حَلَب عن نجمُّع المنفيين الأرمن في وادي الفرات.* سمعَ عن ألوفٍ عبرت النّهر. *وسمعتُ عن ألوفٍ غرقت فيه.* وسمعَ عن أجسادٍ طفت على سطحِه. *وسمعتُ عن أجسادٍ كدّسها جريان النّهر على ضِفّتيه.* وسمعَ أن مجزرة نُفِّذت في حقول الوادي. *وسمعتُ أن من فلتَ من المجزرة مات في برد الصّحراء الحارق.* وسمعَ من الحقائق والأكاذيب ما لم تحتمله نفسه. *فعزمتُ عوضًا عن السّمع أن أرى.* وواصل البحث شرقًا مُشرّدًا بقليل مال. *وما رأيتُ في الوادي شيئًا ولا شممت إلا روائح الموت.* فأوغلَ في ترحاله شرقًا حتى بلغَ الموصِل يُمنّي النّفس بنجاة أهلِه. *بعدما بلغتني أخبار العائلات الأرمنية اللاجئة هُناك.* وما عثر بين أرمن الموصِل على أُمّه ولا شقيقتيه. *ولا قابلتُ أحدًا رآهنّ أو سمِعَ عنهنّ خبرًا.* فتشاغل عن تقصّي أخبار أهلِه بالشّراب حتى ما بقيَت معه ليرة واحدة. *ولجأتُ إلى كنيسة أتشميادزين الأرمنية في الضفّة اليُمنى لنهر دِجلة.* وجلس عند باب الكنيسة ينفُخ بالقصبة ألحان قَومِه. *الدُودوك.* عاقد الحاجبين نافخ الخدّين.

أبحث عن الرّاحة في وجوه المصلّين. وينعمُ بصدقات المتعاطفين من الموصِليين والأرمن. *فأعودُ آخر النّهار ثمِلًا أدعو للخارجين من الكنيسة بالرزق والبركة*، لعلّه يحظى بمزيد صدقاتٍ تُفقِده الوعي في آخر اليوم. *فأعرضوا عني*. غير أنهم رقّوا لحالِه في اليوم الموالي، حينما أنصتوا إلى عذب ألحانه. *لكن عذب الألحان ما شفعت لي طويلًا في الموصِل*. وفقد المحسنون تعاطفهم لمّا أبصروا صدقاتهم تذهب إلى ما يُذهِب عقل الشّاب المتسوّل. *وكنّسوني من أمام الكنيسة فارتحلت جنوبًا*. ودخلَ بغداد دخوله على أهل الموصل. *وقصدتُ الكنيسة الأرمنية العتيقة في ساحة الميدان*. واقتعدَ الأرض أمام مدخل الكنيسة يشكو غربته وفقدان أهلِه، يختمُ شكواه بلحنٍ شجيٍّ ينفخُه في قصبة الدّودك. *الدّودوك.. اسمه الدّودوك!* وتعاطف معه السّابلة من البغداديين تعاطُف الموصِليين من قبلهم. *وانحنوا عليّ أمام كنيسة القديسة مريم العذراء يتصدّقون عليّ بما نجود به أيديهم*. وما لبثوا طويلًا حتى انفضّوا من حول اللاجئ الذي ما أفاق ساعة مُنذ وصوله، ونفروا من أنغامٍ تؤذي صاحبها بقدرِ ما تُطربهم. وظلّ المتعوش يُعيد الفِعل عند الكنائس الأرمنية يستدرُّ العطف الذي سرعان ما ينقلب سخطًا ونفورًا. *ولمّا رُدّت الأبواب في وجهي عزمتُ على مواصلة السّفر جنوبًا*. وتنقّل بين الكنائس واستقرّ به المقامُ بعد عامٍ في البصرة، وقد انتزعتها يدُ المَلِكِ الإنكليزي من يد السّلطان العثماني غنيمةً من غنائم الحرب العظمى. *اللعنة على السّلطان*. وأقام الأرمنيُّ في البصرة عامًا. *لكني طُردت في الأسبوع الأوّل من أمام كنيسة الأرمن الأرثوذكس*، بعدما أفرطَ في الشُّرب على دأبه من مال المحسنين، يمضي الوقتَ يقتعدُ الأرضَ سكرانًا يُبارك الخارجين من الكنيسة بالدّعاء والعزفِ على.. الدّودوك. نعم

الدُّودوك.

ولمّا ما بقي في الجوار كنيسة أرمنية ولا أرمنيٌّ شفيع، لاذَ سركيس بمدخلِ مسجد الزُّهير العتيق المقابل لكنيسة الأرمن الأرثوذكس في البصرة، وما ضنّ عليه المسلمون بالصّدَقاتِ وأغدقوا عليه من المال والطّعام، غير أنهم لمّا رأوه على ما رآه النّاس حول كنائس الأرمن في الموصِل وبغداد وكنيسة الأرثوذكس المجاورة؛ تصدّقوا عليه ضربًا بالنّعال والعُقُل، حتى سمعت البصرة كلها بحادثة ضرب الأرمني الماجن الذي لم يراعِ حرمة المسجد، وبلغت الشائعات حدًّا قال فيه البعضُ إن البعضَ الغاضب حشرَ قصبة الدُّودوك بين أليتيه. *غير صحيح!* وما أفاق سركيس من غيبته بعد السُّكر والضّرب إلا في مشفى الإرسالية التّبشيرية الأمريكية في البصرة. *وقد ورّمَ مصلُّو مسجد الزُّهير وجهي ضربًا ولا أدري بما ضُربت*. وعالجه أطباء الإرسالية وتماثل للشفاء بعد أيام. *وزالت آثار الصّفع واللّسب*. وأخبرهم بحكايته منذ خروجه من إسلامبول وحتى حادثة ضربه عند مسجد الزُّهير. *فكانت صدقتهم لي وظيفة متواضعة تكفيني مهانة التسول*. غير أن أعضاء الإرسالية هُناك ما احتملوا عاملًا يُسرف بإدمان الكحول يومًا بعد يوم. *هؤلاء الأميركان يبالغون*. فنقلوه إلى إرسالية الكويت في الشُّهور الأولى لتولي الشّيخ سالم بِن صُباح مقاليد الحُكم. *سامحهم الله*. إنقاذًا للأرمني من موت محقّقٍ بسبب إفراطه في الشُّرب. *هذه مبالغة أخرى!* مستغلّين تضييق أمير الكويت على صانعي الخمرة وبائعيها وشاربيها. فوصلَ سركيس الكويت ثملًا دونما حقيبة. *لا أملك إلا ثيابًا أرتديها*. ولا يحملُ إلا بطحة العَرَقِ في جيبه. *وقصبة الدُّودوك*. ومحفظة ليس فيها إلا

قليل مالٍ وصورة باهتة لأبيه الشّاعر. صورةٌ مقتطعة من صحيفة *إسباريز*.

***

(25)

خيبةُ الضّاري

«الوَثبُ فوقَ عتبةِ دارِ الدّنَس»

يا بديع الجَمال.. والله عَجَبني جمالك

بِث أراعي النّجوم.. ظليت أنطر خيالك

ودبّت الدّماءُ في وجه سعدون، بعدما اشتفّ ما في كأسه الأولى، طربًا مع غِناء عبدالله، النهّام الأعمى شجي الصّوت الذي أبدع بغنائه: يا بديع الجمال. يهزُّ صاحبُ المَتسَى رأسه والكُحل يُخفي أثر الكيّ القديم أعلى أذنه اليُسرى. تجلسُ إلى جوارِه بهيجة وقد فكّت ضمادة مشفى الإرسالية عن رأسها، وأطلقت شعرها الكستنائي المتموّج ينسدلُ على كتفَيها، وقد تقعّرت في خدّها الأيمن غمّازةٌ زادتها حُسنًا وملاحة. تهزُّ رقبتها الموشومة بخدشٍ جديدٍ وهي وتشدو مع النهّام بأغنيته الرّجالية، وإلى جوارها بن شاوُول يلتهمها بعينيه ولا يغفل عنها للحظة.

أمسكَ سعدون بالمَرواس وراح يُشارك خَليفُوْه أبو القُطاوَة وعاموس، بين زوّاد المَتسَى المتحلّقين على الحصير. يحملُ الثّلاثةُ مَراويسهم، ينقرون عليها بإيقاعٍ منتظمٍ مع شَدو النهّام الذي يضُمُّ العودَ بين يديه مثلَ رضيع. وتشاغل سركيس بمداعبة قِطّتَي خَليفُوْه المستلقيتين على ظهريهما، يتحايل على ضيق مزاجه مُذ ورده مطلب تكفير الأتراك الذي وجّهه الإخوان إلى أمير الكويت؟ *لماذا؟ هل ينقلب الشّيخ سالم على الإنكليز ويفتح بلاده للعثمانيين*

المجرمين؟ ذِكرهم وحده يُثير في نفسه الكراهية والهلع.

وعلى إيقاع المراويس وتصفيق الحاضرين توسّطَ سليمان حلقة الغناء. يُنقّل خطواته بخِفّةٍ ويزفُن وهو مُغمض العينين، غائبًا مع الأغنية كأنه يقضي تَبّةً في مَغاصات الخليج. يميلُ بأكتافِه طَرِبًا وسط صخب الكفّافة، فيهبط بجسده حتى يكاد يلامس الأرض بركبتيه، فيضعُ كفّه أعلى رأسه يُثبت غُترته ويقفز قفزة يهزُّ بعدها كتفيه على إيقاع التّصفيق. ويبدو مُنتشيًا رغمَ أن شفتيه، مثل شفتيّ خَليفُوْه، ما مسّتا كأس المنكر. ظلاله مُلقاةٌ على الجدران الطّينية، ترتعش مع ارتعاش شُعلات النّار في سُرُج الزّيت المعلّقة بالجدار. وملامح وجهه لا تُشبه ملامح رجلٍ يزفنُ في جلسةِ طرب؛ تقطيبةُ الحاجبين وإزمامُ الشّفتين وإطباق الجفنين بشِدّة كيلا يرى تفاصيل مجلسٍ يمقته في أحاديث شَيخِ البحّارةِ سَنَد. له ثلاثةُ أيامٍ يشمُّ في نفسه ريحًا كريهة. اغتسل وغسل ثيابه ولم تزل في أنفِه الرّيح مُنفرة. اعتكف الأيام الثّلاثة في مخدع سعدون. يسمعُ فيه صخبَ السّهرات، ويُفكّر في مصيرٍ سيّئٍ كتبه الله لشابٍّ صالح. ولمّا ثاب إلى وعيه ترك عزلته اليوم، تقوده مزامير شيطانٍ حذّر منها بن هولين. دفعَ الباب المفضي إلى مجلس السّهر في المَتسَى، لعلّه ينسى. لا جدوى يرتجيها من وراء صمتِه. فالدّيرةُ بسبب عَزُوز الهذّار، كُلُّ الدّيرة، علمت بالأمر. فقد طاف أبو غايب يومين في السّوق والسّكك يُبشّر الخلقَ بحملِ زوجته، ويكافئ المهنئين بحكايةٍ مثيرة جلبها من البحر، حكاية سليمان وبوُدَرياه. وتداول الرجال حادثة سليمان على ظهر السّنبوك «الحامِدي»، وشعاره وهو ينادي فضّة. وما كان الهذّار وحده مَن أشاع الكلام، فقد تكفّلت زوجته، أمّ غايب،

بنشر أمر أخوَيّ الرّضاعة بين النّساء في لَواوين البيوت ونمائم الغسيل على صخور السّيف. فانتشر خبره انتشارَ بخور الحَرمَل في حفلة زار.

بالنّبي بالنّبي.. رجّع ليالي وصالك

سِيدي خلّيتني.. شِبه الخِلال من فِعالك

بنات حمدية الوافدات من حيّ الزّميلة القريب مِن الحَوطة، بين شفقةٍ واشتهاء، يُجلن النّظر إلى سليمان والِهات. شكرية وفريدة وشفيقة وأنيسة وبهيجة، إلا سادستهُنّ الصُّغرى، فردوس القرعاء التي تخلّفت عن الحضور منذ شهور، مُذ أُشيع أنها حلقت شعرها الأسود الطّويل. قيل إنها وضعت ولدًا مجهول الأب قبل أيام، تورطت فيه حمدية وتخلّصت منه، فما كان بنتًا لتُنفق عليها القوّادة السّمينة اليوم، فترد إليها الطفلة المال غدًا.

بحلقت بنات حمدية إلى الشّاب الزّافِن الذي يلفُّ غُترته ويعقدها بشكلٍ غير مألوف، لا يدرين أنه يُخفي أُذنيه الغريبتين خجلًا، ويرَينَ في غِطاء رأسه وقارًا لا يتخلّى عنه إلا في البحر، أو في مخدع إحداهن في ليلة جائعة. تفحّصن جسدَ الغَيص الحِنطي الفَتي أثناء زفانِه الرّتيب، وحركة ساقَيه الممشوقَتين. وهو يُنقّل قدمَيه بخِفّةٍ كأنما يمشي على الهواء. يزفنُ مُتمايلًا وقورًا يُحاور إيقاع المُرواس. يُطبق جفنيه عن فتيات الحَوطَةِ ولا يُبصر في إغماضتِه إلا وجه فضّة التي ما دَلّه عنها لحظة. يخشى أن يفتح عينيه ويُبصر حصيرة صلاةِ سعدون في زاوية الحجرة تلومه، فيدُبُّ نملُ الإجلالِ القديم في وجهه.

تركَ سعدون المَرواسَ على الأرض أمامه، ونثرَ تبغًا في ورقةِ ولفَّ سيجارة. ونقَّلَ عبدالله النهّام ريشتَهُ على أوتار عُودِه بخِفَّة، يُغيّر النّغمة يُنهي غناءه، ويُقحِم كلمةً بدلَ كلمةٍ في الأغنية الشّهيرة لتُناسب ما تفيضُ به مشاعر الفتى الكسير، فيُحيل «أمّ عَمرٍ» في الأغنية الدّارجة إلى «أمّ حدب»، يُشاكس سليمان:

يا «أمّ حَدَبٍ» جزاكِ اللهُ مكرمةً.. رُدّي عليّ فؤادي أينما كان

لا تأخذي فؤادي تلعبين به.. فكيفَ يلعبُ بالإنسان إنسان

سليمان في إغماضتِه لم يزل، كما لو أنه في غيابة خُنّ السّنبوكِ معتزلٌ غائبٌ في دواخل نفسه. وما مكثَ قومُ المَنسَى على حالهم طويلًا حتى صاح خَليفُوْه: يُمّه! فلكزَ سعدونٌ النّهام الأعمى بمِرفَقِه. فسكتَ النقرُ على المراويس فجأةً، وتناثرت أنغامُ العودِ نشازًا خارج لحن الأغنية قبل أن تصمت. فتحَ سليمان عينيه متأخرًا ينظرُ إلى الوجوه مِن حوله؛ أبصرَ الجميعَ وقد أخذه الارتباك في اللحظة ذاتها. وانقلب حالُ المَنسَى في لمح البصر، بعدما أطفأ سعدون لُفافته وأبعد نثارها المتوقّد عن دِشداشَتِه، وتشاغل عاموس مع بُلبُلِه، وفرّ أشهب وإلينور من أمام سركيس والتصقا بـ خَليفُوْه، ووارى زُوّاد المَنسَى الكؤوس وراء مَسانِد السّدو، وسارعت بنات حمدية بإلقاء العباءات على أجسادهن، وأطبقت بهيجة عليها باب مخدع سعدون.

ارتبك سليمان وما أراد الالتفات إلى وجهةِ النّاظرين صوبَ الباب وراء ظهره. فالتفت مضّيقًا عينيه إلى عيني العَم سَنَد، واقفًا على عتبة المجلس، يُطيل النّظر إلى النّهام الأعمى الذي تردّت به الحالُ ورمَته في الحَوطَةِ يُغني بين فروخ إبليس. وتمنّى إبنَ سهيل أن

تنشقُّ الأرضُ وتبتلعه قبل أن يُبصره شَيخُ البحّارة. لكن الشّيخ اِلتفتَ إليه يحْقبه بنظرة طويلة صامتة. جاء حاسر الرأس يتنكّب غُترته المهترئة. مخطوف اللّون يابس الشّفتين محني الظّهر كأنما شاخَ ألفَ عام. يبحلقُ إلى سليمان كأن لا أحد في الحَوطةِ إلاهُما. لم يقوَ سليمان على النّظر في عينيَ الشّيخ. ولم يجرؤ على الإعراض ببصره بعيدًا. تخشّبَ قُدّامَ شيخ البحّارةِ وتعلّق بصره بقطرةِ عَرَقٍ تشبّثَت بطرفِ الأنفِ الأقنى. وبدا بِن هولين بقامته المديدة مُتصدّعًا مثلَ صاري سفينةٍ أهرأته الشّمسُ ورطوبة البحر. لا يقفُ في وجهِ ريحٍ ولا يقوى على حمل شِراع. ترتعشُ شفتاه المزمومتان وعروقُ جبينه نافرة زرقاء. الشّعرُ الأبيض نابتٌ في ذقنِه على غير عادة، ورطوبة الطّقسِ ألصقَت دِشداشتَهُ بجسدِه النّحيل.

سقطت قطرةُ العَرَقِ من أنف الشّيخ على حصير الأرض. وهسّ من بينِ أسنانِه جاحِظ العينين مرتعش الشّفتين، يلفظُ سؤاله مثل بصقة في وجه سليمان:

«ليش يا كلب؟!».

ثمّ التفتَ يخزُر النهّام الأعمى بنظرةٍ تُعادل بصقة أخرى. فطأطأ رفيق السّنبوك، وما رفعَ رأسه إلا بخروج شيخ البحّارة الذي أدارَ ظهره إلى عُشّ فُروخ إبليس وانصرف. واندفع سليمان وراء العَم سَنَد، يتبعه في حَوش الحَوطة التّرابي، الحَوش الصّامت إلا من صرير جُندب الليل الحزين. يستمهلُ الشّيخَ والشّيخُ ماضٍ في المسير. رجاهُ سليمان أن ينتظر ليُحدّثه، وما شهدَ حديثهُمَا إلا نخلة يابسة تميلُ على فسائلها التّسع عن يمينه في ركن الحَوش. صاحَ عليه بِن هولين دونما إبطاءٍ أو التفاتٍ إلى وراء:

«أقسمتَ لي ألا تطأ عتبة الحوطة».

تلكأ سليمان في سيرِه موليًا ظهره مجلس السّهر. توقّف وهو يُجيب:

«ما وطئتها..».

أبطأ شيخُ البحّارة مشيته. رفع حاجبيه يُرهف السّمع. وسليمان وراء ظهره يقول:

«..تجاوزتها وَثبًا».

توقف شَيخُ البحّارةِ في آخر الحوش الخالي إلا من نبتات شيطانية يابسة. فاستدار ينظرُ إلى سليمان:

«أتكذبُ عليّ؟ أم تكذبُ على الله؟!».

كأنما حضّرَ سليمان إجابة السّؤال لمثل هذه اللحظةِ فأجاب من فوره:

«من له حيلة! أقسمتم في مجلس الشّيخ سالم على كتمان سِرِّ العباءة بين رجال السّنبوك وحدهم..».

ابتعدَ شيخُ البحّارةِ بصدره إلى الوراء، ينظرُ إلى سليمان وسعَ عينيه مُستفهمًا. أردف الفتى يوضّح:

«..لم أكُن من رجالِ السّنبوك في ذلك الوقت.. أنتَ من علّمني التّحايل على القسَم وبُحتَ لي بسر العباءة!».

طافت في مُخيّلة العَم سَنَد كُلُّ العلوم التي أورَثَها سليمان. *علّمتك يا ضعيف الإيمان السّباحة والغوص، وركوب الخيل ودروب*

الصّحراء، وحمل السّيف وحشو البنادق، صيد البرّ والبحر، أجناس الطّيور والأسماكِ والزّرع، أسماء الرّيح والمواسم والنّجوم ودروبها. صنعتُ منكَ رجُلًا. كيف تصيرُ إلى ما صرتَ إليه يا ولد سهيل؟! كيف نجالس أبناء السوء كأن ليس في الدّيرة مجالس لأهل الدين والعِلم والصلاح؟!

بدا سليمان جاسيًا على غير طبعه ينظرُ إلى بِن هولين الغاطس في الصّمت والعَرَق:

«ما بالُ شيخُ البحّارةِ لا يقول شيئًا؟!».

«بل قال!».

أجابه العم سَنَد قاطعًا. فألقى عليه نظرة شزراء تشقله من رأسِه إلى قدميه الحافيتين، إلى رأسِه ثانية. تقطّب جبينه واستدقّت شفتاه، ثُمّ أدارَ ظهره للفتى يمضي خارجًا. فتبعه سليمان يصيحُ:

«وماذا قال؟».

دوّت إجابة بِن هولين في الفضاء تُخرس صريرَ الجُندبِ الولهان:

«قالَ هذا فراقُ بيني وبينك!».

تباعد خيالُ العَم سَنَد في ظلام السّكّةِ بين سور الحَوْطة وسور المقبرة القديمة. وانطفأ خياله مثل فتيل سِراجٍ تبدّد دُخانه في الهواء. وتفكّر سليمان في القولِ القُرآني الأخير مُغمض العينين، غير أن نملةً واحدة لم تدُبّ في وجهه. وارتفع نهيقُ حمارٍ في السّكّةِ، وما انقبض صدرُ الفتى لشيطانٍ أبصره الحِمار فنهق.

وعاود الجُندب وصلة غنائه الحزين. وأجابته جوقة الجنادب

وردّدت صريرًا ملأ فضاء الحوطة مثل نبض اللّيل. فأقفل سليمان إلى الدّاخل مطرقًا، فانسربت من بُلبُل شاؤول تغريدةٌ رائقة، وارتفعَ صوتٌ بهيجة يصدحُ في ليل السّمَر. تُغني ما يطيب لابن شاؤول سماعه من أغنيات أسلافه في اللّيالي الغابرة:

«طاب شُرب الكاس».

فيردُّ زوّاد الحوطَة النّشاوى:

«يا خمّارة».

***

(26)

إكراهُ نُبوءَةٍ على ثُبوت

«وَهُوَ الّذي يحرقُ مكانًا ينامُ فيه»

«اِلحقيني بمُرضِع يا صاجّة رحمَ الله والديك!».

صاحت شايعة على العجوز التي جاءت قُبيل الغروب، دونما قلادة، ثُتِمُّ خواتيم مكيدتها. والرّضيع يصيح في فراشه، ولا «ماي غريب» ينفع إذا ما شحّ الحليب. ولوَلَت شايعة على حافّةِ فراشِ فضّة التي ألهبَت جسدها الحُمّى، وجفّفَت حليبَ صدرها. تهذي الفتاةُ وتئن:

«ومن يُثبت إنها خمس مشبعات؟ هل قال الرّضيع لمرضعته إنه شبع؟!».

لملمت أم حدَب عباءتها وهي تقول لأم سليمان إن الرّضيع يجب أن يبيت في بيت أم البنات، تُرضعه مع رضيعتها إلى حين شفاء فضّة. ونهضت تُسارع مادّةً ذراعيها نحو الرّضيع الباكي:

«هاتي الرّضيع».

قلّبَت فضّة رأسها على وسادتها وهي تهذي بكلماتٍ مُنغّمة:

«يا صاجّة يا صاجة ما صدقتِ».

نهضت شايعة تدفعُ العجوزَ الحدباء بكتِفَيها صوبَ الباب:

«هاتي المُرضِع يا صاجّة!».

احمرّ وجه أم حدَب المدموغ بالبرص، تستعجلُ وفاء دورها بعدما

أتمّت طقس التّسليم قبلما تموت. توقّفت عند عتبة الحُجرة، وكزّت على أسنانها تُكرّر بصوتٍ يجاوز بكاء سَيف وهذيان فضّة:

«أقولُ لكِ هاتي الرّضيع! سوف تُليّل الدنيا وأبو البنات مسافر وأم البنات لا تستطيع ترك بناتها وحيدات في البيت!».

فتحت شِقّ عباءتها وابتلعت الرّضيع الجوعان، وأمسكت سعفتها تُسارع بالخروج إلى بيت أُم البنات ناحية حيّ البَلوش، تاركة شايعة تسقي كنّتها نقيع الأعشاب السّاخن بآنية آية الكرسي، وتجفّف عرق وجهها وتُكمّدها بخِرَق القماش الملفوف على الثلج. وفضّة تهذي بين يديّ حماتها:

«بَرْوِي كان زواجنا يا سليمان.. بَرْوِي».

***

وتطايرَ الشّرَرْ وارتفعَ الدُّخان كثيفًا فوق دار أُم البنات ليلًا. وضجّ الفضاء قُرب حَيّ البَلوش بصُراخ صاحبة الدّار يحشدُ الجيران حول الدّار وداخلها. ووجدها النّاس جاثية في الحَوشِ مكشوفة الرأس. ينثال شعرها المغبر على وجهها الملطّخ بالشخام. تُمزّق ثيابها وتحثو الثّراب على وجهها، وبناتها حولها ورضيعتها التي ما أتمّت يومها الثّاني عشر تصيخ عارية بين رُكبتيها على الأرض.

أشارت أُم البنات صوبَ الحُجرة المشتعلة وأطلقت صيحة:

«سيف وَلدَ فضّة يا الأجواد! سيف ورضيع فردوس في الحجرة».

وهبّ الأجواد من الرّجال على صياح نِسوة الحَيّ واستغاثات صاحبة الدّار، يُراوحون الرّكض بين البئر في حَوش المَرضع وبين

حُجرة النّار. يحملون الدّلاء يصبّون الماء على ألسِنة اللّهَب المستعرة عند باب الحُجرة. يسعلون ويلوذون باللّثامِ عن الدّخان الأسود الكثيف. والحُجرة تتّقِد مثل تنُّور الخبّاز تلتهمُ كلّ ما فيها، حتى تهاوت دعائم أخشاب السّقف مُتّقِدة على الأرض. وخرّ الرّجالُ ضامِري العزيمةِ أمام لعنة النّار التي ما زادها الماء إلا أجيجًا. نارٌ مُستعرةٌ لا مُطفئ لها، نارٌ معجزةٌ تأكل نفسها بنفسها وتزدادُ توهُّجًا. وتأتي على كلّ ما في الحُجرة الصّغيرة.

***

نَقِهَت فضّة من مرضها. *إلا قليلًا*. استعادت شيئًا من عافيتها قُبيل الفجر. برئت من سقَمِها وما برئت من خوفٍ ولا وَلَهٍ دهماها واعتصراها مثل ذراعين عظيمتين؛ خوف على سَيف، ووله لـ سليمان. فتحت عينيها مع صياح ديوك الفجر تُناظر السّقف وراء غِلالة الفراش. وتداعت كلُّ ذكرياتها مع سليمان. طفلان كانا ولا يزالا. وكان الفتى مكافأة الدّنيا للفتاة غير أن الدّنيا أعادت النّظر في عطِيّتِها. *استكثرَته عليّ*. لطالما شاكستها منذ الصغر. *طول عمري*. حاصرتها نظرات أبي جرّاح في حوش البهائم. *فقلت يا رب.. سليمان*. سمعَت مِن بنات أم جرّاح أن بِن حامد يسأل عنها. *فقلت يا رب.. سليمان*. فظفرَت بـ سليمان. *وفرّقنا حليب أُم سرور*.

دسّت كفّها تحت وسادتها تتحسّس نصل السّكين. تُفكّر في الحديد الذي لا يحدّه الشّر على قول أم حدَب. وكرّت ذكرياتها الموروثةِ سَمعًا من مُرضعتها أم سرور. *الله يرحمها ويلعن حليبها*. تذكّرت ما قيل لها عن أمّها الشابة، التي شخّ صدرها ومرضت انتظارًا لعودة زوجٍ لفظته نجدُ فابتلعته الزُّبير، ما عاد يومًا يَفي بوعدٍ قطعه لزوجةٍ

ماتت: أعود لآخذكما بعدما أرزق بعملٍ هُناك. *أيطلع الحبُّ على بذره يا ابنة قماشة وعبدالرحمن؟ هل أموث مثلَ أمّي وأنا أنتظرُ سليمان الذي غاب بلا وعد؟ وهل يعيشُ سيف في بيت المرضع حياة يُتمٍ وعذابٍ أمّه؟ أو ربما يكبر ويتزوج ابنة أم البنات أخته من الرّضاع.. بلى.. هو دردوزٌ لا آخر له.* خشيَت فضّة على رضيعها من مصير يشبه مصيرها قبل ستة عشر حوْلًا؛ أبٌ غائبٌ وأمٌّ مريضةٌ تموتُ خالية من الحليب، وغد مظلم. *أعوذ بالله.* انقلبت على جنبها الأيمن. *كيف انقلبت بي الحال؟* قضاء وقدر. *ليتني رضعت من معزة أو بقرة أو حتى حمارة*(5)، فلا تُخاوين السّخلة ولا العجل ولا الجحش. ولا *أخاوي حبيب القلب*. مسكينة يا فضّة. *ليتني رضعت من ماء البئر أو ماء المطر ولا رضعتُ من ثديٍ أرضع سليمان.* لكنك فعلتِ. *وما أدراني أني فعلت؟*

انقلبت على جنبها الأيسر. *كيف انقلبت بي الحال؟* تُبصر في خيالها حبيبًا ضنّت عليها الدُّنيا ببقائه زوجًا. *ليس في الدنيا خير.* تنهض وتجلسُ على ركبتيها. تتخيّله مستلقيًا على ظهره إلى جوارها. *سليمان؟* يتوسّد ساعِده وينظر إلى السّقف. *يا بعد قلبي.* يُسند كاحله الأيمن إلى ركبته اليُسرى. *ولهانة عليك يا بعد روحي انت.* تدنو فضّة إلى خياله المضطجع. *أنت هنا؟* تباعد بين ساقيها وتمتطي الهواء فترتمي في حضن الفراش. *لو لم يكن من أجل خاطري.* وتحدث نفسها باكية هاجسة. *من أجل الولد.* نهضَت جالسة في فراشها تشمُّ رائحة الرّضيع. *سيف!* دسّت كفّها في جيب ثوبها تتحسّس بللَ صدرها وردّدَت: «سيف!». اعتصرت ثديها الصّغير فانبجس الحليبُ غزيرًا على كفّها. *أريد ولدي.* وأرادت الرّضيع في الحال قبل أن يُتِمّ

خمس رضعاتٍ مُشبعات في بيت أُم البنات. *أريده الآن*. تريدُ الشّعرة الوحيدة التي تربطها بـ سليمان بعد خيانة الحليبِ المُرّ. *لا بارك الله في حليب أم سرور*. الحليب الذي رضعته شرًّا دشّنت فيه شرور حياةٍ مُقبلة. دسّت كفّها تمسك بالسّكين الغافية في دفء الوسادة وقذفتها عند الباب، ثُمّ فكّت مشبكَ دبُوسٍ شكّتهُ في حاشية ثوبِها وألقت به على الأرض. *كذب من قال إن الحديدَ يحدُّ الشّر يا صاجّة.. ما صدقتي*.

صاحت مُتحاملةً على ضعفها:

«خالتي شايعة».

هرعت أُم سليمان تُسابق خُطاها. دفعت باب الحُجرة الموارب وتخطّت السّكين عند عتبة الدّار من دون أن تلمحها:

«يا عيون خالتك شايعة.. إسم الله عليك».

بسملت شايعة وحوقلت وهي تتحسّس جبين فضّة بظهر كفّها. ابتسمت بشفتين مرتعشتين وهي تحمدُ الله على سلامة كنّتِها التي اعتدلت جالسة على فراشِها:

«سيف.. سيف يا خالتي».

مسحت شايعة على رأسِ فضّة مثل سائس يُداعب ذؤابة مُهرة:

«أوّل الصبح بحيل الله.. أول الصبح يكون عندك».

«أريده الآن!».

صاحت فضّة مختنقة بعبرتها. والتفتت شايعة إلى الباب المفتوح

على الليوان المظلم:

«يا بنيّتي الدنيا ظلمة، وما شقّ النور بعدا».

***

وكانت الحجرة في دارِ أم البنات عند مطلع الفجر رمادًا فوق رماد. واستسلمَ الرِّجالُ مؤمنين بأنهم أمام أمرٍ غيبي؛ نيران تشربُ الماءَ وتزداد سُعارًا. وتداعى المسعفون على الأرض يجلس بعضهم، وبعضٌ قلّب الدّلاء الفارغة واقتعدها. يترحّمون على سيف بِن سليمان بِن سهيل ورضيع فردوس مجهول الأب. ويدعون الله أن تكون النّار بردًا وسلامًا على الرّضيعين؛ ابن الحلال وابن الحرام.

لطّخ الشخام الجدران الطّينية والأرضَ متجاوزًا عتبة الحجرة بضعة أذرع. وأقبلت شايعة وقتَ الشُّروق تستعيذُ حفيدها بعد الرّضعة. فألفت بابَ دارِ المُرضع مُشرَعًا وأمارات الخراب في الحوشِ الثّرابي. انقبض صدرها وهي تتنسّمُ ريحَ الثّربةِ البليلةِ المشبّعة بالرّماد. أبصرت قبل عبورها الباب حلقة من النّساء المُتربّعات على الأرض، من بينهنّ أُم حدَب وأُم غايب وشريفة وصاحبة الدّار أُم البنات. سقطت عباءة أُم سليمان على كتفيها ولم تنتبه لانكشافِ رأسِها. اتكأت بكتفها على إطار الباب، ثُمّ نقّلَت بصرها بين الحوشِ والحجرة المنكوبة. استترت أُم البنات بعباءتها فورَ ما لمحت شايعة تعبر بابها. فاستقامت أُم حدَب تمضي ببطءٍ صوبَ أُم سليمان الذّاهلة في نوبةٍ تُشبه الخَرَس. تشيلُ صُرّتين صغيرتين لفّتهما على رمادٍ وسحيق عظام متفحّمة. عانقت العجوزُ جدّةَ سَيف التي أسبلَت ذراعيها وأسندت ذقنها إلى كتف أُم حدَب، شاخصة البصر إلى حجرة

الرّماد والشخام. همست الحدباء في أذنها وهي تُحيطها بذراعيها:

«لك يا ربي ما أخذتَ ولك يا ربي ما أعطيت».

أجابتها شايعة الخبارى هادئة بين إنكارٍ وعدم فهم:

«ونعم بالله.. وين ولدنا؟».

فضّت شايعة عناقَ أم حدَب تنظُر إلى وجه مُحدّثتها. طأطأت العجوزُ وهي تُناول أمّ سليمان إحدى الصُّرتين:

«طير من طيور الجنّة.. الله يخلف عليكم».

التقطت شايعة صُرّة الرّماد من يد أم حدَب، غائبة في هواجسها، تنظر إلى وجه العجوز ببلاهة. فردّت ساهمة:

«اللهم آمين.. وين ولدنا؟».

***

(27)

مَزامِير سعدون

«لا يُطاق الصّحْوُ في ذا البلدِ»

فهد العسكر

ابتاعَ خَليفُوْه أبو القطاوَة المجلّد الثّامن والأخير لسيرة عنترة، كما أوصاهُ سعدون. وخرج من مكتبة بِن زوَيِّح موليًا ظهره لصاحبها الشاب الذي راح يجمعُ أعداد مجلة «الهلال» الجديدة من دفّتي الباب المشرعتين، قبل أن يُطبقهما وقتَ رفعَ المُلّا عبدالمحسن أذان المغرب في مئذنة مسجد السّوق.

وأسرعَ أبو القطاوَة إلى معمَل الحاج مَغرَفي يبتاعُ الثّلج، مارًا بسوق التجّار بين مدابس التّمرِ ومخازن البُنّ والشّاي والتّوابل والسُّكّر. يتوسّط في ممشاهُ أشهب وإلينور، ولا يكفُّ التفاتًا إلى الوراء، وإبهامه يلتحفُ أصابعه الأربعة وراء ظهره. ومن معمل الثّلج مُقابل سِكّة الحمّارة ابتاعَ لوحَ ثلجٍ لفّهُ بخرقةٍ مِن الخَيش. فسلكَ الأملطُ سِكّة الحمّارة وقتَ إقامة الصّلاة. ووجد باعة الماءِ وأصحاب الحمير والبِغال، بِدَشاديشِهِم الرثّة، يربطون دوابّهم بين الأبنية الطّينية المتراصّة، ويتسارعون إلى المسجد. فانتقى خَليفُوْه حِمارًا عند رأس السّكّة المتربة، حمارًا أحسائيًا أبيض متين البنية طويل القامة عريض الظهر، كاد أن يكون حِصانًا إلا قليلًا. لا يحملُ على ظهره قِربَ ماءٍ ولا متاع. فحمّله صاحبُ القِطَطِ اللّوحَ الثّلجي وأشهَب وإلينور. ثُمّ امتطاه ينتظرُ خروج الحمّار من المسجد. وما لبث طويلًا حتى تقاطر الحمّارة ثانية إلى سكّتهم يتحزّون رزق آخر

اليوم بعد المغيب. فأشار صاحبُ القِطَط لصاحب الحِمار:

«وراء المقبرة القديمة».

فطِنَ الحمّارُ إلى أن وجهة الشّاب الأملط هي حوطة ولد الحاج أبي السّواعد في المرقاب، مُحمّلًا حِماره بالثّلج. فهزّ صاحبُ الدّابة رأسه رافضًا مُعرضًا عن الوجه الأملَس. وأخفض صوته مُتحرّجًا من الحمّارة والمارّة في السّكّة:

«ألا يكتفي شياطين الحوطة ببناتِ الليل يا ولد؟ اِنزِل!».

تلقّى خَليفُوْه العِبارة مثلَ لكمةٍ أعلى المعدة. ابتلعَ الإهانة مُرّةً، وأطلق زفرةً طويلة وهو على ظهر الحِمار لا يزال. ثُمّ حلّ عُقدة غُترته وأحكمَ لِثامَه يُخفي نصفَ وجهِه. فأمسك الحمّارُ بِرسنِ حِمارِه يقوده إلى ناحية المقبرة القديمة بعد هبوط الظلام.

«كِع.. كِع.. كِع..».

***

ولما انصرف روّاد المَنسَى في اللّيل تباعًا، وما بقي منهم ومن الثّلج إلا القليل؛ أفلتَ بُلبُل شاوُول طورًا من التّغريد قطع حديث سعدون. فرفع عاموس وسركيس وخَليفُوْه وأشهب وإلينور رؤوسهم يرجون المزيد، غير أن البُلبُل المستقر على الكُتب في تجويف الجدار ضنّ عليهم بعذبِ تلاحينه وركن إلى السّكوت. فاستطرد سعدون يُتمُّ قوله وهو ينثر التّبغَ في ورقة دُخان. ورفع صوته يختم القول بعدما انفلتَ لسانه يلعن الصاجّات:

«..الصاجّة هي المُلّا، والمُلّا هو الصاجّة».

سمع أشهَب وإلينور كلمة الصاجّة فتسارعا إلى صاحبهما يتواريان بدِشداشَتِه. وتضاحك الباقون من رُوّاد المَتسَى تفوحُ من أنفاسهم ريح المنكر، إلا خَليفَوْه الذي انشغل بالقطّتين بين ساقيه تحت الدّشداشة، ما قارب الكأس ولا اشتهاها. اعتكرَ مزاجه لهجوم سعدون على الصاجّة، وهو في قرارة نفسه يدري أن أُم حدَب لم تعد صاجّة بعد نزع قلادتها قبل أسبوع وفق حسابه، قبل أُثمون وفقَ حسابها. رفعَ صوته:

«صرت مثل المُلّا عبدالمحسن.. خصيم صاجات يا سعدون».

«والله ما خاصمهن خصيمهن إلا بعدما سدُّوا باب رزقه.. كان ينتفع بتدريس الصّبيةِ فجاءت المدرسة المباركية وضيّقت عليه في كسبه. فصار ينتفع بما يتكرم به الناس من بيزات لقاء ما يعطيهم من الماء والزيت المبارك بالقرآن.. حتى جاءت الساحرة بنت الساحرة أم حدَب ببدعة الطاسة المنقوشة بآية الكرسي وباعتها على الخَلق.. واغرِف بطاسةِ أم حدَب من ماء البحر فيتبارك ويصيرُ بأمر الله عذبًا! فبدّل النّاس بالمُلّا الطّاسةَ، تُبارك بالقرآن المنقوش في باطنها شربهم واغتسالهم دونما حاجة إليه».

تأفّف خَليفَوْه وشوّح بيده:

«يا رجل! الصاجّة لا تؤذي أحدًا».

أظهرَ سعدون طرف لسانه تحت شاربه الدّقيق المشذّب. ومرّره على طرف اللّفافةِ قبل أن يشعلها بين شفتيه. فقال وهو يُقلّب صفحات المجلّد الأخير لـ سيرة عنترة يتفحّصها على ضوء السّراج الشّحيح:

«ألا تكفي أذيّتهنّ لِقططك؟ أنتَ تمتدح الصّاجات لأنهن ودودات معك».

وليّات نعمتك أنت ومن على شاكلتك من البرنثات.. لعنها الله من عيشة! منبوذون من رَبابنة السُّفن والتجّار والمَلالوة والرِّجال والنّساء والأطفال. مثل جامع الغائط لا يصافحكم رجل. والله لو كنتُ في حالك لنحرت نفسي!

آثر خَليفُوْه الصّمت أمام سعدون الذي أجالَ إليه نظرة حانقة، فهو لا يرغب في حديثٍ مثل العادة يُفضي إلى إهانة تنتهي بالطّرد. ولم يُبعد سعدونٌ عينيه عن صاحب القِطَط يهجش في سِرِّه.

سخّرَ الله لكم الصاجّات، تتّخذُ واحدكم خادمًا في فرقة غنائها، يُسخّن الدُّفوف، ويحملُ الطّبل ويتمايل بالعباءة مثل النّساء. إنها الفضيحة وسواد الوجه والله! الحمد لله والشكر على حالي، وآه لو كنت في حالك.. ماذا تعمل يا سعدون؟ والله أعمل صبيًّا عند الصاجّة. واللعنة!

واصلَ سعدون التّبَرّم في سريرته. *أيّ رفقة هذه يا سعدون؟! سليمان يتبع المُلّا، خَليفُوْه يتبع الصاجّة، الصاجّة تتبع من تُسميه كاتب الأسفار، وأنت يا سعدون تتبع الهوى.* ثُمّ التفتَ ينقّل بصره بين عاموس وسركيس صامتًا. *وأنتما؟ لعنة الله عليكما، تتبعان من؟*

أفلتَ البُلبُل تغريدةً قصيرةً فتنبّه سعدون من شروده. رفعَ صوته يناكفُ خَليفُوْه بلسانٍ ثقيل:

«ألبِس المُلّا عباءةً وأعطِه سَعفة يصيْر صاجّة، أو اِمنَح الصاجّة لِحيةً ودِشداشَةً قصيرة تصيرُ مُلّا».

صفعَ خَليفُوْهْ الهواء أمام وجهه ممتعضًا:

«لا تدري ماذا تريد ولا شيء يُعجبك، لا شيوخ ولا تجّار ولا مَلالوة ولا نواخذة ولا بدو ولا فداوية ولا حريم ولا عبيد -وكلنا عبيد الله- ولا تحمدُ الله على نعمة، ولا تحب أحدًا وجعة توجع قلبك!».

«أنا لا أحب ما لا أفهم!».

تمتمَ صاحب المَنسَى مبرطمًا، فلاذ الجميعُ بالصّمت خشية انفعاله فتنتهي السّهرة على ما لا يشتهون. وما طال الصّمتُ حتى قطعه خَليفُوْهْ لا يُلجم طبع الجدل. وانفلتَ لسانه على صاحب الحَوْطة:

«لا شيء يعجبك في الدّيرة يا أخي! قُل لي بالله عليك وأنت الذي شرّقت وغرّبت في سفرك وطفت بلاد الله في كل مكان.. لماذا لم تقعد في بلاد الله الواسعة؟ لماذا تعود في كل مرة إلى الدّيرة».

نهرهُ سعدون رافعًا صوته:

«لا تكثر الحكي يا عبد الصاجّة».

ابتلع خَليفُوْهْ ردًا يُعجّل بطرده في منتصف السّهرة، فمرّرَ سعدون سبّابته على خَليفُوْهْ وعاموس وسركيس:

«كلُّكم عبيد».

فهزّ اليهوديُّ والمسيحيُّ رأسيهما يُضمران موافقة تمتصُّ غضب صاحب الحَوْطة مُعتكر المزاج. *كلنا عبيد*. تلفّت سعدون قبل أن يزفر مبرطمًا. فأشار بذقنِه إلى مخدع نومِه:

«انظروا للحِمار الرّاقد في الدّاخل!».

عقدَ خَليفُؤهْ حاجبيه مُستفهمًا:

«سليمان؟».

استطرد سعدون:

«ومن غيره؟! حمار لا يُشغل دماغه!».

«الولد صغير وما خبر الدنيا بعد».

رنّ حرفُ الرّاءِ صحيحًا في لسان عاموس وهو يُساير صاحب الحَوطة في شطحاته. لم يكترث له سعدون وتابع:

«ضحكت عليه الصاجّة والملالوة وسلّم لما يريدون.. الفرخ الخوّاف لم يُحاول ولم يُصر على حقّه بزوجته.. رفع يديه وهرب مثل الحريم وها هو الآن مثل الأطفال يتباكى!..».

اختلسَ خَليفُؤهْ وعاموس وسركيس نظرات سريعة فيما بينهم. واستطرد صاحبهم الثّمل:

«..يحلو له أن يعيش عبدًا.. عبدًا لـ سَنَد.. عبدًا لأمّه وخرابيط الصاجّة وكلام النّاس والمَلالوَة والنّواخذة والتجّار والـ..».

قاطعه خَليفُؤهْ:

«وما شأنك بالتجّار يا حافي؟ سنين وأنت تعمل عندهم.. أتأكل من صحونهم ثم تمسُّ يدك في جدرانهم وتنصرف لا حمدًا ولا شكورا!..».

تغامز عاموس وسركيس وأومأ لـ خَليفُؤهْ أن يكفّ استفزازه لـ سعدون. غير أن صاحب القِطَط المُمتحَن بالجَدَل ما أمسكَ لسانه:

«..اطلب من الله أن يعطيك ما أعطاهم. والله ما انقلبت عليهم إلا بعدما طردوك أنت ومنصور الغَيص من العمل في سفنهم وحرموكما من خلوات موانئ الهند وزنجبار.. قطيعة! لا أحد يسلم من لسانك!».

«لا شأن لي بهم، جُعِلَت أموالهم سحتًا، لكن ما بالُ المَلالوَةِ يصمتون عن الرِّبا على شلفة الغوص يا أخي؟! لماذا يُحرِّمون ربا اليهود ويصمتون عن ربا التجّار؟! المَلالوة، كُلُّهم، هاجموا منصور الغيص في خُطب المساجد، وقالوا فيه ما لم يقله مالك في الخمر، وقالوا إنه مات بسبب طيشه، ولم يصرخ واحدٌ منهم بإدانةِ بالِعي السحت من أصحاب المراكب والسُفن الذين خنقوا منصور بالديون!».

«وهل تريد أن يترك المَلالوَة مساجدهم لمطاردة التجّار في دكاكينهم؟».

«صرت الآن تدافع عن الملالوة يا مُلّا خليفة! فليقولوها من منابرهم، فليقولوا بحرمة الفائدة على الدّين.. بحرمة دخول البحر بشلفة تُسَدّد سنين عمل.. بحرمة توريث الدّين لأبناء البحّار ومصادرة بيته.. يا رجل! انظر للخِبل سليمان الذي يستنكف العمل بيديه لأن أهله وجماعته يستنكفون عمل الصنّاع والمزارعين وكل مهنة في شرعهم نقيصة.. وما عيب الصانع وهو حرٌّ مالك نفسه يعمل بحرِّ مالِه وليس عبدًا لأحد ولا يغير على أحد ولا يسلب أموال غيره؟! اختار الحمار الغوص كأنما ليس الغوص صنعة مثل صنعة العبيد.. هل تدري أني أرسلته قبل شهور إلى المُلّا إبراهيم كريم العين..».

أطلّ أشهَب وإلينور من تحت دِشداشَةِ صاحبهما يخزران سعدونًا، ولو كان لِـ خَليفُوْه ذيلٌ لسارع يُخفيه بين رجليه لحظته تلك. ولاحظ عاموس وسركيس كما العادة ارتباك أبي القُطاوَةِ وانكماشه في جلسته وتحفُّز قِططه. فأخفى الأملظ إبهامه بين راحةِ كفّه وأصابِعِه وأمال رأسه يُنصت إلى استرسال سعدون:

«..أرسلتُ سليمان يسأله عن جواز عملهم في مراكب الغوص شهورًا دونما ضمانٍ ألّا تُضاعَف ديونهم إذا ما أقفلَت المراكب بلؤلؤ قليل. أتعرف ما ردّ المُلّا؟..».

بدا الانزعاج على وجه خلَيفُوْه وقتَ أغمضَ سعدون عينه اليُسرى بشدّة يتقمّص كريمَ العين، وتضاحك بِن شاؤول وصاحبه الأرمني:

«..قال له كريم العين إن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام أوصى بإعطاء الأجيرِ أجره قبل أن يجفّ عرقه.. وتحجّج كريم العين بأن التجّار ونُواخِذة السُفُن -جازاهم الله كل خير- يعطونكم أجوركم قبل دخولكم البحر، بل وحتى قبل أن تعرقوا! تخيّل! والثور سليمان قنع بردّه كما لو أنه لن يدخل البحر بسُلفةٍ فوقَ دَين أبيه المرحوم وفائدته! في ذمّتِك، ثورٌ أم ليس ثورًا؟!..».

ختمَ سعدون وهو يدقُّ سبّابته برأسه:

«..لو أنه يُشغّل هذا!».

زفرَ خَليفُوْه من أنفِه:

«كلام كريم العين صحيح..».

قاطعه سعدونٌ غير مصدِّق:

«والله؟! أتوافق كريم العين يا خَليفُوْه؟ أنت!؟».

«أوافقْ ما يصدقه عقلي».

صفع سعدون جبينه:

«يا رب العقل! خَليفُوْه يُصدّق كريم العين! إنها نهاية الزّمان!».

انبرى أبو القطاوةِ يُدافع عن رأيه:

«ما العملُ إذن؟ أترضيك رؤية البحّارة في الشوق بغير عملٍ يطرُّون ويتوسّلون المارّة؟! ثُمّ إنهم يدخلون البحرَ عن طيب خاطر ولا جابر لهم عليه! سعدون.. أنت نفسك عملت لدى التجار، وسافرت على سُفُنهم مُنعّمًا إلى كل مكان!».

«كنت مثل الثور الأبتر، كبرت وعقلت.. *لكني ما زلت أبتر*».

لاذ بصمتِه يغيب في صورٍ تومِضُ في خياله مثل فنارات السُفن في ليلٍ أظلم. احمرّت عيناه قبل أن ينتفض:

«..كنت مثل العبد عملتُ بين العبيد وأنا لا أحب العبيد، لعن الله العبيد! منصور الغيص أيضًا كان عبدًا مغفّلًا هرب من ذل سفن السفر إلى ذل سفن الغوص.. يا أخي حتى والدي كلما سُئل عن كثرة الأبناء كان يُجيب: حتى يخدمونني إذا ما هرمت وخانتني أطرافي. كأن ليس له في البيت السّاكت بدل العبد اثنين ساكِتَين مثل أهل البيت كلهم. يؤجّر العبدَين للغوص في الصيف ويخدمانه باقي السنة.. رغم ذلك ما كان يُنجب إلا العبيد. انظر لحال إخوتي الثّمانية واسألني عن ذُل العبيد الذين أقسموا عن طيب خاطر بألا يتوكأ أبوهم عصًا ما داموا يشمُّون الهواء.. لديه عشرة عبيد، ثمانية من صلبه، وواحد

موروث، وواحد من بيع السوق.. عتق أبي الأول قبل حجّتِه الأولى، وقبل الثانية عتق الآخر.. لم لا يعتقني مثلهما ويكتفي بالثمانية الذين من صُلبِه، ويكف عن ملاحقتي في نومي كل ليلة؟».

«لو تكفّ عن عنادك وترضى بحرز أم حَدَب لكفّت الجوائيم والكوابيس عن تخريب نومك».

أجابه خَليفُوْه منفعلًا، فصاح سعدون:

«لا شيء يوقف زيارات الشيخ الغضوب في نومي.. لا شيء.. أبي أقوى من كل حرزٍ حريز، ولا شيء قادر على منع نظرته الغاضبة التي تطالني إذا ما أرحت هذا الرأس على المخدّة..».

يدري زوّاد المَثَسَى أن لا أحد فيهم قادر على إسكات سعدون، إذا ما أمسك بجادّة الحديث عن الرّب، رب البيت الذي طرده من البيت. فآثروا الصّمت وأشار سعدونٌ فجأةً إلى بِن شاؤول:

«..انظر إلى الحمار ابن الحمار هذا!..».

فانفجرَ سركيس ضاحكًا يصفعُ فخذيه، وعاجله سعدون:

«..لا تضحك يا جحش! سيصلك الدور..».

فعاد ثانيةً يُحدّث خَليفُوْه عن عاموس:

«..بقدرِ ما يجمعُ أبي الأبناء ليوم الحاجة؛ يجمعُ شاؤول المال ليومٍ لا يجيء.. لأنهم لا يعرفون الحاجة..».

قاطعه بِن شاؤول:

«ألا يقولون إن الدّراهم كالمراهم؟ حتى كتابكم يقول إن زينة

الدنيا المال والبنون».

اعتدلَ سعدونٌ في جلسته:

«وأنا لا أحب المال ولا البنون يا أخي! غصبٌ هو غصب؟! الظاهرُ أن أم السّواعد كانت محقة حين قالت إنها أنجبتني بالخطأ.. بلى.. لقد جئت لهذه الدنيا على ما قالت أمي بالخطأ!..».

ارتفع صوته، فعاد ثالثةً يواصل قوله لِـ خَليفُوْه وهو يصوِّب سبّابته لِـ عاموس:

«هذا عبد أبيه.. كل شيء لأبيه.. كل شيء.. نفسه وماله وحتى بُلبُله الزُّبْوّة الذي يلازمه طول الوقت منذ سنين؛ يُسميه النّاس بُلبُل شاؤول، لعنة الله على شاؤول، بدلَ أن يُسموه بُلبُل عاموس!..».

أفلتَ البُلبُل تغريدةً خاطفة فظهر أشهَب وإلينور من وراء دِشْداشَةِ خَليفُوْه وجلسا يُنصتان إلى تغريد الطائر. استدرك سعدون:

«..وهذا بُلبُله يُغرد ويعجبه كلامي.. أمضى الحمار صباه يطوف السكك يحمل البقجة على ظهره مثل حدبة عجوز النار أُم حدب. يجمع البيزات لأجل أبيه».

قاطعه بن شاؤول، وأشار بسبّابةِ إدانةٍ وتذكيرٍ بجولةٍ قديمةٍ من جولات المفاضلة بين الإسلام واليهودية، «ديننا أحسن من دينكم»، تلك التي خسرها سعدون عند عتبة باب بيت المُلّا عبدالمحسن قبل خمسة عشر عامًا مرّت كأنها أمس:

«دينكم يقول أنتَ ومالك لأبيك».

«اِخرس يا كلب لعنة الله على أبيك!..».

انخرسَ عاموس وواصل سعدون حديثه لـ خَليفُوْ:

«..ماذا كنت أقول؟ نعم.. يجمع هذا اليهودي البيزات لأجل أبيه، فيكنز أبوه البيزات إلى أن يأخذ الله أجله، ثمّ يرثه هذا الحمار ويعيد سيرة أبيه ويكنز، ويعبد البيزات بعدما كان يعبد أباه، لعن الله أباه.. أما أنت يا جحش يا أبو صليب..».

قال سعدون مُلتفتًا إلى سركيس، فعاجله الأرمنيّ يقاطعه بصرامةٍ رغم لزوجة كلماته:

«سعدون! إياك أن تذكر أبي بسوء!».

هي مرّةٌ واحدةٌ تكلّم فيها سركيس عن أبيه في سهرةٍ قبل خمسة أيام. ولأن ما صاحبها من مزاجٍ أحالَ السّهرة إلى ما يشبه مجلس عزاء؛ أضمرَ زوّاد المَشَى ما يشبه الاتفاق على عدم اختراق ماضي الشّاب الأرمني الذي أبادت الدّولة العليّة والده وأعمامه في أنقرة قبل خمس سنوات.

أطرقَ سعدون يهمس:

«الله يرحمه».

حملقَ سركيس إلى الأرض بعينيه الحمراوين:

«الإخوان يطلبون من الشيخ سالم تكفير الأتراك. لماذا لا يُكفرهم؟».

«كفّرهم أم لم يُكفرهم ما دخلك أنت يا مسيحي يلعن أبو شكلك؟!».

صاح عليه سعدون فتمالك نفسه. وكرّر سركيس يصرُّ على كلماته من دون أن يرفع عينيه عن الأرض:

«لماذا.. لا.. يُكفرهم؟».

أخفض سعدون صوته ومالَ يُحدِّق في وجه سركيس:

«لأن ليس لدى الشيخ سالم توكيل من الله على الخلق».

لم يفُه الأرمنيُّ الثّملُ بكلمة، فنهضَ سعدون فجأةً كأنما تذكّر شيئًا. توكأ على الجدار ثقيل الرأس ووقف أمام تجويف الكُتُب في الجدار. وأبعد بُلبُل شاؤول الذي ذرقَ بين نسخةٍ مهترئةٍ لديوان الحلّاج وكتاب الـ «كاماسوترا» الهندي. فطارَ البُلبُل في فضاء المجلس، وأفلت ذرقة أخرى على رأس إلينور التي راحت تمسحُ رأسها بكفّيها، على حين حطّ البُلبُل على سطح الباب المشرع.

أمسكَ سعدون بدزينةٍ من منشورات الإرسالية التّبشيرية استلّها من بين الكتب والمجلّات، ومدّها إلى سركيس:

«خذ أوراقك!..».

أسقطها في حِجر عامل الإرسالية:

«..مُنذ ثلاث سنوات وأنا أقرؤها منشورًا بعد منشور. يتحدّث المبشرون كأنهم إخوان من طاع الله والله.. لنا في الكويت مهمّة بأمر الله وبإرادته.. كلاهما يجيء بأمر الله.. وهذا يُبشّر وذاك يُكفّر!..».

ثُمّ تربّع في ركنه على الأرض ثانيةً، يتبرّمُ بصوتٍ خفيضٍ بالكاد تُسمع كلماته؛ *الآب .. الابن.. والروح القُدُس*. فالتفتَ إلى سركيس:

«..أيطردني واحدٌ أحد فأرتمي بأحضان ثلاثة؟! ثم أين الثلاثة حينما..».

أمسك سعدونٌ لسانه وما جرؤ على أن يُتِمّ: *حينما نكّل الأتراك بأهلك؟* فأجابه سركيس محتدًا:

«الثلاثة إله واحد يا جاهل».

رفسَ سعدون ركبة سركيس وصاح عليه:

«صِر رجلًا وكلمني مثل الرِّجال وإلا والله فعلتُ ما فعله فيك أهل البصرة في مسجد الزُّهيرا».

وسكت الكلامُ وأفلت البُلبُل تغريدةً مُنذرة. وتيقّظ السُّكارى لفتنةٍ تطلُّ بِقَرنَيها على سلام المَثنَى الذي آخى بين البلابلُ والقِطَط. فتحلّى الصّحبُ بروحٍ من السّكينة يُلجمون شهوة الجدل، وآثروا الصّمتَ الأخويّ يُتكتِكونَ لانسحابٍ مدروس الخُطى. وسدّدَ اثنان من الأربعةِ بصرهما صوبَ الباب قبلما تتعكّر النُّفوس فتتطاير الكؤوس.

صعّرَ خَليفُؤهْ خدّه وبرطم إزاء انتقال سعدون من حديثٍ إلى آخر دونما رابط غير سخطه:

«يبدو أنّك أفرطتَ في الشُّرب!».

طاشَ صوابُ صاحب المَثنَى وارتفع صوته:

«سعدون لا يسكر!».

ما استغربَ عاموس وسركيس جرأة خَليفُؤهْ، لأنه اعتاد الطرد

وأدمنه، حتى أنه لن يرتاح لو غادر الحوطة بمزاجه. أمسكَ سعدون بكأسِ العَرَقِ بيمينِه قبل أن يهمِسَ باسمِ الله ويشتفَّ ثمالتها. وانفلتت من خَليفُوْه ضحكة استنكارٍ إزاء الماجن الذي لا يكف عن ذكر الله في كل فعلٍ وقول. ثمّ راح صاحبُ الحوطة يُعيد سكبَ السّائلَ الشّفاف من زُجاجة بِن شاؤول، يملأ ثُلثَ الكأس الفارغة، ويصبُّ فوقه الماءَ ثُلثِين، حتى استحالَ الشّرابُ أبيضَ مثل شراب اللّوز الفارسي. *مثل حليب السّباع*. ثمّ ألقمَ الكأسَ كِسرة ثلجٍ وصاح انتشاءً:

«حمدًا لله على نعمةِ بِن شاؤول».

خزّرَ خَليفُوْه أبو القطاوَة عينيه ينظر إلى سعدون:

«أراك على سُنّةِ النّبي عليه الصّلاة والسّلام، تحمدُ اللهَ وتُسمّي وتشربُ بيمينك، وأنتَ تُخالفه في شُرب المُنكر!».

نقّلَ صاحبُ الحوطةِ بصره بين زُجاجة العَرَق وحصيرة الصّلاة في الرُّكن:

«ألا ثالث بينهما؟ مُلّا أو كافر؟ إما أن أُوقِدَ سِراجين أو أقعد في ظلمة؟! يا أخي حسبي أن سراجًا واحدًا يكفيني!».

«عمى بعينك سعدون، اِستَح! هذا دِين! وأنت آخر من يتكلم عن الدّين.. عشت عمري كله وأنا مصدّق قصة سيدنا موسى وفأسه التي تشق الجبل يا كذاب».

«*أيفلَق البحر بعصاه عليه السلام ولا يفلَق الجبل بفأس؟!* كنت طفلًا يا أخي! وكلما ذكرت لهذا اليهودي معجزة من القرآن الكريم

قال إن لديهم مثلها في كتابهم وأكثر! ويزيد على قصصي قصصًا.. قهرني الكلب! ماذا تريدني أن أقول له بالله؟ دينكم أحسن من ديننا؟!».

استغفرَ خَليفُوْه وأفرغ سعدون الكأسَ دفعة واحدة في جوفِه وراح يجرُش الثلج بأسنانِه. وأبو القطاوَةِ يَزِنه بنظرة احتقارٍ تشوبها شفقة:

«سعدون! أما أنك تتوهم أو أنك مجنون أفقدك الشك عقلك والله».

«أووهُوووووه! اسمعني وشغِّل عقلك يا فرخ الصاجّة.. الشّك لو أحسنتَ مُعافرته كان سبيلك إلى الحقيقة. والقلقُ في ما بينهما أول قِطاف الفهم. والكآبة آخرها. والخيالُ منجاة. أما الجنون يا صاحبي فهو محاولة العقل الأخيرةِ لرفضِ واقعٍ غير مُحتمل، في عالمٍ لا معقول».

عفَطَ خَليفُوْه بشفتيه:

«والله ولا فهمت كلمة وحدة».

«حمار».

ردّ سعدون فأترع الكأس مرّة أُخرى بالشّراب المخفَّف بالماء. وانصرف عن مناكفة أبي القطاوَة، بودّه أن يشاكس سركيس لكن وجه الأرمني المُحمَرّ غضبًا على الأتراك كان صارمًا في شروده. فعاود سعدون مناكفة بن شاؤول وهو يُشير إلى البُلبُل منفوش الريش يدسّ رأسه تحت جناحه رابضًا على حافّةِ الباب المشرع:

«متى تجلب لهذا المسكين أنثى تسعده؟ أو أرجعه إلى أهله يا

أخي!».

«أنا أهله».

أجابه عاموس متحفظًا ينتقي القولَ ويُجيب بأقل قدرٍ من الكلمات. فعاجله سعدون يُلحق السُؤال بالسُؤال:

«ومتى تزور البصرة مثلما يفعل أهلك؟ ما عاد في البصرة تركيٌ عقب ما أخذها الإنكليز.. والإنكليز يحبونكم».

رشفَ بِن شاؤول من كأسه وأعادها إلى الأرض:

«ليس في القريب».

«ذبحتنا وأنت تحكي عن بلابلها وبساتينها وأهوارها وهي على بُعد حذفة حصاة. لو كنت في مكانك أسافر ولا أقعد في البيت مثل الحريم».

برطمَ خَليفُوْهْ قبل أن يتدخَّل يزجرُ سعدونًا:

«اترك عنك عاموس وارجع أنت إلى ديرة جدك وفكّنا من شَرِّك».

اعتدلَ سعدون في جلستِه:

«الزُّبير؟ خير يا طير؟! أنا ما شكوت في الدِّيرة من شيء إلا..».

قاطعه خَليفُوْهْ يُتِمُّ ما يحفظ:

«إلا الشيوخ والتجار والملالوة والنواخذة والبدو والفداوية والحريم والعبيد».

«حمار، لكن كلامك صحيح».

تململ عاموس في جلسته أثناء حديث أبي القُطاوَة وصاحب الحَوطة. وقلب كأسه الأخيرة وأسند كفَّه إلى عقِبها، فاعتدل وهو يُجيب سعدونًا وعيناه على بُلبُله فوق الباب يغطّ في النّوم:

«أتصدق سعدون؟ قل لا إله إلا الله».

«لا إله إلا الله».

«منذ ولدت وأنا أحلم أن أعود إلى البَضغَة..».

نطقها على طريقة أهلِه. فاختلس نظرة إلى الكأس المقلوبة تحت كفِّه، وأفلت ضحكة فتدارك:

«..كان حلمي أن أعود إلى البصرة إذا ما غادرها الأتراك.. كبرت وجاء العَنكريز، وهُزم الأتراك ورحلوا منذ سِتّ سنين. وعاد معظمنا وبقيت هنا مع القليل.. ولا أدري هل كبرت على حلمي؟ أم أني أخاف العودة الآن فينتهي الحلم بسرعة فأعيش بلا حلم، أدور حول نفسي، مثلما يدور حمارُ المطحنة حول الرّحى، لا يدري ما المطحنة وما السّمسِم ولا يدري إلى متى ولماذا يدور..».

ثنَى بن شاؤول ساقه اليُسرى تحت مؤخرته وارتفق رُكبته اليُمنى، واستطرد وهو يُشير إلى غُترتِه ودِشداشَتِه:

«..ثم إني اعتدت هذه واعتادتني.. فهل أعود وألاقي مكانًا لا أشبهه؟».

حاجه خَليفُوْه:

«من يسمعك يحسبُ أنهم لا يلبسون الغترة في البصرة!».

ردّ بِن شاؤول بما قالَ حاخام الكنيس في موعظة السّبت قبل أيامٍ خمس:

«ليست المشكلة في الغترة يا خليفة..».

دقّ رأسه بسبّابته على طريقة سعدون:

«..بل في ما تحتها».

«لماذا لَم يُثمر زرعي؟».

قاطعهما صاحبُ الحوطة يلفظُ سؤال الزّرع مُعطّرًا بريح اليانسون، فغاصَ في صمتِه مُغمض العينين. *أنا أين؟* ولا يدري زوّاد المَنسَى هل غفى صاحبهم أم أن المنكر قد أذهبَ ما بقي له من عقلٍ وصار يهذي ولا يُقيم للكلام وزنًا. *أنا فوق*. أخرج عاموس من علبة التّبغ لُفافة أطبقَ عليها شفتيه، واستلّ من نِصفها الأيمن دودةً وراح يُصفِّر، فاستفاق البُلبُل وخطفَ الدُّودة مرفرفًا بجناحيه مُقفلًا إلى مكمنه أعلى الباب لمحَ البصر.

وصاحب الحَوْطة الملعون غائبٌ لا يدري ما يدورُ حوله. *لكن أدري ما يدورُ في نفسي*. يهجس وهو بالكاد يرى شُعلة السّراج من شقّي جفنيه المُسبلين. *النّور والنّار*. فيتذكّر عصيانه ويبتسم. *يا حبّي لك*. لعصيانك؟ *أستغفر الله*. لمن تخلّى عنك وجفاكَ وفق ما صدّقته غُلامًا؟ *هل نسيتني تمامًا؟* كلمني أنا! *اصمت أنت*. أما زلت تحبّه؟ ويهجسُ سعدون. *أحبك وأنت تدري، مثلما يدري سطحُ بيتنا الأخرس كلّما ارتقيتُ السُّلّم فجرًا. أنادي للأذان رافعًا صوتي في نشوةٍ تشهدُ عليها السّماء. تشهدُ عليها أنتَ يا من رحمتُه أقرب من الحاجب إلى العين. أنا أين؟ نشوة تُشبه ما تُفضي إليه هذه الكأس*

المترعة بالماء الأبيض، تُشيع الخدرَ في الجسد وترتقي بالرُّوح، وقتَ أقف في سطحِ البيت طفلًا أختمُ الأذان على صياح ديوك الدِّيرة نافِشة الريش نافخة الصُّدور. ما أكثر الدُّيوك في الدِّيرة وأنا مثل الفرخ الذي يصيح في البيضة، أنادي: «الصَّلاة خيرٌ من النَّوم.. الصَّلاة خيرٌ من النَّوم». فأبصر من الأعلى دُورًا تُشعل قناديلها في الغُبشةِ على أصداء صوتي. تنتشر في السِّكك وفي الفضاء السَّاكن مثل ترانيم شيوخ البحر على السِّيف. مثلَ صوتِ اللـ [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 138/1990] كنتُ أحسبُني طِفلًا ينثرُ النُّورَ من السَّطح على سِكك التُّراب المظلمة. يوقِظُ نُوَّام الرِّجال، ليهبُّوا إلى المساجد تلهجُ ألسِنَتهم بالدُّعاء. كُلُّ سِراجٍ يُشعَل في الحيِّ يُضيء في الرُّوح فتيلَ إيمانٍ يشعُّ في القلب، يُفضي إلى بركاتٍ تُثقل ميزان حسَناتي، بتسابيحي ومزاميري وابتهالاتي. ذخيرة يوم اللقاء، حصيلةٌ من الخير تدخلُ جُعبتي أدَّخِرُها قُربانًا لك في قابل الأيام، إذا ما بُعثت من مدفني تحت النَّخلةِ في حوش المَنسَى. قُربانٌ إليك يُقرِّبني، ويفتحُ لي أبوابَ الفردوس على مصاريعها وأنعمُ بالنَّظرِ إلى جلال وجهكَ يا عظيم يا رحيم. أصيرُ فتيلًا يشعُّ نورًا في حضرةِ النُّور. أنا ما أحببتُ الخمرة إلا في كتابك وعدًا، اشتهيته واستعجلتُ قِطافه، قبل أن أنعمَ به في جنَّتِكَ أنهارًا لذَّة للشَّاربين. فمن مثلي لا يستحقُّ إلا جنَّتك لو أنها كانت.. أحبك وأنت تدري، وأغارُ عليك ممن نُحِب، وأغارُ مِن خلقِك الهانئ بعفوك ورضاك. أحبك منذ عهدٍ قديم وأنت تذكر بكائي حينما سبقني سليمان بختم القرآن قبل سنين، وقتما مددتُ يدي إلى أمِّه بغُترتِه أبشِّرُها: «سليمان ختَّم.. وهذي غترته». ضحِكَت الأرملة وزغردت وبكت فرحًا، وبكيتُ حسدًا كيف يحفظُ سليمان ما لا يفهم! فأصبحت أبغض ما لا أفهم. لِم يقدر هذا

الطّفل أن يفعل ما لم أقدر عليه؟ أردت أن أكبر كي أفهم، لأن الملّا عبدالمحسن صبّ في أُذُنَيّ: تكبر وتفهم. وكبرت وكذب من قال إني ما فهمت. بل إني عشت ما يكفي لأفهم أني لن أفهم.

اكثب سعدون. رأسي يدور. اكثب. بودّي لو أكتب الآن في كرّاسي. اكثب. لكن جفني بالكاد يرتفع والقلم.. أين القلم؟ بعيدٌ وشعلة السّراج أمامي في زجاجها تدور. مثل رأسك تدور. ترقص مثل غانيةٍ غجريةٍ ثملة، تلبسُ ثوبَ النّورِ الشّفيف على الجلد الأبيض، وتدور. يكشِفُ الثّوبُ من جسدها أكثر مما يستُر، ويشفُّ عن وشمٍ دقيقٍ ينحدر من الشَّفَةِ إلى العُنق، يا لذاك العنق. فيعبرُ مفرق نهدَين معجونَين من الزُّبد، ويمضي منحدرًا على البطن الأبيض فينقطعُ في ثَقب السُرّة. أحِبُها لو أني لن أموت. لكني شبعتُ وهذا ليس مكاني وأنا أريد أن أموت. وأموت عشقًا وأهيمُ في حسناء من بنات حمدية يتكالبُ الرّجال على غشّتِها في الرّميلة. أعرف كلّ الذين مرّوا بفراشها وأعرف الذين سوف يمرّون. وأعرف ندوبَ جسدها وأعرف أيّ ندبٍ خلّفه أيّ كلب. وأحفظُ أسماءهم مثلما أحفظُ أسماء الأصابع، غير أنهم ساعة العدّ أكثر من الأصابع. غانية تلتهمها أعين رفاق المَنسَى وهي المتاحة للكل. تلفحُ الهواء بشعرٍ بلون الكستناء عابق بضوع البخور. تلفحُ يمنةً ويسرةً مُغمضة العينين. غافلة عن عالمها بما يُشبه السّحر. ترقص مثل شعلةِ السّراج الملتهبةِ ذنبًا، وقد أشبعتها الدُنيا ضربًا، وتُكفّر عن خطاياها رقصًا وحشيًا يطيرُ بروحها إلى السّماءِ عاريةً بين يدَيّ السّماء. تمدُّ إلي يديها تُناديني. فأنهضُ مُغمِضًا أزفُن وأدور. مثل رأسي الآن أدور. أرسلُ روحي وراء روحها نرتقي معراجًا من ضياءٍ يُفضي إلى ضياءٍ في السّماء. تختفي

في نورٍ يُفضي إلى نور. تجثو ولا تسجد وما إعراضها عن السُّجود معصيةً إنما خشية أن يفوتها إبصارُ بهاء وجهك راضيًا غير غاضبٍ أبتاه. روحي عاريةٌ فارغةٌ إلا من سؤالٍ متروكٍ بين يديك الكريمتين. لماذا لم يُثمر زرعي؟

أنا لا أطيقُ صبرًا على هجر، وليلي طويلٌ بلا فجر. أعِد بشمسِكَ ظِلّي، فلِمَ الهجرُ قُل لي.. و[إذا هجرتَ فمن لي؟ ومن يُجمّل كُلّي؟] (6)، ومن يطمئنُ عقلًا، ناكِرًا ويُصلّي، [ومن لروحي وراحي؟ يا أكثري وأقلّي]. أنا حتى هذا اليوم لا أفهمك، مُذ صفعني أبي عند ملاقاتي أسفلَ السُّلّم هابطًا من السّطح. سعدون! ماذا كنت تفعل؟ أشير إلى سطح الدّار أجيبه متباهيًا صادقًا: كنتُ أحدّث الله وأقول له إني أحبه فيقول لي وأنا. فيغضب أبي ويقول: الله؟! وأقول: الله. فيقول: يقول لك؟ فأقول: قال لي. فيصفعني صفعة تطنُّ لها أذني. أما كنتُ أناجيك إلهي مُبتدئي ومُنتهاي؟ وأنا طفلٌ غريرٌ، [أحبّكَ البعضُ مني، فقد ذهبتَ بكُلّي]. إلامَ يدومُ غرسي؟ علامَ هذا التّخلي؟ [يا كُلّ كُلّي فكُن لي، إن لم تكُن لي فمن لي؟].

دهمني أبي ثانية في سطحِ الدّار، بعد عودته من حجّتِه الأولى بصحبة إخوتي الثّمانية. أمسكني مُتلبّسًا أحدّثُ نفسي في بيتٍ يمتدحه النّاس وينعتونه بالبيت السّاكت، وما كنتُ إلا أحدّث جلالك لأني ما طقت أن أكون مثل أهل البيت؛ «ساكت». أمسكَ أبي بكتفي يخضُّني متوعدًا. فسقطت الغترة عن رأسي الصّغير فقرّب وجهه ينظُر فوق أذني اليُسرى، ما هذا الكَيّ يا نَضرة؟ وما كان من أمّي إلا أن تعترف بعلاج الصاجّة بعد حادثة البريغصي الذي دخلَ تاركًا ذيله المبتور بين قدمَي. فاشتاط الحاجُ وعنّفها على دخول الصاجّة داره،

تعيثُ فيها شعوذةً وتكوي رأسَ ولدِه الصّغير. هو المؤمن الصالح الذي يدري علاج ساقَيه في شحم السّلاحف، لكنه آثر الاحتفاظ بضعفهما على أن يجيء الشّفاء من صاجّة. دعا عليّ بالموتِ ورجته أمي ألا يفعل، فقال: يموتُ واحدٌ، عندي ثمانية غيره.

أمسكَ بي يجرُّني إلى بيت المُلّا إبراهيم يُخلّصني من لعنة الصاجّة وعلاجها الذي ما أنزلَ الله به من سلطان. فرِحتُ بأن المُلّا سوف يُخلّصني من فزعي، ويُنسيني عذاب الكَيّ الذي آذى روحي قبل جسدي. ما كان البريغصي إلا جِنّيّة مارقة صرعت الغُلام وسكنت جسده وفتنته في دينِه يا أبا السّواعد، قال كريمُ العينِ لأبي وأكّد أن البريغصي ملعونٌ أمرَ النّبيُّ عليه الصّلاة والسّلام بقتله. وقال آخِرَ قوله يُوافقُ الصاجّة وهو لا يدري.. الولد مصروع.

نزلت خيزرانة المُلّا على ظهري وكتفيّ وفخذيّ، فأنستني عذابَ الكَيّ في رأسي، ولسعت مثل العقرب روحي. وكلّما ارتفع صراخي مرتجفًا حادًّا غريبًا قال المُلّا: «هذا صوتها». وصاح كريمُ العين يُحدّث جنيّةً خرجت من جسد البريغصي فتلبّستني: «اخرجي منه يا ملعونة!». وأنا بين لسعةٍ ولسعةٍ أفركُ منازلَ الخيزرانة في جسدي الطريّ. وأصيحُ مع صوت المُلّا وهو يتلو من القرآن آيات الحسدِ والجِّن والسّحر. وأتلفّتُ إلى الأرض حولي مُبحلِقًا أُمني النّفسَ بخلاصِها. أصيحُ بنفسي: «أخرجي يا ملعونة!». أتحرّى خروجها جنيّةً لا تُرى، أو بصورة البريغصِي مبتور الذيل خاطفًا يُخلّصني من نوبات الصّرع كلّما دهمني خوف. ولكن الجنيّة لم تخرج أبدًا. وغشيتُ مثل أيّ صبيٍّ مصروع تحت سياط خيزرانة المُلّا.

يا صبيًا فتحَ عينيه في دار أبيه يُعاين خطوطًا مُلتهبة خلّفتها خيزرانة المُلّا على جسدِه الضّئيل. يتحسّس أثَرَ كَيِّ الصاجّةِ الملتهب الخالي من الشّعر فوق أُذنه اليُسرى. بمَ أجداكَ ركضُك إلى سطح الدّار تجثو وتُفضي إلى السّماءِ اكتشافك الأخير:

«يا ربي يا حبيبي.. المُلّا مثل الصاجّة، والصاجّة مثل المُلّا».

ضحكَ الصّبيُ لحظتها مثل مخبولٍ وهو يُحدّث حبيبَهُ. فابتلع ضحكاته وهو يهبط السُلّم. ولمّا أدرك الأرض ألفى نفسه ملعونًا بالأسئلة البريئة المُجرّمة. وكان حديث السّطح ذاك آخر حديثٍ له في حضرة جلالك قبل أن يتحوّل للكتابة إليك. لا يكفُّ يسألك ويُسائلك بحروفٍ كُتِبَت بالفحمِ على جدران السّطح. فصرخَ عليه

أبوه: كفّ عن الكتابة وتأدّب مع الله. *يا الله!* ثمّ جرّ الصّبيّ إلى ركن الحوش حيث التنّور الذي ما خمَدَ جمره. ونادى أبناءه، فهبّ إخوة سعدون يطوّقون أخاهم الأصغر الممسوس. وبطحوه على الأرض مثل خروفٍ في صبيحة عيد. وثبّت كلُّ اثنين من إخوته طرفًا من أطرافه، والتقطَ الأبُ بالمنقاش الحديدي جمرة صغيرة من التنّور، نفخ عنها غبار الرّماد فتوهّجت حمراء قبل أن يُطفِئها في كفّ ولده، يُذكِّره بنار جهنّم التي تنتظره فاغرة الفم إن لم يتب. وظنّ الغُلام أنه تابَ ولم يتب. وكان ريقُه بطعم ملح دموعه وهو يحاول تحرير مِعصمِه من قبضة أبيه الغاضب، يقول ما لن يفعل:

«أتوب يُبَه.. والله العظيم أتوب والله يسامحني».

أفلَتَ أبوه الكفّ الصّغيرة الملتهبة يصرخُ في وجه الغُلام:

«يسامحك؟ هذا لو أثمر الصّوف!».

يا أنت يا من لم يوقفه تعجيزُ أبيه وتخلّي إخوته، ما أغباك ما أصلبك! كلُّ النّاس في عينيك حمير وليس مثلك في العناد حمارا! يا صبيًا أفنى عُمرًا يقتفي أثرَ رعاة الغَنَم في السّاحات والسِّكَك بعد ساعات السّحر، حافيًا لاهيًا عن صلاة الفجر مُتخلّفًا عن موكب أبيه وإخوته إلى المسجد. كم اخترقتَ من قطعان الغنم، مثلَ حَمَلٍ مذعورٍ يبحث عن أمّه في زحمة القطيع. تنشبُ أظفارَكَ في أجساد الدّواب تشدُّ أصوافها وتنتزعها بكفّيك الصّغيرتين. تدسّ خُصَل الصّوف في مخابئ دِشداشتِك قبل أن تُعاجَل بنطحة كَبشٍ أو رفسةِ تيسٍ أو لسعة خيزرانة راعيهما. كم كتلة من الصّوف وارَيتَها التّراب قُل لي بربّك؟ قلّبتَ التّربة وأطعمتها الرّوث وأمضيتَ النّهارات

تسقيها وتسقيها، وتُصلّي وتدعو لله بعون الله وإرادته أن تنبُت، وتسقيها. وما نبتت إلا كلمة أبيك تضرب جذورها في قاع روحك، فتستقيمَ في خيالك شجرة تطرح من الثّمَر آلاف الأسئلة وتُكرّر قولَ أبيك: يسامحك الله لو أثمر الصّوف.. يسامحك الله لو أثمر.. يسامحك الله لو ..

صرختَ في داخلك هاجرًا سطح البيت. *لماذا يا رب لم يُثمر زرعي؟* كنتَ أصغر من احتمال فكرة أن يتخلّى الله عنك، يُعرِض ولا يغفر. فاتّخذتَ صورة الله في خيالات صِباك وجهَ أبيك، فكبُرتَ وابتعتَ من الشوق كُرّاسًا، تكتب فيه الرّسائل لجلالتِه وتُصلّي. تُصلّي ليرضى الشّيخ الغضوب، وتُصلّي وتُصَلّي. تُحبه وتخافه وتبغضه وتُصلّي. تستعطفه وتعدّدُ نعمه وتلومه وتُصلّي، تمهرُ رسائلك بإمضاء: زارع الصّوف.. ثم تُطبق كُرّاسك وتُخفيه تحت وسادتك. وتُصلّي. فطردك أبوك يافِعًا كي لا تسقُط السّماء على بيتِه، بعد وشاية أخيك سَعْد بكُرّاس الوسادة. سطّرتَ فيه قصيدة الكُفر وما أنت بكافرٍ يا حائر [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 1990/138]. [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 1990/138]. [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 1990/138]. [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 1990/138]. سألك أبوك كيف تكتبُ شِعرًا مُبتدؤه لماذا يا رب؟ *والرّبُ لا يدري أنه الرّب!* طردكَ الرّبُ من دارِه طردَ آدم من الجنة، وهمتَ على وجهك مُسافرًا لا تحمل إلا كُرّاس ذاكرتك، تطوفُ موانئ الدُّنيا أربعة أعوامٍ تبحث عن حوّائك. [طمس بقرار رقابة وزارة الإعلام 1990/138] وما كُنّ إلا عابراتٍ وما حوّاء العظيمة إلا أُمًّا حُرمتَ رؤيتها فلم تجدها في غيرها. فأقفلت من أسفارك بذاتٍ خالية الوفاض إلا من

عوالق ذكريات مواخير الموانئ. وأنت لا تتوق إلى شيءٍ إلا غفران أبيكَ ثمرًا يطرحه الصّوف، ورؤية وجه أمّك، يا لبؤس أمّك. تتولّه إلى جديلتها الطويلة، ورائحة الحِنّاء في باطن كفّيها. غير أنك ما نلت من الدُّنيا شيئًا يا مسكين، وأنت مُذ طُرِدتَ من داركَ تمضي الحياة منحنيًا. تقطعُ دربَ العُمرِ تزرعُ الصُّوف.. يا زارع الصُّوف. تقتفي أثر لحظةٍ مُناسبةٍ للموت. وكُلُّ اللحظات للموت مناسبة يا جبان. تدري أن اللحظة المُثلى للموت تجيء بعدما يشبعُ البطن، وما دون البطن، فتجد نفسك لا تشتهي شيئًا فتحارب الصّحو الخالي من اللّذات بالكُتُب، عساك أن تُطفئ فيها عقلك، فتوقِدَه الكُتُب وأنتَ تخافُ النّار منذُ جمرة أبيك. وبعد الكُتُب تُحارب الأفكار والأسئلة بالنّوم. والنّوم على ما تقولُ يا سعدون خمرُ المعدمين. ويجفوك النّوم فتشحذ الشّرابَ من اليهود بالدّين لتنسى، وتعبُه طول الليل حتى في اليوم الموالي تستفيق، ناسيًا أمسك كارهًا يومكَ. تنظف حجرة الطرب وتعجز عن تنظيف داخلك. فتعاود الشُّرب، وتُطفئ أثر الشُّرب بالشُّرب ولا تصحو أبدًا. *يلعن أُمها عيشة! أليس الموت أرحم؟!*

«هل نمت؟».

انتفضَ سعدون لسؤال خَليفُوْة الذي بدّد غيبته في هواجسه:

«سعدون لا يسكر!».

قفزت إلينور من حُضنِ خَليفُوْة ومضت إلى حيث أشهَب عند عتبة باب المجلس. فتلفّت سعدون إلى موضِع جلوس عاموس وسركيس:

«وين المغضوب عليهم والضّالين؟».

«خرجا قبل قليل وأنت لا تدري.. صحيح سعدون.. أنت لا تسكر».

أجاب خَليفُوْه، ولم يُحِر سعدونٌ جوابًا وهو الذي لم ينتبه إلى خروج صاحبيه، كيف ومتى؟ وتبدّت الشّفقة على ملامح خَليفُوْه وهو يُحملق إلى وجه صاحب الحَوْطةِ طويلًا. مسكين. بدا جسدُ سعدون بلا روحٍ في المجلس، كما لو أن روحه قد غادرت إلى مكانٍ يُبكيه يضُمُّ أمًّا يتوقُ إلى عِناقِها. يتذكّر صوتها شجيًا وهي تُهدهده بعد نوبات صرع، تُردّد تهويدة: «نام يا وليدي نام.. نام ولك ربٌّ لا ينام.. نام، بحضن موسى وعيسى، والنّبي عليه السّلام».

علقت دمعةٌ بهدب سعدون مَسَّها بظاهر كفِّه، ثمّ أتى على ما بالكأس المترعة وسارع يملؤها. فسأله أبو القُطاوَة بلين:

«لماذا الإسرافُ في شُرب المُنكر؟».

«لا تُحمّلني وِزرَ إثمَين..».

قال سعدون قبل أن يُتِمّ غائم الوجه:

«..الإسراف وشُرب الخمر».

ألقمَ سعدونٌ كأسه كسرة ثلج وراح يحوش الخليط بإصبعه. فقرّبَ خَليفُوْه وجهه إلى صاحِبِه:

«اِرحم نفسك سعدون! لماذا كل هذا الشُّرب؟».

أشار سعدون بسبّابتِه إلى رأسه من دون أن ينظر إلى خَليفُوْه:

«كي أُطفئ هذا».

سارع أبو القُطاوَة يسأل:

«ماذا لو شحّ الشّراب وتعلّقت بعد كأس؟».

وكأن سعدون يدري بالسّؤال والجواب. ردّ في الفور:

«أدعو بهيجة إلى الفراش فأنسى الدنيا.. كي أُطفئ هذا».

أجابَ وهو يُشير ثانيةً إلى رأسِه. فأفلتَ خَليفُوْه ضحكة شفَقةٍ من أنفِه:

«ثُمّ؟»

واصل سعدون وهو ينقرُ رأسه:

«أنام.. كي أُطفئ هذا».

تأفف خَليفُوْه من إجابات صاحِبه التي ينتهي كلُّها إلى نوم:

«وماذا لو جزّت عيناك عن النّوم؟».

التفت سعدون إلى زاوية الحُجرةِ حيث حصيرة الصّلاة مطويةً فوق أحد مساند السّدو:

«أفرشُ حصيرة الصّلاةِ هذه.. وأُصَلّي».

فغرَ خَليفُوْه فمه بغير فهم. وأجابه سعدون ينظر إلى الحصيرة وهو يدقُّ رأسه بسبّابتِه:

«كي أُطفئ هذا».

غطست رقبة خَليفُوْه بين كتفيه:

«أستغفرُ الله».

بدا أن الخمرة قد تمكّنت من سعدون الذي ترنّح في جلستِه. قال

يُغيّر وجهة الحديث بلسانٍ ألْكَن:

«خَليفُوْهْ! قُل لي بربِّك لماذا تعيش؟».

لا يُجِبُ أبو القُطاوَة الحديث عن نفسه، وهو لا يدري لعيشِه أسبابًا غير ما تقوله أم حدَب: عِش طويلًا يا خَليفُوْهْ، وما عادت أم حدَب بعد اليوم صاحّة فكيف يُجيب؟! إِنحاشَ درءًا للوقوع في شَرَك الشؤال، وسارعَ يُجيب سعدونًا:

«المفروض أن تسأل نفسك هذا الشؤال، وأنت مضربٌ عن الزّواج كارِهٌ للذُّرّية والحريم! بالله عليك أي مخبول يكره الحريم؟!».

فأجابه صاحِبُ المَتسَى بيتًا من القصيد:

«فليتَ حوّاءَ عقيمٌ غَدَت.. لا تلِدُ النّاسَ ولا تحبلُ..».

تجاوزَ سعدون خشوع خَليفُوْهْ الذي لم يفقه من قولِ المعرّي كلمة، يحسبها آية من القرآن الكريم. واستطرد صاحب المَتسَى:

«..أنا والله ما حلمت بنصيب من الدنيا إلا امرأة حلوةً عقورًا خرساء..».

ثُمّ أشارَ إلى مَخدعِه وهو يهزُّ قبضته يومئ بحركة بذيئة:

«..المتعة أمرها هيّن.. أما الذُّرية يا خَليفُوْهْ فهي البلاء.. ولا رغبة لي بإنجابِ مزيدٍ من الأشقياء، يزرعون الصُّوف ويحصدون الفَلَس!..».

تيقّنَ خَليفُوْه أن سعدونًا قد غابَ في شكرِه، *من ذا الذي يزرعُ الصُّوف؟!* دفعَ صمتُه سعدونًا ليزيد:

«..أمي كانت دائمة الدُّعاء، يا رب لا تُعاقبني بعيالي. هي لا تدري أن إنجابنا في ذاته هو الخطيئة والعقاب. هل تفهم؟ أن تجيء إلى الدُّنيا عِقابًا لغيرك! أيُّ حياةٍ هذه!».

«سعدون! أنا لا أفهمُ شيئًا مما تقول».

«ولا أنا..».

أجابه صاحبُ الحَوطةِ قبل أن يرشف من كأسِه على مضض، فأردف بلسانٍ ثقيل:

«..خلقَ الله آدمَ، ثُمّ أخرج منه حواء. كان واحدًا وحيدًا لا ثاني له وصارَ بإرادة الله اثنين؛ آدم وحوّاء. تعارفا فاشتاق كُلٌّ منهما إلى سيرته الأولى، جسدًا واحدًا بغير حاجة إلى ثانٍ، يعيش مع الطير والحيوان يا حيوان. تعانق الاثنان يذوبُ كُلٌّ منهما في الآخر، عساهُما أن يعودا واحدًا كما كانا في الأصل.. جسدًا واحدًا، وروحًا واحدة.. وبدلَ أن يُفضي الالتحامُ إلى أن يعودا واحدًا عاقبهما الله بأن صارا أربعة.. سِتّة.. ثمانية.. مئة وألفَ ألفٍ ونحن ومن يجيء من بعدنا من الأشقياء».

«والله؟! أيقول القُرآن هذا؟».

سأله خَليفُوْه مُتحفِّزًا، فنقرَ سعدون رأسه بسبّابتِه:

«بل هذا الذي لا ينام».

«واللعنة! أنت لا تملُّ من تأليف القصص! أتتقوّل على القرآن؟!».

«أستغفر الله.. أنا ما أتقوّل على القرآن لكني أحاول أن أفهمه».

«فتؤلف القصص على رؤوسنا!».

ثبتَ وجه سعدون إلى الأمام وادع الملامح، عيناه لا تنظران إلى شيء. يكاد يبتسمُ إلا قليلا. هو يدري أنه لا يجيدُ شيئًا إلا رواية القصص أو تحريفها أو ارتجالها. لا يفهم شيئًا ما لم يُحكَ في سياج حكاية، ولا يعرف كيف يُفضي بهواجسه ما لم يختلق لها قصّة، ولا يستطيع بلوغ مراده إلا بقصة، مُذ كان صغيرًا يُنصت إلى قصصٍ ترويها له أمُّه في الفراش، حتى ليالي صِباه وهو يُناوش رجولته، في الفراش أيضًا، لا يبلغ النّشوة إلا بقصة جديدة يتخيّلها في كل مرّة مع صبيّةٍ حُلوةٍ لا وجود لها، صبيّة واحدة أحبّها في خياله. قصة تبدأ في سِيفٍ مُظلم، أو سِكّةٍ خالية من المارّة، أو حفلة زار في البيت المثلث.. وتنتهي بانفجار يهزُّ قلبه وأطرافه في خُن مركب، أو وراء سور مقبرة، أو في سطح بيتٍ مهجور.

«نعم.. أؤلف القصص على رؤوسكم».

أجابَ سعدون، فمرّرَ خَليفُوْه بصره على تفاصيل المجلس؛ زُجاجة العَرَق، العود المقلوب على أوتارِه والطّبل والدُّفوف والمراويس، كُتُب الجِدار وسجّادة الصّلاة. قلّما يكون سعدونٌ بمفردِه، ثملًا مُتاحًا لأسئلة أبي القُطاوَةِ الذي ردّ له السُّؤال:

«سعدون! دعني أنا الذي أسألك.. لماذا تعيش؟».

قطّبَ صاحِبُ الحَوْطةِ جبينه يُطيل النّظر إلى لا شيء، فهجس. *أعيش لأني لا أجرؤ على الموت*. وقال:

«لدي حُلمٌ عليّ إتمامه قبل أن أذبح نفسي».

برطم خَليفُوْه لحديث سعدون المتكرر عن رغبته في الموت. وانبرى يُدير دفة الحديث عن أي شيء، وما من شيء يُحبُّ أبو القطاوة أن يسمع تفاصيله إلا أخبار ذات الوشم، فاتنة الزُّميلة وجميلة بنات حمدية التي ما نالها قط، لأن يده الكريمة مع القِطَط لا تؤذي أحدًا:

«أين بهيجة الليلة؟».

صوّبَ سعدون كفّة جهة باب مخدعِه:

«كيف تسهر لدي وهذا البغل يتوسّد مخدّتي؟!».

فُتح باب مخدع سعدون المطل على المجلس. وتسارع أشهَب وإلينور، يُخفيان ذيليهما بين قوائمهما، يُقبلان على صاحِبِهما يتواريان خلفَ ظهره.

«هذا شأنهما مُذ جاء سليمان.. لم يألفاه بعد».

فالتفتَ الاثنان ناحية باب حُجرة النّوم. وأقبل سليمان مُحمَرّ العينين جاحظهما عاري الصّدر مُلتفًا بإزارِه. يابس الرِّيق، حاسر الرأس، مُشعّث الشّعر لا يُخفي أُذُنَيِ الحُضني بغُترتِه كعادته. أقبل شاردًا وهو يُلقي سلامه إلى صاحِبَيه مُهامسة دونما التفات إليهما. وقعدَ في الزّاوية يضمُّ ساقَيه إلى صدرِه يُبحلق ساهِمًا إلى الأرض. انزعج خَليفُوْه لعدم التفات صاحبه وهو يلقي تحيته:

«خير؟ أعمى؟! لماذا لا تنظر إلى وجهي وأنت تُسلّم؟».

لم يكترث سليمان لسؤالِه. انفرجَت شفتاه في وجهٍ صخريٍّ شاحب:

«لا أريدُ أهلي».

مالَ سعدون على خَليفُوْهْ، وهمسَ مُبرطمًا:

«أووهُوووْهْ.. طارَت السّكرة!..».

فارتفعَ صوته يؤنب سليمان يمطُّ الكلمات:

«..هل فقدت عقلك؟ تتبرأ مِمّن؟ أهلك؟ هُم يفعلونها أما أنت فلا!..».

دقَّ سعدونُ صدره بسبّابتِه. يترنّح في جلسته مثل سَنبوكٍ هائمٍ فوق الموج بلا شراع:

«..أنظر إليّ! نحن لا نملك أن نفعل يا خِبل».

ثُمّ لِمَ تفعل؟ وعلامَ تفعل؟ سلّمتَ لقول الصاجّة مثل مخبولٍ لا عقل له. رمّلتَ زوجًا، يتّمتَ رضيعًا، وأنتَ حي. هدمتَ دارًا، ثكلتَ أمًّا آه يا عذابَ الأمّهات لو كنتَ تدري. لو لم يكُن أبي حائلًا لما فارقتُها. أيفارقُ الأمَّ من ليس له أب يا حِمار؟ أتموتُ أمّي قبلَ أبي؟ أم أموتُ قبلهما؟ قُم يا ثور واقفل إلى دارك، وعُد لزوجتك واحمل وليدك بين يديك كيلا يكبُرَ شقيًا. واملأ عيني أمّك بمرآك. حرامٌ عليك يا ولد. والله وبعد كل السنين ما نسيتُ فرحتها يومَ فتحت الباب فرأتني مقبلًا من ساعة الدّرس، ألوّح بغترتك: «سليمان ختَم.. وهذي غُترته».. قُم يا ولد فإن ما تفعله في أمك حرام.

قطعَ سليمان صمت المجلس:

«لا أريدُ رؤية فضة ولا أمي، ولو كنت أقدر على فراق السّيف لتركتُ الدّيرة وذهبتُ إلى الزُّبير، البحرين، أو حتى الهند أو زنجبار».

تذكّر سعدونُ لا جدوى أسفاره الكثيرة. والتفتَ إلى خَليفُوْه يُبادله النّظر. فتنحنحَ خَليفُوْهْ قبل أن يتدخّل:

«يا ولدا! لك في الدّيرة ولدا!».

«والله ما حلمتُ أن يكون لي ولدٌ إلا من رحم فضة.. أما وفضة ما عادت زوجتي.. هذا الولد لا يعنيني..».

تخضّلت عينا سليمان واختلج مِنخراهُ وارتعشت شفته السّفلى. فأردفَ دونما التفاتٍ صوبَ رفيقَيه:

«..لا أريد رؤيته.. لكني أريد أن أعرف كيف تكون حياته».

التفت سعدون إلى خَليفُوْهْ:

«ها أنتَ تشهد ولادة شقيٍّ جديد.. حرام عليكم والله أن يصير بألطف الخلق وأضعفهم ما يصير.. ما ذنبهم بالله عليكم؟! قبل أيام سمعنا أن حمدية ألقت برضيع فردوس في السّكّة، وبالأمس مات ابن أبي محمد السمّاك بنطحةِ تيس أبي ثركي، هذا غير خبر النار التي شبّت قرب حي البلوش فاحترق فيها رضيعان.. واليوم هذا الخِبل يريد أن يتخلّى عن ولده.. فهمت يا جحش؟ فهمت أننا ننجب المساكين؟!».

لم يُحر أبو القطاوة جوابًا وهو الذي يفهم. وما أخبرهما بحقيقةِ الرّضيعين اللذين التهمتهما النّار في بيت أُم البنات. رفع سليمان عينيه عن الأرض يُنقّلهما بين صاحبيه:

«أريدُه أن يفهم الآن لماذا تركته».

ضربَ خَليفُوْه كفًا بكف وهو يهزُّ رأسه:

«الآن؟ تريد لابنك الرضيع أن يفهم الآن؟! هل فقدت عقلك سليمان؟!..».

لم يُجب الفتى، وصبّت دموعه سخِيّة على وجنتيه. فاستطردَ خَليفُوْه:

«..تريدُ البقاء في الدّيرة قُربَ السّيف ولا تريدُ رؤية أمك ولا أم ولدك.. كيف يصيرُ هذا؟!..».

أردف صاحبُ القِطّط إزاء صمتِ سليمان:

«..الصاجّة بعلمها وكراماتها لن تحقّق مطالبك!».

ضحك سعدون محنيّ الظهر ينوءُ بثقلِ رأسِه:

«مطالب الإخوان من الشّيخ سالم أهوَن!..».

رفعَ رأسه متثاقلًا ينظرُ إلى سليمان. ضمّ أصابع كفّه كما لو أنه يُمسك بتمرة:

«..الدّيرة، بسورِها من البحرِ إلى البحر، بهذا الحجم! كيف تتحاشى رؤية أهلك يا أثوَل؟!..».

أناخَ الصّمتُ ركائبه في المجلس. وبدا على وجه سعدون حزنٌ يُناوشه غضبٌ لحالِ صاحبه الذي غطسَ في صمتِه ثَبّةً طويلة. وخازره بعينين حمراوين مشفِقَتين حانقتين. *أنت ضعيف. يسوقك خوفك من كلام الناس سَوق الغنم. لا يوجد أحدٌ لا يتكلّم عنه أحد. في هذه الديرة كلٌّ يعرف الكل، وكلٌّ يتكلّم عن الكل. أنت رَخوٌ رَدِيّ.*

وهل يترك من له بيت بيته خوفَ كلام الناس؟! لو كنت في محلّك لدخلت حجرة زوجتي الآن أضاجعها حتى مطلع الفجر، وأحضنُ في الصّباح صغيري وألاعبه. أتفلُ في وجه الصاجّة الخبيثة. أدوسُ رأسها. وأجرُّها من عباءتها المغبرة وأقذفُ بها في السّكة مثلَ كلبةٍ عجوز، إي والله، وأرفس عجيزتها البرصاء عند عتبة الدّار، وأجعلها تُسابق ظلّها الذي ينكرون وجوده. عجائز النّار كيف تصدّقونهنّ؟! لعنة الله على من لا يُشغّل دماغه. شمطاواتٍ لا يظهرنَ إلا إذا ما تعامدت الشّمس فمن أين يجيء الظل؟! عجائز النّار إذا ما خرجن وقت استطالة الظلال اضطرارًا، يمشين لِصقَ جدران البيوت يُخفين الظِلَّ بالظل! نساءٌ لهنّ حوافر حمار؟! يا بهائم يا حمير يا أبناء الحمير! شطّ خياله الثملُ بعيدًا، يقتفي أثَرَ الصاجّات في السّكك القديمة على دأبه أيام صِباه، إلى أن نبّهه صمتُ صاحبيه في المجلس. فالتفتَ إلى سليمان:

«..أنت تحتاج إلى راحة.. تحتاج أن تنسى».

أفلت سليمان ضحكةً من منخريه من دون أن يلتفتَ إلى سعدون:

«أنسى؟».

أجابه صاحبُ الحَوْطةِ يُشير إلى آخرِ زجاجةِ عَرَقٍ أحضرها بِن شاؤول:

«المنكر في هذه الزُّجاجة..».

ثمّ أشارَ إلى زاوية الحُجرة:

«..وحصيرة الصلاة هُناك».

استغفرَ سليمان، ثُمّ زفر:

«وهل أنسى أني، على ما يقول الناس، أنجبث من أختي؟ والله الموت أهون».

«كلنا نريد أن نموت».

أجابه سعدون فسارع خَليفُؤه:

«كل واحد يتكلّم عن نفسه! أنا أريد أن أعيش العمر كله».

«وأنا لا أريد».

قال سليمان بوجهٍ خالٍ من التعبير. ورمقه سعدون كأنما ينتظر سماع المزيد. وما زاد سليمان، فأنعمَ سعدون النّظر إلى صاحِبه في صمت. *أتحسبُ الموت سهلًا يا بن سهيل؟ عليك أن تكون رجلًا كي تُقبل عليه.. وأنت طفل.. ووالله لو أقدمتَ على ما جبنتُ على فعله! مهزلة! أما كفتك الختمة التي أنجزتّها وأعجزتني؟ ثُمّ لماذا تقدم على الموت وأنت حُرٌ بلا أب؟ لماذا تموت يا أب ولديك ولد؟ أم أن في موتك رحمة لوليدك؟*

«والله يا سليمان لو كنت في مكانك.. لو كنتُ أنا أنت.. بدلًا من التسليم واليأس لعدت إلى بيتي وزوجتي وولدي وملعون أبو الناس وكلام الناس».

أفلتَ سعدونٌ كلماته فردّ سليمان على الفور من دون أن ينظر إليه:

«لستَ في مكاني.. ولستُ أنا أنت».

تأفّف خَليفُؤه، ثُمّ قال يُشاكس سعدونًا على دأبه كأنما يستعجل

طرده من الخوْطة:

«وأنت! أتلومه على يأسه؟! منذ عرفناك وأنت يائس من الدّيرة يائس من الناس يائس من الدنيا وتنوي أن تموت.. يا أخي متى تموت؟».

«فليسبقني إلى الموت واحدٌ منكم وأنا أتبعه في الحال.. لكن ليس فيكم رجلٌ يفعلها.. يلعن أبوكم».

التفت خَليفُوْه إلى سليمان ينبّهه من غيابه في هواجسه ويُشاكس صاحب الخوْطة:

«والله منذ عرفته وهو يائس من كل شيء ولا يتحدّث إلا عن نيته في الموت ولا يموت! قطيعة!».

يُعاود الالتفاتَ إلى سعدون:

«خلّصنا يا أخي متى تموت؟!».

رفعَ سعدون كفّه شاهرًا سبّابته ووُسطاه:

«قابَ يأسين أو أدنى».

فانتفضَ خَليفُوْه:

«لا تتلو من القرآن وأنت سكران!».

«أولًا سعدون لا يسكر.. ثانيًا هذا ليس من القرآن العظيم يا جاهل يا مُخاط النعجة».

فطن أبو القُطاوَة إلى خروج سعدون عن جادة عقله، فأن تُدرك الأموزُ مخاطَ النّعاج؛ يعني أن صاحب الخوْطة قد استنفد معجم

شتائمه وانطفأت فيه جمرة الوعي. فمدّ إليه خَليفُوْة آنية الماء الفخّارية يلكزُ بها رُكبته:

«سعدون.. إِشرب ماء.. لقد أكثرت!».

«سعدون لا يسكر!».

صرخَ عليه صاحبُ الحَوطة ونترَ آنية الماء بظاهر كفِّه. ثُمّ استقامَ على رُكبتيه ومالَ إلى الجدار يستندُ بكتفِه. نهضَ يناوِرُ الشُكرَ ويهادنه مُحاذرًا في مَشيِه، مُحافظًا على ثمالة وقارِه. فابتسم وادع الملامح:

«تصبّحون على خير يا الرّبع».

مشى على الحصير بخطواتٍ ثقيلةٍ يُحاذر خيانات العَرَق الارتدادية. أسندَ كفًّا إلى الجدار، ورفع بالأخرى حاشية دِشداشَتِه. يُطأطئ مُراقبًا خطوَهُ كأنما يمشي على حبل غسيل. صاح به خَليفُوْة هازئًا:

«إلى أين؟ الليل في أوّله!».

ولمّا بلغ سعدون عتبة باب مخدعِه أدار رأسه لـ خليفُوْة، وابتسمَ بعينين نصف مغمضتين وهو ينقرُ رأسه بسبّابته:

«شَغّل دماغك يا بهيمة! قلت لك إن لديّ حلمًا عليّ أن أُتممه.. وهل أحلمُ بلا نوم؟!».

انفرجت شفتاه عن ضحكةٍ فابتلعها يتثاءب:

«تصبّحون على خير».

فاختفى في ظلام الحُجرة مفتوحة الباب. والتفتَ سليمان إلى خَليفُوْه الذي استدار يُمسِّد على ظهر القطتين المتواريتين خلف ظهره:

«خَليفُوْه.. ماذا تقول النِّساء في دار كبيرة الصاجّات؟».

«ما عادت أم حدَب كبيرتهن. غادرت بيتها الطيور، وسلّمَت الأمانة لأم صَنقُور».

«لا أدري ماذا تقول وتُخربط.. لكن لعنة الله على الاثنتين!».

ضمّ خَليفُوْه أشهَبَ وإلينور في حِجره، فقال:

«سألتك بالله لماذا أنت مهتم بكلام الناس إلى هذا الحد؟ ما المخيف في كلام الناس، حتى لو رجعت إلى زوجتك وكذّبت حكاية الرضاع.. فليتكلم الناس حتى يشبعوا.. وبعدين؟ ما هذا الصيت الذي تخاف عليه؟ ها؟ ما أطعمَ أباك صيتُه ولا كساه، ولا فادك طِيب الصيت مِن بعده يا حافي يا منتّف».

ما فاه بن سهيل بكلمة، هو مخطئ بتخلّيه لا شك، لكن سيِّئ الصِّيت خَليفُوْه لن يفهم أبدًا طِيب الصِّيت، لأن سليمان نفسه، ومن قبل خَليفُوْه، لا يفهم عبادة أسلافِه وهَوَسهم بحُسن الصِّيت بين جماعتهم وبين الآخرين. هو يفعلُ ما ورثه سَمعًا مثلَ دَينٍ، مثلَ دِين. أن يودع اسمه في ألسِنة النّاس نظيفًا، كأنما لا يدخل الجنّة لو أمسك عليه النّاس نقيصة. أن يُفاخر بفقرِه ما دام لم يمُدّ يده إلى مالٍ حرام، لا يتزلّف أو يتذلّل أو يخوض في أعراض النّاس أو يُطأطئ لآدمي، ولا يبيع كرامته لتحقيق منفعة شخصية. يَطعَمُ الأرُزّ المسلوقَ ومرقَ الهواءِ والتّمرة واللّبن، فيحمِدُ الله حمدَ مَن التهمَ

أطايب القصر مِن اللُّحوم ومُجفَّف الفواكه. علّمته شايعة منذ تشكّلت ذاكرته الأولى ما علّمه تاليًا شيخُ البحّارة بِن هولين، أن يكون مثل أبيه، يُجالس الكبار حافيًا، أو بنعلَيه المغبرتين نِدًّا لِنِد. يعرفُ النّاس متى دخل اللّحمُ بيت سهيل إذا ما لمحوا نعلَيه لامعتين، وهو الذي لا يستحي أن يقول إنه لمّع جِلدة النّعال بالدّسم العالق في أصابعه من اللّحم الشّحيم، وما انتقصَ فقره من كرامتِه شعرة. تعدّدت عند النّاس مناقبه؛ سهيل طيّب الصّيت، حمامة المسجد، ابن الحلال، ابن الأجاويد، مكرم الجار، لا يرتفع صوت امرأةٍ في بيته، لا يطلب من أحدٍ ولا يعتب على أحد، مدفونة سُرّته في مسجد، النشمي الكريم الفحل. ألقابٌ لو بُدِّلَت بها رُوبِيّات لبزَّ سهيلٌ التّاجرَ بِن حامِد في ثرائه، لكنه فقيرٌ لا يملك إلا قليل مالٍ وديونًا متراكمة وطِيب صِيت. غنيٌ في سيرته على ألسِنه النّاس وحسب. تقول أمُّه، في هذه الدّيرةِ يُطبّبُ النّاس جروحَ فقرهم بالمَثَل: الصّيت ولا الغِنَى. وهو مِثل أبيه، رأسُ مالِه صيتٌ موروث وبطنٌ خاو، يُرعبه أن يخدش كلام النّاس صِيته المُقدّس، فيخسر ما لا يملك عَداه، فلا من صيته ولا من غِناه المستحيل. فهل يفهم أبو القُطاوَة كلَّ هذا وهو الوضيع على ألسِنة أهل الدّيرة قاطبة؟

داعب خَليفُوْهْ ذقنَي قِطّتَيه بأصابعه وهو يُفضي:

«عمّتي أم حذَب تقول إن شريفة شهدت خمس رضعاتٍ وأكثر، والمُلّا عبدالمحسن أنكرَ عليهنّ إبطال الزّواج، ونقّضَ شهادة شريفة لأنها كانت صغيرة وقتذاك، وقال إنه لا يجوز التحريم على أمر مبني على الشّك. وكي يفتي في الأمر يحتاج إلى شاهدين أو أربع شاهدات، فحضرت الصاجّات الثّماني بسعفاتهنّ للشّهادة على صدق

ادعاء شريفة. والمُلّا عبدالمحسن اليوم يرفُض النّظر في الأمر ويقول: اسألوا من أهل العلم غيري. ولما سألت النّسوة بضعة من الملالوة لم يحصلن على إجابة قاطعة إلا عند المُلّا إبراهيم..».

تلكأ خَليفُوْه وهو يذكرُ المُلّا. صمتَ قليلًا قبل أن يستطرد:

«..أجابهُنّ كريمُ العين بشأن أُخوّتك بـ فضّة بما قال النّبي عليه الصّلاة والسّلام، لا أتذكّر بالضبط، لكن معناهُ إذا ما شككت بشيء فمن السلامة تركه، وما دام زواجكما مشكوك في أمره..».

ارتفع صوت سعدون في مخدعه يُردّد الحديث النبوّي الشّريف:

«دَع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك».

أومأ خَليفُوْه موافقًا:

«هذا هو!».

ابتسمَ سليمان يُقارع غضبه:

«هكذا إذن! من مُلّا إلى مُلّا، ومن امرأة إلى امرأة.. ومن لَواوين النّساء إلى دواوين الرجال.. الرجل الذي أنجبَ من أُخته من الرّضاع، إن تركها أو عاد إليها، يصيرُ علكًا في أفواه أهل الدّيرة».

«على عادتك أنت تكبّر الأمور.. ما أدراك من قبل أنها أُختك؟!».

أجابه خَليفُوْه فأردف سليمان مُطرقًا:

«ما العمل يا صاحبي؟».

«كُن رجلًا وعُد إلى فضّة وولدك بلا دلع أطفال قطيعة تقطع الأطفال!».

ناكفَ خَليفُوْه مُحدِّثه غير أن الأخير لم يُستفز.

«أكون رجلًا؟ انظروا من يكلمني عن المراجل!».

تأفّف أبو القطاوة يُخزِّر عينيه وهو يُطيل النّظر إلى سليمان:

«لو أنك تصدق الصاجّات..».

«ما شهد على صِحّةِ الرّضاع إلا هُنّ لعنة الله عليهنّ وعلى من والاهُن.. أصَدِّقُهن في ماذا؟ والله لا أصدقهنّ إلا لو فيهنّ من تحقّق مطالبي».

كأنما هي لحظة مُرتقبة طالَ انتظارها. أسرع خَليفُوْه يقتنص رغبة سليمان فقال:

«صاجّة الجزيرة.. أُم صَنْقُور».

«ألا تكفّ عن ذكرهنّ لعنهنّ الله!».

«فليلعنهُنّ بعدما تحقّق مُرادك».

ارتفعَ شخيرُ سعدون في مخدعِه، فالتفتَ الاثنان ينظران ناحية تواتر الشّخير. استغربَ سليمان:

«ألن تسهروا الليلة؟ لِمَ نامَ سعدون مبكّرًا؟!».

أجابه خَليفُوْه بنصف ابتسامة وهو يدقُّ رأسه بسبّابتِه:

«كي يُطفئ هذا».

***

(28)

العَنكريز

«ما لم يقُله كاتبُ الأسفار للصاجّة»

«..ولقد حذَّرتُ الشّيخ سالم من خطورة الموقف.. في الحقيقة هو لم يطلب مُساعدتنا، ولكن..».

قالَ المعتمد الإنكليزي لضيوفِه الثّلاثة على مائدة العشاء؛ كبير أطباء الإرسالية الأمريكية الدكتور ستانلي ميلْريا، والدكتورة إلينور، وزوجها القِس إدوين كالڤِرلي.

فأمسك الميجور عن تتمّةِ حديثه عندما دخل خادم دار الاعتماد الجديد. والتفتت إلينور إلى الخادم شاهق الطُّول نحيل القامة مثلَ عود الخيزران، داكن البشرةِ يرتدي دِشداشةً بيضاء مكويةً نظيفة. استغربت الطبيبة وجوده، وقد اعتادت رؤية خادم المعتمدية الهندي كانديد في زياراتها القليلة السابقة. أوقدَ الخادم شموع طاولة الطعام وغادر في صمت.

يحرص المعتمد البريطاني على وصل أعضاء الإرسالية الأمريكية، مُنذ انتقالِه إلى الكويت بُعيد معركة حمَض قبل بضعة شهور. وكان يتردّد بين حين وآخر على زيارتهم في مَشفى الإرسالية ومرافقتهم في رحلات بحريةٍ وصحراوية، غير أن هذه هي المرّة الأولى التي يزورُ فيها أعضاء الإرسالية دار الاعتماد في فترة خدمة الميجور مور.

اشتعلت الإنارة كسولةً في ركن الطّعام المفتوح على حُجرة الجلوس ڤيكتورية الطراز. والنّوافذ الزّرقاء الصّغيرةِ مُشرعة الدّفّات تستقبل تيارًا يهبُّ بأنفاس البحر وهدير أمواجه في هدأة الليل. تحملُ النّسمات الرّطبة ترانيم شيوخ البحر الأزلية، وتنثرها في المكان الذي لا يشبه الدّيرة.

عاود الميجور مور حديثه لضيوفِه فور انصرافِ عطا الله. وقال يُتِمُّ جملة تركها مفتوحة قبل ثوانٍ:

«..لكن الشّيخ سالم حتمًا سوف يفعل».

أقبل خادم الإرسالية القديم، بلباسه الأبيض الأنيق مُنشّى الياقة. يحملُ زجاجة خضراء غريبة الشّكل كروية لها عنقٌ مطبقٌ بسدّادة فضيّة. ابتسم المضيفُ لضيوفه مازحًا:

«ذو الدّشداشةِ لا يلمس النّبيذ».

واصل الميجور مور حديثه، بحضور الخادم الهندي كانديد، حول هجومٍ كبير محتمل لإخوان من طاع الله على الكويت، وأبدى عدم ارتياحه من عزوف الأمير الحاكم عن طلب النّجدة من دار الاعتماد، رغم المعاهدةِ الأنجلو-كويتية التي وقّعها أبوه مع ممثل حكومة صاحب الجلالة قبل ما يربو على العشرين عامًا. وراحَ الخادمُ الهنديُّ يدورُ بزجاجتِه على الكؤوس حولَ الطاولة المتألقة بألوان الحرير الدمشقي والفضّة والكريستال. ولمّا صبّ في كأس مُشرف الإرسالية خالسَ الأخيرُ نظرةً إلى نقشِ طائر الإيمو الأسترالي على الزّجاجة، وقرأ العلامة التجارية وسنة الصّنع 1910. واستغرب الدكتور ميلْريا بذخ المعتمد بفتح زجاجةٍ عتّقها الغمر عشر سنوات. وعدّها دلالة

على أهمية الاجتماع. اعتدل في جلسته، ومسّدَ شاربه المتهدّل بظهر سبّابته إلى حين انصراف الخادِم، فسأل:

«هل يخرج الشّيخ سالم لقتال الإخوان؟».

«لا نشكّ في ذلك، فإن قوّاتهم تعسكر ليس بعيدًا عن الجهراء».

أجابه الميجور مور وهو يقطعُ شريحة لحمٍ دامية بالشّوكة والسّكين. فقالت إلينور:

«قيل إنهم يطلبون من الشّيخ سالم منع التّبغ والخمر والقِمار وبيوت الليل».

هزّ الميجور مور رأسه مؤكدًا، وأضاف:

«هذا صحيح.. ولديهم مطالب أخرى. في الحقيقة الشّيخ سالم لا يقرّ بهذه الأمور، بحسب ما قاله لي في مجلسه قبل أسبوعين، وهذا ما نراه على أرض الواقع. هو يمنع ممارستها علنًا، قال إنه لا يستطيع منع النّاس أن يفعلوا ما يحلو لهم داخل بيوتهم. كما أنه لا يستطيع تحمل مسؤولية الأجانب الخاضعين لسلطتنا.. اليهود والعمال الفارسيين، والهنود العاملين في الوكالة البريطانية.. فيهم الكثير من العُزّاب ولا نستطيع بحالٍ من الأحوال التضييق على حرياتهم الشخصية في الأماكن التي يرتادونها».

وعلى سبيل تلطيف الحوار، طلبَ الميجور مور من ضيوفِه تأجيل تلك الأحاديث إلى ما بعد تناول الطعام والتمتّع بالنّبيذ الأسترالي المعتّق. تبادل الضيوف النظر فيما بينهم يستشعرون أهمية الدعوة التي سوف تتضح أسبابها بعد العشاء حتمًا. والتفتَ المعتمد

البريطاني إلى الدكتورة إلينور:

«سيِّدة كالفِرلي.. بلغني أنكِ تداومين على تدوين يومياتك على الآلة الكاتبة».

مَسَحت إلينور شفتيها الدّقيقتين بمنديل قبل أن تُجيبَ باسِمة:

«منذ وصولنا إلى الكويت وإلى أن نغادرها».

انبرى الدكتور ميلْريا يتحدّث عن الآلة الكاتبة التي تقتنيها إلينور، ماركة Underwood الفئة الخامسة، تبدو جديدة كأنما لم يمضِ على صنعها عقدان، قال ميلْريا ثمّ أردف وهو يُعيد تعبيت منديلَ الطّعام في ياقَةِ قميصِه:

«السّيدة كالفِرلي حريصة على تدوين يوميّاتِها، مادّةً لكتابٍ تنوي إصداره بعد إتمام مهمّتها في الكويت».

«هذا مُثيرٌ للاهتمام حقًّا..».

أجابَ المعتمد البريطاني باسمًا رافعًا حاجبيه، ثُمّ أردف:

«..لا أستطيع الانتظار لقراءة الكتاب!».

احمرّت وجنتا إلينور لاهتمام الميجور الإنكليزي. قالت وهي ترمقُ الدكتور ميلْريا عاتبةً:

«السيّد ميلْريا على عادتِه يُبالغ».

بدا زوج إلينور، القِس إدوين، ساهمًا في طبَقِه يأكل على مهل. وهو مثل زوجته لم يقرب كأس النبيذ. يعرفه الجميع بهدوئه وقليلِ كلامِه إلا فيما يخصّ التبشير. عاجَلَ الدكتور ميلْريا يقول بصوتٍ عال:

«أقترح أن يكون عنوان الكتاب؛ خاتون حليمة!».

ثمّ انبرى يشرح للمعتمد البريطاني الجديد:

«هكذا يُناديها الكويتيون.. خاتون تعني سيّدة بالتّركية، وحليمة اسمٌ عربي».

ضحكَ الميجور هازًّا رأسه إزاء ما يعرفُ سلفًا:

«لا يبدو من المناسب أن يحمل كتاب أوّل طبيبة في الكويت اسمًا تُركيًا».

رفعَ الدكتور ميلْريا حاجبيه وكأسه:

«أوّل طبيبة في الكويت! انتهت المسألة.. فليكن هو عنوان الكتاب (كنتُ أوّل طبيبة في الكويت)، هذا عنوانٌ مناسب وجذاب!».

ثمّ التفتَ إلى إلينور يُمازحها:

«عنوانٌ اختاره ستانلي ميلْريا ، بإيحاءٍ من الميجور مور ممثل حكومة صاحب الجلالة في الكويت.. اذكري هذا في صفحة الشكر، الصّفحة الأولى من كتابك سيّدة كالقِرلي!».

«لا يعرف القراء ما هي الكويت وأين تكون.. لذا، وبمشيئة الرّب، سوف يكون عنوان الكتاب؛ My Arabian Days and Nights».

ضحكت إلينور بعد مناكفتها الدكتور ميلْريا. ورفعَ الميجور مور كأس النبيذ عاليًا:

«نخب أوّل طبيبة في الكويت».

تبادلَ الأربعة الأنخاب، وأعادت الطبيبة وزوجها كأسيهما إلى

الطاولة، ثمّ انطلقَ صريرُ السّكاكين والشّوك عندما أدار الخادم الهندي أسطوانة الغرامافون. أزّت إبرةُ الآلةِ فانسابت التّغاريد من فُوّهة البوق النّحاسي، ثمّ تبعتها أنغام مقطوعة كيتيلبي؛ «In a Monastery Garden». وتناولوا طعامهم على صوت الموسيقى الهادئة. يتبادلون نتفَ أخبار السياسة العالمية، بين مطالبات سعد زغلول باعتراف الإنكليز باستقلال مصر، وتداعيات تمرُّد العراقيين الذي انطلق من جامع الحيدر خانة ضد الإنكليز قبل أربعة شهور، وتطورات المناهضين لحكومة صاحب الجلالة في الهند بعد إعلان غاندي حركة عدم التعاون.

التفتَ الميجور مور إلى القِس إدوين كالقِرلي ينأى عن أحاديث السياسة:

«كيف تقضي الوقتَ هذه الأيام سيد كالقِرلي؟».

أجابَ القِسّ من دون أن يرفعَ عينيه عن طبق طعامِه:

«أقضي مُعظم الوقت في ترجمة مؤلفات الغزالي وشرحها بالإنكليزية، وأشغل نفسي هذه الأيام أيضًا بإعداد كتاب مقدمة للدين الإسلامي».

التفتَ الميجور إلى إلينور يمازحها مشاكسًا زوجها:

«يبدو أن السيد كالقِرلي يريد أن يعتنق الإسلام».

ضحكت إلينور وأجابته باسمة وهي تنظر إلى زوجها كأنما تستأذنه في الإجابة:

«علينا أن نفهم الإسلام من أجل حواراتنا مع الأهالي.. يساعدنا

الأمر كثيرًا كما تعلم.. خصوصًا في الرد على أسئلة التلاميذ في مدرسة إدوين».

تلقّفَ الميجور مور ذِكرَ المدرسة وسارع يسأل القِس:

«وكيف تسير الأمور في مدرسة الإرسالية؟».

رفعَ القِسّ عينيه عن طبق طعامِه ينظرُ إلى مُحدِّثِه:

«ما زال الإقبال على دروس الإنكليزية أقل من الطموح رغم أنها السّنة الثالثة للمدرسة. ليس الأمر سهلًا، خصوصًا بعدما أصدر المُلّا إبراهيم ومؤيدوه فتوى تحريم الانتساب إلى مدرسة الإرسالية».

افتعلَ الميجور مور اهتمامًا بصاحب الاسم:

«المُلّا إبراهيم؟».

تدخّل الدكتور ميلْريا:

«المُلّا ذو اللحية الحمراء، الذي يلفُّ رأسه برباط أبيض بدلًا من العِقال الأسود. مُلّا كبيرٌ في السّن يتزعّم المتزمتين، لا يكفُّ عن مهاجمتنا».

هزّ الميجور رأسه. ثُمّ نظر إلى القِس كالقِرلي الذي استأنف حديثه:

«يتعرّض أهالي التلاميذ لضغوط كبيرة من رجال الدّين لإخراج أبنائهم من المدرسة. وحدهُم الشّيوخ والتجّار وبعض اليهود يحرصون على تعليم أبنائهم اللغة، فأبناء اليهود يُقبلون على الإنكليزية فضولًا لقراءة الكتب التبشيرية وأسفار العهد الجديد، ويتعلّمها أبناء الشّيوخ والتجّار لأسبابٍ سياسية واقتصادية لا تخفى

عليكم».

لمعت عينا الميجور مور وهو يرفع كأسه إلى فمه:

«لا أسأل عن دروس الإنكليزية سيِّد كالِفِرلي؛ إنما عن المهتدين».

تشاغلَ إدوين بطَبقِ طعامِه:

«لا مُهتدون..».

فتدارك:

«..إلا مبروكة الممرضة».

برطمَ الدكتور ميلْريا قبل أن يتدخَّل:

«لكَ خمسة شهور في هذه البلدة ميجور مور، الأمر أصعب مما تظن. من يهتدي من المسلمين يُعرِّض نفسه للقتل».

تدخَّلَت إلينور باسمة:

«وأين تجدُ وقتًا لهداية أناسٍ يُصَلُّون خمس مرّاتٍ في اليوم؟ أفكر في هذا كل يومٍ منذ وصولي إلى البحرين، فالبصرة والعمارة، ثُمّ إلى هُنا قبل ثماني سنوات.. خمس صلوات في اليوم هل تتخيّل! أعترف أن الأمر يثيرُ إعجابي ميجور مورا».

ظلّ الخادم الهندي يتردّد في الجوار كُلّ ثلاث دقائق، يقلبُ أسطوانة الموسيقى على وجهها الآخر كُلّما صمتت وأزّت إبرة الغرامافون، فتنطلق التّغاريد المصاحبة للموسيقى مرة أخرى. وسأل الدكتور ميلْريا الميجور كيف يرى الكويت بعد إقامة خمسة شهور.

«أراها مختلفة، آمنة ومتنوعة..».

«متنوعة؟».

سألته إلينور، فأوضح الميجور:

«أعني أنها قِبلة للأهالي من المناطق المجاورة، خصوصًا في جانبها الشّرقي. تبدو لي البلدة في حدود السور خليط من أهل نجد والأحساء والزبير وعرب السواحل والفُرس والبدو، وفيها من الأفارقة والبلوش، وبعض العائلات اليهودية النازحة من البصرة وبلاد فارس و..».

صمتَ الميجور وضيّق حاجبيه يُفكّر قبل أن يستطرد:

«..ونلاحظ منذ فترة، أفرادًا من الأرمن يفدون إلى البلدة.. يعمل بعضهم لديكم في مَشفى الإرسالية إن لم أكن مخطئًا..».

أومأت إلينور برأسها موافقة وهي تبتسم:

«صحيح.. لكنه عاملٌ أرمنيٌ واحد.. واضح أن لا شيء يخفى على الوكالة البريطانية».

أردف المضيف يبتسم دونما اكتراث لملاحظة الطّبيبة:

«..ويبدو أن البلدة ملتقى آمن للحُجّاج من مُسلمي الهند وشرق آسيا قبل توجُّههم إلى مكّة.. ولا يخلو ميناؤها وأسواقها من عبور هنودٍ وفُرس.. أستطيع القول إنها بذرة مجتمع كوزموبوليتاني في مساحة صغيرة في حدود السور».

تحمّس الدكتور ميلريا للحديث ومال بجذعه إلى الأمام يُحدّث مضيفه:

«كنت قد اقترحت فكرة بناء السور هذه على الشّيخ مبارك حينما كان يحكم الإمارة، رفض الفكرة قاطعًا رغم أن أسلافه بنوا أكثر من سور حول البلدة من قبل. كان صارمًا في ردّه على اقتراحي مختصِرًا بكلمتين: أنا سورها».

شاركت إلينور في الحديث تمازح مُشرف الإرسالية تستبق ما يريد قوله:

«وجاء ابنه من بعده وأمر ببناء السور. تبدو اقتراحاتك موفقة وسابقة لزمنها دكتور ميلْريا.. ويبدو أني سوف أقتنع باقتراحك عنوان الكتاب الذي أعمل عليه».

لم يبتسم الميجور للمزحة، بل لم ينتبه لها، متوقّفًا عند عبارة الدكتور ميلْريا التي نقلها عن الشّيخ مبارك: «أنا سورها». فجسّ المضيفُ رأيَ مُشرف الإرسالية والطّبيبة:

«في مقارنتكما بين الأب وابنه، أتقصدان أن الإمارة صارت أضعف؟».

«قُل إن خصومها صاروا أقوى، وإن حلفاء الأب صاروا أعداء الابن».

أجابه الدكتور ميلْريا، فأقبل كانديد على حُجرة الطّعام يتبعه عطا الله. فصمت الميجور عمّا أوشك أن يفوه به، ورفع الخادمان أطباق الطّعام والسّكاكين والشّوَك عن المائدة. فمالت إلينور تدسّ كفّها في حقيبة يدها المعلّقةِ على ظهر مقعدِها. ومدّت يدها إلى المعتمد بزجاجة الدّواء الإنكليزي:

«هل للوكالة البريطانية يد في دخول هذا الدواء إلى البلدة ميجور مور؟».

تناول المعتمدُ الزُّجاجة من يدها وقلّبها بين يديه:

«دواء أطفال؟!».

تدفّق الدّمُ في وجه إلينور وتورّدَ خدّاها، فابتسمت تداري حرجها:

«الشركة المصنّعة إنكليزية، فقلتُ ربما..».

«أسطول البلدة يمرُّ بالهند سيِّدة كالقِرلي، ربما جاؤوا به مثل أي سلعة إنكليزية تُشترى من هناك..».

تبادل الدكتور ميلْريا وإلينور نظرة خاطفة. فأعادت إلينور الزُّجاجة إلى حقيبتها، ونهضَ الأربعة إلى الأرائك في حُجرة الجلوس ذات التُّحف اللّندنية والهندية والإفريقية. جلس الدكتور ميلْريا حاملًا كأسه إلى جوار الطاولة ذات رقعة الشطرنج ومجسم الكرة الأرضية. وجلس القِس إدوين على الأريكة الطويلة سماوية الزُّرقة، وتوقفت إلينور أمام رفوف الكتب، فانحنت تتفحّص ظهرَ تمثال الملاك الرُّخامي المُسَرْوَل. وقبل أن تسألَ عن غرابة التّمثال الصّغير المستدير إلى الجدار سارعها الميجور ضاحكًا:

«الخادمُ ذو الدِشداشَة لا ينفك يُدير وجه هذا التمثال إلى الجدار، شرطًا لاستمرار عمله هُنا.. وسروال الملاك هذا من صنعه أيضًا».

بدا الاهتمامُ على وجه إلينور ولم تزد كلمة. ثُمّ جلست إلى جوار زوجها على الأريكة سماوية القطيفة. ووضع الدكتور ميلْريا كأس النّبيذ على الطاولة إلى جواره، ثُمّ أسندَ كفّه إلى مجسم الكُرة

الأرضية، كما لو أنه يداعب رأس كلبٍ أليف:

«كان لدي واحدة مثلها في مكتب العيادة قبل عامين».

ضحِكَ القِس إدوين بخلاف المعتاد. فحملَ الدكتور ميلْريا المجسّم بين يديه واستطرد:

«..يا إلهي! أخرجتها من المكتب تلافيًا لمضايقات المُلّا إبراهيم ذي العين الواحدة. هو ذاك المُلّا الذي حدثك عنه السّيد كالقِرلي قبل قليل..».

سكتَ ستانلي ووضع كفّه على جبينه قبل أن يستأنف مُعتكر الوجه:

«..مُلّا صعب يا ميجور مور، يعادي الجميع، حتى أن قِطَط الشوارع تُطارده وتنشبُ مخالبها في ثيابه بسبب تعامله الفَظ مع النّاس! هذه ليست مُزحة أو خرافة يرددها الناس! رأيت ذلك بنفسي أقسمُ بالرّب. تصوّر أنه كلّما مرّ في السّكّة الجانبية للمَشفى يتوقّف عند نافذة مكتبي، يطلُّ مادًا رقبته النحيلة، ويفتح عينه الوحيدة على اتساعها، فيُشير إلى مجسّم الكرة الأرضية على سطح المكتب ويصيخ بي؛ حرااام».

تمالك إدوين ضحكه لإتقان ميلْريا تقليد كريم العين، فتدخّل:

«الغريب أني قرأت في كتب كبار شيوخ الدين المسلمين إقرارًا بكروية الأرض».

رفع الميجور حاجبيه باهتمام. ومطّ الدكتور ميلْريا شفتيه قبل أن يقول للقِس: ليس ما تقرأ مثلما ترى. فارتشفَ من كأسه قبل

أن يعيدها إلى الطاولة الصّغيرة ثانية، ويستأنف حديثه عن المُلّا إبراهيم:

«..نفدَ صبري ذاتَ يومٍ وهدّدته أن أشكوه عند الشّيخ الكبير. لم أرَه ثانيةً، ولكنه صار يؤلّب النّاس والأولاد ضدّنا، ويصيح كلمّا مرّ من أمام نافذة مكتبي: إنها نهاية الزّمان».

ثُمّ أشارَ نحو الغرامافون على الطاولة الصّغيرة مُستطردًا:

«..وهذا الذي يُسمونه بشتَخُتة.. صدقني لو علِمَ المُلّا إبراهيم بوجوده لديك لداوَم على المرور أمام نافذتك يصيح: البشتَخُتة حراااام!».

«المُلّا إبراهيم لا يُفتي من رأسِه! والغناوي حرام، وغير صحيح أن الأرض مدوّرة!».

انقطع ضحك المضيفِ والضّيوف، والتفتَ الأربعة ناحية القائل عند طاولة الطّعام القريبة. وكان عطا الله بدِشداشتِه البّيضاء ينظرُ شزرًا إلى الدكتور ميلْريا الذي بدا عليه الارتباك. وقد غضبَ الخادمُ لسماع اسم المُلّا إبراهيم، يتردّدُ مقرونًا بضحك الطبيب الذي يحملُ مُجسّم الكرة الأرضية ويتحدث عن البشتَخُتة. فارتفعَ صوت الميجور مور حازِمًا:

«..عَطا الله! غير مسموح لكَ أن تتلصّص على أحاديثنا! هذا تصرف غير لائق!».

انصرفَ الخادمُ مكفهرًا، ووقعَ الاسمُ مألوفًا لأذن إلينور، على حين وضعَ الميجور مور كأسه على الطاولة أمامه معتكر المزاج:

«..أعتذر عن ذلك.. كان ينبغي ألا نتحدّث في وجوده».

نظرَ الميجور إلى وجهة انصراف الخادم، فواصلَ حديثه:

«..هو شابٌ لطيفٌ على أي حال. ومنذ مجيئه لم يبدر منه ما يسيء إلا..».

أشار الميجور مور إلى صندوق الغرامافون الخشبي، فاستطرد:

«..سرقته لإحدى حافظات إبر الغرامافون.. لست متأكدًا من ذلك رغم تأكيد كانديد.. ليس هذا مُهمًا، عطا الله شاب نشيط أهدانيه الشّيخ سالم بصفةٍ مؤقتةٍ ليساعدنا، وليتعلّم مني الإنكليزية ومن كانديد الطبخ.. ولا يخفى على أحد دهاء الشّيخ سالم المغلّف بالكرَم وحسن النّية».

حدجته إلينور:

«ميجور مور! لم أكن أتصور أن الوكالة البريطانية تتساهل في أمر العبودية!».

«ينال عَطا الله حريته على الفور لو أنه تقدّم إليّ بشكاية يطلبُ فيها تحريره، إذا أثبت تعرضه لمعاملة سيئة وهو ما لم يحدث. وأنتِ تعلمين قطعًا أن العبيد هنا لا يحلمون بحريتهم، فالحرية بالنسبة إليهم تعني الجوع، والنوم بلا مأوى».

«فنؤيد العبودية!».

«لستِ متحمسة لمحاربة العبودية أكثر منا صدقيني.. حاربناها في إفريقيا منذ سنوات طويلة، وأضعفنا كبار تجارها.. وما زلنا نمنع سُفُن تجارة الرقيق.. ولعلك تعلمين أن منع هذه التجارة واحد من أولوياتنا

لأسباب إنسانية مدنية لا شأن لها بالتبشير.. ثم أهي ساعة مناسبة للحديث عن «رسائل بولِس»؟.. «أيُّها العبيد أطيعوا سادتكم»، ماذا عن مبروكة سيِّدة كالقِرلي؟».

«مبروكة حُرّة وتعمل في المشفى لقاء أجر».

ابتسمَ صاحبُ الدّعوةِ أمام رد طبيبة الإرسالية الصّارم، وأسند ساقًا إلى ساق:

«لنعود إلى حديثنا المؤجل».

أصاخ الضُّيوف الأمريكيون السّمع للمضيف الإنكليزي:

«..جهّزَ الشّيخ سالم ألفَ رجلٍ مُسلّحٍ يسبقونه إلى الجهراء. وسوف يخرج مع قائد العسكر خلالَ بضعة أيام على رأسِ قوةٍ قوامها خمسمئة رجلٍ للتصدّي لزحف الإخوان. وابن أخيه، الشّيخ أحمد، سوف يتولى شؤون المدينة في حدود السّور».

بدا الاضطرابُ على وجوه أعضاء الإرسالية. واستنكر القِسّ وانبرى يستوضح:

«نحن في الشهر القمري الأول في التقويم الإسلامي، والإسلام يُحرم القتال فيه بحسب ما أفهم.. ألا تعتقد أنه من غير الوارد أن جماعة دينية متحفظة مثل الإخوان تُخالف تعاليم الدين؟!».

تابع الميجور الإنكليزي دونما توقُّفٍ عند استدراك القِس الأمريكي:

«..الإمارةُ لن تحتمل هزيمة جديدة بعد هزيمتها من الإخوان في حمَض قبل شهور.. سوف يطلب الشّيخ سالم مُساعدتنا، هذا أمرٌ مفروغٌ منه، ولكني أُفكّر في جهوزية مشفاكُم هذه المرّة».

سارعَت إلينور منفعلة:

«إن كنتَ تُلمّح إلى احتمال ورود جرحى فإن المستشفى لن يستوعبَ أي جريح.. بالكاد تكفي الأسِرّةُ مرضى المدينة والبادية! أتمنى أن يهمك أمر المستشفى والمرضى ميجور مورا».

أجاب الميجور الإنكليزي قولَ ضيفَتِه الأمريكية مُبتسِمًا:

«دعينا نكف الحديث عن الاهتمام سيدة كالقِرلي! نحن مهتمون بأمر المستشفى مثلكم. ولا يفوتكم أن الوكالة البريطانية هي التي سهّلت وصادقت على تخصيص أرض للإرسالية الأمريكية زمن الوكيل السياسي الكولونيل شكسبير. ولا يفوتكم أيضًا أن الشّيخ مبارك، أمير الكويت آنذاك، كان يمنع نزول مراكبكم في مينائه لولا وساطتنا».

غرّدَ عصفورُ ساعةِ الحائط الخشبية. فنهضَ المعتمد إلى الغرامافون أسفل العلم البريطاني المعلّق على الجدار. رفع الإبرة عن الأسطوانة وسكتت مقطوعةُ «في حديقة دَير»، فهبط الصمت ثقيلًا تُقطعه تكّات بندول السّاعة.

«..أمرٌ آخر عليكم عدم نسيانه سيدتي.. الإخوان يطالبون بطردكم من الكويت وهدم مَشفاكُم..».

وابتسم المعتمد البريطاني قبل أن يُنهي جملته:

«..توخّوا الحذر».

مالَ الدكتور ميلْريا بجذعِه إلى الأمام والكأس بين يديه، كادَ أن يقول شيئًا فسبقته إلينور تسأل المضيف:

«يُكفِّرُ الإخوانُ العثمانيين ويُطالبون بهدم المشفى الأميركي لكنهم يصمتون عن وجود الوكيل السياسي البريطاني ميجور مورا».

تنحنح إدوين يحاول عبثًا تنبيه زوجته التي أخذها الانفعال وانفلتت بالحديث في بيت المضيف:

«..يُطالبون بطرد المسيحيين التابعين للإرسالية الأميركية، لكنهم يصمتون عن اليهود من رعايا بريطانيا في الكويت! هل تعتقد أن هذه مطالب الإخوان؟ يُعادون العثمانيين من جهة، ويُقلقهم الوجود الأميركي المتمثل في الإرسالية، ومن جهة أخرى يصمتون عن الوكالة السياسية البريطانية في الكويت! أم تُراهم يخشون انقلاب الشّيخ سالم على البريطانيين والتحالف مع إمارة حائل حليفة العثمانيين؟ لا سيما وأن الشيخ سالم طلب العون من أمير حائل بعد خسارة حَمَض.. وهذا أمر يزعجكم كما أتصور».

تحرّجَ مشرف الإرسالية والقِسّ من انفلات الطّبيبة على هذا النّحو. فأجاب المعتمد يدرأ التّهمة عن مملكتِه العظمى:

«إن كنتِ تلمحين إلى تورط حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا وأيرلندا وإمبراطور الهند الملك جورج الخامس في قائمة المطالب؛..».

رفعت إلينور حاجبيها لتكلُّف الميجور وهو يُسطِّر لقب الملك كأنما يُلقي خُطبة سياسية. وواصل المعتمد حديثه:

«..تأكدي أن أمورًا صغيرة مثل هذه لا تُلقي لها حكومة صاحب الجلالة بالًا.. المعذرة.. لستِ على صواب سيِّدة كالقِرلي. هي مسألة

بين عرب وعرب لا دخل لنا فيها. ثم إن مَيل أمير الكويت إلى العثمانيين دينيًا لن يدفعه إلى حدّ مناصرتهم بعد كسر شوكتهم وخسارة نفوذهم حول المنطقة بعد الحرب العُظمى. وهو أذكى من أن يكسر معاهدة الحماية التي وقّعها أبوه معنا قبل ما يزيد على العَقدين..».

صمتَ المعتمد وافترّ ثغره عن ابتسامةٍ قبل أن يستطرد مازحًا:

«..ثم لا تنسي هدية الشّيخ سالم لجلالة الملك بعد الحرب.. الحصان الذي اسمه كويت.. وهو ما زال في الإسطبلات البريطانية الملكية دكتورة إلينور..».

قاطعته إلينور:

«المعذرة ميجور مور! أهي ساعة مناسبة لإلقاء دروسٍ سياسية؟».

قطعَ الدكتور ميلْريا حديثهما المشحون بالتوتر:

«بصفتك الوكيل السياسي هنا ميجور مور، وبحقِّ معاهدة الحماية بين الإمبراطورية والكويت.. يجب أن تفعلوا شيئًا!».

«لا ريب.. سوفَ نفعل..».

تعلّقت أبصار أعضاء الإرسالية الأمريكية بوجه مضيفهم الإنكليزي الذي أمسك عن الحديث. أرهفوا السّمع وحدّقوا إلى وجه المعتمد الذي انفرجت شفتاه عن خيال ابتسامة:

«..لعلكم تقنعون الشّيخ سالم بأن تلك المشكلة ليست سحابة صيف يُترك أمرها للريح، ولعلّه من الحكمة أن يطلب مساعدتنا.. وعليه أن يكفّ عن أوهامِه بأن مشاكل العرب يحلُّها العرب».

***

(29)

يومُ السَّدِيس الأخير

في مكانٍ، لستُ أدري أين كانْ

في زمانٍ، فرّ من سِفر الزّمان

غنيمة زيد الحرب

مئة حولٍ إلا بضعة أيامٍ يا آخر الزّمان. هذا ما تدريه يا أُم حدَب، وقد سلّمتِ عُهدتك ها هُنا إلى عمودِ صاجّة الجزيرةِ قبل أُثموئين. وهذا ما كشفتْهُ لكِ يا ضليعة السّحر والكِهانة عن عُمرك المديد؛ قرنٌ من الزّمان يا آخر الزّمان، فتموتين شرّ ميتة ما لم تعجلي استباق الرّحيل بيديكِ على ما تشتهين.

تدرين يا حدبائي أن ميلادك جاء في مثل هذا الشّهر، مِن العام الثّامن على تولّي الشّيخ جابر بن عبدالله بن صباح حُكم الإمارة، قبل قرنٍ من الزّمان يا آخر الزّمان. فما كتبتُ ميلادك في ذاك الهلالِ من ذاك الحول إلا لسببٍ يُنهي السّفرَ الثّاني بعد ميثاق مئويتك المتوّجة بالرّحيل، وأنتِ تتوقين لاستعادة جلدك السّليب؛ أشفيكِ من البَرَص لقاء عبور الفتى إلى ثالث الأسفار.

تبدّى بيت أم حدَب، على قِدَم طين جدرانه، جديدًا فارغًا كما لو أنه قد بُني للتو. لا شيء في البيت المُثلّث في حيّ المرقاب يشي بأن صاجّةً عمِرَت فيه دهرًا، وعاثت فيه سِحرًا. طارت طيوزُ اللّوْهَةِ من سور بيتها وارتحلت إلى جزيرة منفاها القديم. وسوّت العجوز الحدباء العوالق من أمورها، مُذ نزعت قلادة الأصداف والأظلاف من

جيدها وسلّمتها لخليفتها أُم صَنقُوُر، وسلّمت عصاها الذّهبية لصبيّها خَليفُوُه. وتجهزّت للرّحيل بعد قرب انقضاء دورها الكبير في ثاني الأسفار. بعدما أرسلت سليمان عَنقُوُزًا إلى بحرٍ غير بحره، وانتزعت سيفًا من غِمد فضّة، وأعطتها عوضًا عن الرّضيع صُرّةَ العظام والرّماد. وقُضي أمرُ الفتاة بعد موتِ بِكرها ساعة وصلتها صُرّة الزُّفات الرّمادية مسحوقة العِظام.

أزالت أم حدَب الطلاسم والتّعويذات من الجدران. ووزّعت معظم ممتلكاتها على «البنيّات»، صاجّات مدينة الطّين، وأخفت أسرارها غدّةً للرّحيل. أم حدَب تدري أنها تموت، وإن لم تكن؛ فالواجب في المئة أن تموت. هي تدري أنها في دورتها الأخيرة من حيواتها المتواترة، ولن تبرأ من البَرَصِ وتتخفّف من حدَبتِها وتُخلّص روحها من السّر الذي يحول دون الانعتاق الأبدي.. إلا في زمنٍ تُروى فيه تفاصيل الحكاية لأحفاد أبناء الطين، فتنعتق روحُ العجوز المُعذّبة، وتتحرّر من وزرها العظيم، وتسافر طيفًا حُرًا في ملكوت مالك الزّمان يا آخر الزّمان.

هبط الصّمتُ ثقيلًا في دار أم حدَب، صمتٌ يشبه الموتَ لولا نداءات ذكور جنادب الليل، تُصرصر منادية إناثها المتدلّلة المتمنّعة. غنّت الذُّكور الشّبقة ذليلة ولا أسكتها جِماعٌ بعد غناء. وارتدت أُم حدَب درّاعةً من درّاعاتها الخمر. وشالت صُرّةً مُزركشة مُرقّعة من زهيدِ قماش الهند. فخرجت العجوزُ من حُجرتها المظلمةِ إلى ظلمة حوش الدّار تحت سماءٍ خاليةٍ إلا من قمرٍ شاحبٍ في تربيعِه الثّاني. وسارت في الحوش منحنية تنوء بحمل حدَبَتِها العظيمة. الحدبة التي ظنّتها قد تورّمَت بفعلِ أوزار حيواتٍ دابرة لا تتذكّرها. ولا تدري

الحدباء أنها تحمل على ظهرها ما حسبته مرهونًا عندي طوال تلك السنين.

دسّت كفّها في فتحة صُرّتها وطشّت قِطَعَ بخور اللُّبان العُماني في المباخر الثّلاث في أركان الحوش المُثلّث، وأخرى في موقد الحطب أمام أحد أعمدة الدّار التّسعة. وتصاعد الدُّخان الأبيض كثيفًا ثقيلًا في الهواء. وأوقدت سراجًا مُعلّقًا بالعمود فتوهّج دُخان اللُّبان بياضًا كبياض البَرَد. فتربّعت على بساط السّعف المجدول أمام الموقد، وأسندت ظهرها إلى العمود تحت السّراج، والعمود المُقابل أغمض فيه رسمُ العين. وشعّ ثوبها الفضفاض قاني الحُمرة مثل دم الغزال. وهي حاسرة الرأس، مفروقة الشّعر المُخضّب بياضُه بحِنّاء اليمن، فمنحته الحِنّاءُ صبغة نارية فريدة.

بدَت مُسرنمة جاحظة العينين تبحلقُ إلى فراغ الحَوش الذي تودّعه بعد أيام. وجهها مسروق اللون بدا في تلك الليلة أكثر شحوبًا. فتحت عُقدة صُرّتها المزركشة وتناولت منها علبة نحاسية بحجم الكف. فتحتها ودسّت سبّابتها بين بذور عين العفريت، بذور لا يستطيع الإتيان بمثلها العطّارون ولا صاحب الدّواخانةِ في ساحة الصّرّافين قُرب الشوق. حبّات يابسة بحجم خرز المسبحة، حمراء لا يُعكّر صَفو حُمرتِها إلا نقطة سوداء. أسرار جيء بها من بعيدٍ ناحية الصّين. عشرات البذور صغيرة تُشبه عيون سراطين البحر المُحمّرة في التّنور. التقطت إحداها وافترّ ثغرها عمّا يُشبه ابتسامة أخيرة. مرّرت الحبّة الحمراء في فراغ نابها بين أسنانها النّضيدة، وأطبقت شفتيها الدّقيقتين، تستطعم البذرة التي تُنهي حياة المرء، إذا ما ابتلعها، في أيامٍ ثلاثة.

هي تعرف أنها تدخل يوم السَّدِيس هذه اللّيلة بلا نجمٍ ولا قلادة، بلا شلطةٍ ولا حظوة، غير أنها كانت لسنين طويلة كبيرة صاجّات مدينة الطين، ولها على كاتب الأسفار دالّة. وكاتب الأسفار وإن أغمضَ نجمَها فإنه يُحبُّ عجوزه الحدباء محبّة عظيمة، لأنها ذراعه الطُّولى والأولى في كتابة أسفار مدينة الطين، ولن يحرمها من أن تنعم في حضرته سويعاتٍ في اليوم الخفي، قبل جُمعة بعد خميس.

أغمضت العجوز عينيها، وراحت تهزُّ جسدها تُهشِّم أقفالَ السَّدِيس غناءً خافتًا:

«السّبت سبَمبوت، والأحد عنكبوت، والاثنين بابين.. والثّلاثا».

صمتَ صريرُ جنادب اللّيل بعدما أتمّت الأهزوجة، ورانَ الشكون في الحوش. فثقلت أنفاس العجوز البرصاء، واستحالت صفيرًا متقطّعًا. فابتلعت الظلمةُ القمر، وانطفأت السّماء كلُّها، ولم يبزغ نجمُ رأس الغول على دأبه وحيدًا يبرقُ حُمرة وزرقة في الفضاء المظلم. وولجت العجوزُ ثامن أيام الأثمون وحيدةً بلا نجمٍ ولا قلادة ولا عصًا ذهبية. فتحت عينيها وقد اتّسعت حدَقتاها بفعل ما التَهمت، حتى ما كاد يُرى فيهما شيءٌ من بياضٍ إلا في حواف العينين تنتشرُ فيه العروق دقيقة حمراء. تهدّلت شفتاها وأزبدَت، واحمرّ جفناها وهبط حاجباها وتقطّبَ جبينها. فانحنت على صُرّتها المفتوحة إلى جوارها ثانية، والتقطت ثلاث قِطع لُبانٍ كبيرة وطشّتها في الموقد. خزّرت عينيها تُبصر التّشكُّلات في غبش الدُّخان، تَشوق إلى رؤية الحقيقة يا آخر الزّمان.

أسبلت جفنيها وفعلت البذرة الحمراء فعلها. وهلوست الحيزبون

في إغماضها تتصوّر ما يُشبه الذِّكرى، يوم اصطفاها الكاتبُ ذريعةً لكتابةِ أوّل أسفارِه. رفضت في بادئ الأمر أن ترتكب الإثمَ العظيم، وقالت التي تعيثُ في الأرض سحرًا إنها لا تهدم البيوت ولا تخلط الأنساب. وجاهدت وبذلت كُلّ ما في وسعها كي تحبلَ العاقرُ أمينة البيعاريّة، لعلّها تنجو بنفسِها من الوقوع في خطيئة هدم بيت شايعة الخباري، ومن إثم العبث بنسبِ حفيدها سيف. غير أن العاقر لا تحبل ولو عبَرَت ألفَ بِيصٍ أبدًا، فسلّمت أم حدَب لكاتبها، تفعلُ ما يُمليه عليها نظيرَ شفائها من البَرَص، وهي التي تحملُ الشّفاء على كاهلها غافلةً ولا تدري.

مئة حولٍ من الزّمان يا آخر الزّمان، أما كفَتك؟ مئة حولٍ وأنت تلعب مع أم حدَب، وأنا رجوتك ألا تلعب مع أم حدَب. أسألك بلغتك التي تكتبني أن تُزيل وزرًا، وضعتَه بيديك، يُحني ظهر عجوزك البرصاء؟ أمَا أزفت السّاعةُ بعد وقد أوفَت الميثاق القديم؟ مئة حولٍ من الزّمان يا آخر الزّمان، وعجوزك تحيك الأحابيل في مدينة الطّين لتكتمل أسفارها. ها هي في ثاني الأسفار بلا نجمٍ ولا قلادة ولا صولجان الكهانة الذهبي، تُنصت إلى طبول الحرب غدًا تحت سور المدينة، ها هي ترتعد لا تريد أن تشهد ظهور بُوْدَزياه في سِيف الحيّ القِبلي، وخروج موكب الجوع من سوق الحريم، وهطول أمطار الوَسمِ قبل أوانها، فينطفئ تغريد بُلبُل اليهودي وتُطوى صحائفُ ثاني الأسفار.

ها أنا وقد أوفيتُ واجبي، وما بقي إلا بلوغ الابن موضعَ دفن حبل سُرّتِه وهو في سبيله إليه، وغدًا يخرج الأب من سِفرِنا هذا إلى سِفرٍ بعيد. أفلا تشفي عجوزك البرصاء وتُعيد إليها لونها الأصيل؟

انفرجت شفتاها هامسة، تُحدّث كاتبها بالرّمز وما زالت مُغمضة العينين:

«ثَاغ طؤعَش بَهَمُوث. بِسْمِ هاروت وماروث. وَحِرزٍ مَكتوب. بِمَاءٍ مصبوب. في قاعِ الظُّلمات. يَخرشهُ الحوْث».

تخثّر ريقُ العجوز وبحّ صوتها تُفضي بلُغة كاتبها:

«وثلاثة كتُب. يا مُوجد السبب. أتَرى أم حدَب. أتعبها الشكوت».

تفصّد العرَقُ من جبينها الأبرص، وسرَت الرّعشة في جسدِها الواهن وهي تُتمتم بلغةٍ مُستعارة:

«يا كاشف الأسرار. يا كاتب الأسفار. يا مُنهي المشوار. إني أموت».

فتحت عينيها على دُخان اللُّبان الكثيف يتشكّلُ أمامها مثل صنم، والبذرة التي التهمتها ما زالت تفعل في جوفها الأفاعيل. فتشكّل للعجوز في الدُّخان وجهها الثّلجي، وانطفأ فيه ثؤلولها الأسود الناتئ، ثمّ حملقت مليّا ضبابية النّظر حتى تغيّرت الملامح في وجه التمثال الدُّخاني. وتبدّى شاربٌ كثٌّ أبيض فوق الشفّة، ونظّارة طبيّة على طرفِ الأنف الأقنى، يظهر وراءه جدارٌ برفوفٍ تغصّ بالكتب. فارتعشت فرائص العجوز وهي تُبصر حقيقة لا تفهمها. تكشّف لها في الدُّخان الرّجل، يبدو في عقده السّابع، وما كان تمثالًا من دخانٍ إنما هو دُخانٌ حي. قال:

«يا صاحِبة أم حدَب..

أنا صادق أبو حدَب».

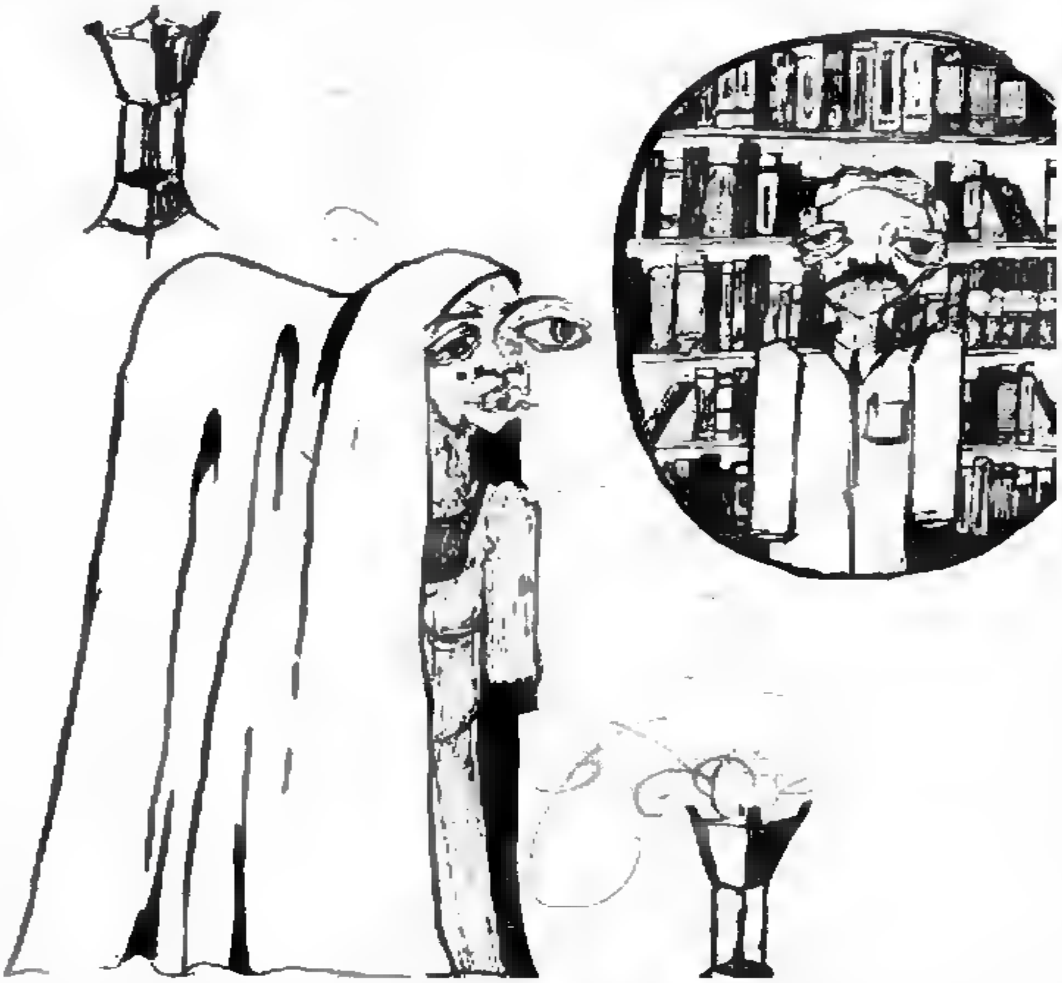

مارت أرض الليوان تحت عجيزتها المنبسطة على فرش الحصير. وأصاخَت العجوز إلى رَجُل الدُّخان وهو يقول:

«أنتِ أنا فيما مضى.. أنا أنتِ فيما يجيء.. أنتِ الفاعلَ، وأنا القائلَ، وقائلُ الفعل بريء».

تلاشت صورةُ كاتب الأسفار وتبدّد الدُّخان، فنثرت من اللُّبان مزيدًا على حطب الموقد وتمتمت بغريب الكلمات، غير أن كاتب الأسفار ما عاد إلى الظهور ثانية. فسلكت العجوزُ المجاز مذعورةً، عابرة من ليل السّديس إلى فجر الجمعة.

وارتفع طرقٌ على باب البيت المثلّث قُبيل أذان الفجر ومكثت العجوز صامتة ثقيلة الرأس. وعاود الطّرق على الباب الخشبي مرتفعًا.

«خافي الله يا امرأة.. خافي الله..».

غطسَ رأش أُم حدَب بين كتفيها وهي تُنصت إلى صوت المُلّا عبدالمحسن قبل أذان الفجر الأوّل:

«..لن ترتاح روحك يا عجوز النّار.. لن ترتاح.. تدرين لماذا؟..».

لم تسأله العجوز لماذا لأنها تدري لماذا. تخشّبت في موضعها يرفَضُّ في وجهها العرق، وارتجفت منحنيةً على ضرّتِها تُحكم ربط عقدتها.

صاحَ خصيم الصاجّات وراء الباب:

«..لأن ذنب سليمان، وخراب بيته، وموت رضيعه في رقبتك».

فسارعَ المُلّا يحثُّ الخطوَ إلى مسجد الشوق الكبير.

***

(30)

مباركة أنت في النِّساء

«لأنَّهُ لَيس شَيء غَير ممكِنٍ لدى الله»

الكتاب المقدس/ إنجيل لوقا

ـنوفها الأصفر بدل زي التمريض الأبيض، وكانت قبعة التمريض البيضاء على رأسها. وبعدما صامت عن الكلام سبعة عشر يوما نطقت أخيرا. جاءت إلى مكتبي في العيادة ثائرة الضفائر متورمة الجفنين كأنها مريضة لا ممرضة. قالت بالعربية: «تعبانة».

كانت متعبة شاحبة وجبينها يلمع بالعرق، وبدا واضحا عليها الخمول وعدم التركيز. طلبت منها الجلوس على المقعد أمام مكتبي في العيادة. جسست نبضها ووجدته معتدلا لا يدعو للقلق. وقست حرارتها وكانت مرتفعة نصف درجة عن الدرجة الطبيعية. سألتها ما بك مبروكة؟ وكم تمنيت لو أنني لم أسأل ولم أسمع الإجابة. بل وتمنيت لو أنها بقيت على صومها عن الكلام منذ أضاعت تعويذة العرافة عند صخرة الساحل. قالت إن ملاكا زارها ليلة الأمس في حجرتها في سكن الممرضات، ثم صمتت تنظر إلى الأرض واسعة العينين وشفتيها ترتعشان.

- كان حلما.

قلت لها، لكنها هزت رأسها بغضب وأصرت أنه لم يكن حلما. سألتها ماذا قال لها الملاك ولم ترد.

سألتها كيف بدا شكله فقالت إنه كان يعتمر الكوفية العربية والعقال، وكان يرتدي دشداشة وعباءة بيضاوين تشعان نورا، وله مئة جناح أبيض أقصرها يبلغ من الطول ألف ذراع. فمازحتها:

- دشداشة وكوفية وعقال.. محتمل.. لكن مئة جناح عملاق في حجرتك الصغيرة ولم يشعر به أحد!

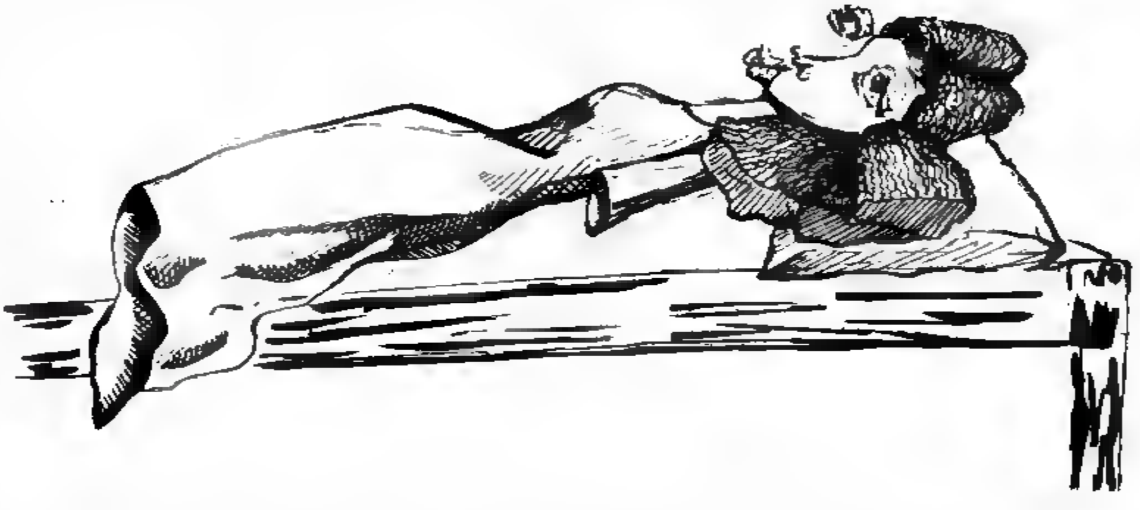

كانت متقلبة المزاج منفعلة سريعة البكاء مثل طفل ضجر. لم تحتمل مني أي تعليق. صاحت وقالت إنه كان حلما ربما، لكن ليس ككل الأحلام. كلمها الملاك بلغة غريبة لكنها كانت تفهمه وتفقه ما

يقول كلمة كلمة. انهمرت الدموع من عينيها، وراحت تردد آيات من إنجيل لوقا، تغير في الجمل ما لا يناسبها وهي تقول:

- فدخل إلي الملاك وقال لي: السلام عليك، يا من أنعم الله عليها. الرب معك.

لم أخف دهشتي وقد بدا لي واضحا أنها تستغل معرفتها بالكتاب المقدس لتقول شيئا لي أنا بالتحديد، شيئا أفهمه ويمسني بشكل مباشر دون غيري من الأهالي. نهضت لأطبق باب الغرفة وعدت للجلوس وراء مكتبي وأنا أنظر إليها وهي تنظر إلى الأرض. وطلبت منها أن تكمل ماذا حدث بعدما خاطبها الملاك الأبيض ذو الأجنحة العظيمة، فقالت مقتبسة من الإصحاح الأول لكن بكلمات ملفقة:

- فاضطربث لكلام الملاك وقلت في نفسي: ما معنى هذه التحية؟ فقال لي الملاك: لا تخافي يا ماريامو، نلت حظوة عند الله. فستحبلين وتلدين ابنا تسمينه عطية.

اقشعر جسدي وأنا أنصت لها، وقد احمرت عيناها، وهي تردد بالعربية ما تحفظ من الإصحاح وتحرفه مرتعشة الشفتين مختلجة المنخارين حتى ختمت كلماتها الإنجيلية:

- فقلت للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا.

اضطررت لأن أقاطعها وهي تبالغ في تقمص مريم حتى أنها نسيت نفسها، كنت متوترة غاضبة وخائفة. وقد مرت في خيالي صورة خادم بيت الوكيل الميجور مور الذي رأيته يوم الثلاثاء الماضي في دعوة عشاء الوكالة البريطانية. صحت بها:

- وعطا الله؟

لم تكن مبروكة نفسها ممرضتنا المحبوبة الوديعة. الفتاة التي تخاطبنا بخليط إنجليزية وعربية حدثتني اليوم بلغة غريبة بعدما استفزها كلامي على ما اعتقد.

ربما أكتب لاحقا.. وربما لا أكتب أبدا.

Eleanor J. T. Calverley

Saturday, October 9, 1920

9:15 **PM**

مفاتيح الآلة الكاتبة لا تسعفُ المرءَ يكتب ما لا يمكن وصفه. وقلمُ كاتب الأسفار يقدرُ على ما لا تقدر عليه طبيبة الإرسالية أكيد، لكنه في هذه اللحظة مثل الطبيبة قبل حوالي سبعةِ عقودٍ خَلَت، عاجز أن يخطّ بالقلم ما أراد. فحاول كتابة شيءٍ يُشبهه وهو يدري أنه سوف يُخفق، وأخفق. لكنه على أي حالٍ كتَب.

فهِمت الطبيبة أن الممرضة التي شغفها حُبُ البتول قد تورّطت بالخطيئة، وصيّرت نفسها بتولًا جديدة وراحت من كتاب الله تُبرِّر مجيء عطيّة الله المحتملة بعد تسعة أهِلّة. كانت متعبة شاحبة مهدودة الحيل. أجلستها الطّبيبة أمامها على المقعد. فأخفضت مبروكة بصرها وردّدت من القرآن الكريم من سورة مريم:

«وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًا. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ

لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا».

قاطعت الطبيبةُ الممرضةَ التي ألقت الكلمات القرآنية التي أحفظها إياها سيدها السّابق. ردّدَت في المشفى التّبشيري آيات القرآن. وطاش صوابُ إلينور. كانت متوترة غاضبة وخائفة. فصاحت بمبروكة:

«وعطا الله؟».

لم تُحر مبروكة جوابًا، فقالت إلينور:

«لا داعي إلى هذه الحيلة إن كانت لتبرير فعلتك أمام الناس».

ما فاهت مبروكة بكلمة واكتفت توحي برأسها نافية. فنهضت إلينور من وراء مكتبها وتقدّمت إلى ممرضتها ثربّت على كتفها:

«لماذا كل هذا الحب لمريم وقد كانت امرأة عادية؟».

«عادية؟! لماذا اختارها الله لتكون أُم ابنه إن كانت عادية؟!».

سألت مبروكة، فأجابت إلينور من فورها:

«أعني مثل أي امرأة. مثلي.. مثلك.. لقد كانت مثل محارة احتضنت لؤلؤة.. فلماذا تهملين اللؤلؤة وتتعلقين بالمحارة؟!».

أمسكت إلينور عن تتمّة القول لمّا تبدّت أمارات الامتعاض على وجه مبروكة. غير أن الطبيبة أردفت تنتقي كلماتها:

«.. ما قيمة المحارة بعدما تؤخذ اللؤلؤة؟».

ما فكّرت مبروكة في أمثولة اللؤلؤة والمحارة تلك، وما استفزّها إلا

قول الطبيبةِ إن البتول كانت امرأة عادية:

«كيف ولها في القرآن سورة؟!».

«أنتِ مؤمنة صالحة كفّي عن هذا مبروكة! هذا لن يجعل منك مريم».

جحظت عينا الممرضةِ وتسارعت أنفاسها. كزّت على أسنانها تحدج إلينور لاهثة. فانفرجت شفتاها عن لثتها وأسنانها ناصعة البياض، تفوهُ بصوتٍ أجش، ولسانٍ غريب الرطانة بارز الحروف. تصرخ والزّبد يتطاير من شدقيها والدمعُ يرفَضُّ على خدّيها:

«نيليكوّا ناسيما نايتوّا مريامو، لاكيني موارابو كاتيكا سوكو لا واتوموّا آلينييتا مابروكا!».

فأطبقت كفّيها على أُذنيها وأغمضت عينيها مُطرقة:

«جاءوا جاءوا».

اصفرّت إلينور أمام الكائن الذي كان مبروكة قبل لحظات. حاولت إخفاء ارتباكها لكنها عادت مرتبكة إلى مقعدها بعد ثورة ذات الرّداء الأصفر التي تبدّدت رطانتها، وهدأت أنفاسها، وعادت إلى جادة لسانها بين العربية والإنكليزية تعتذر وتبدي للطبيبة شديد الأسف. أنزلت إلينور كفّيها تحت المكتب تخفي ارتعاشهما:

«ماذا كنت تقولين؟».

أسندت مبروكة ظهرها إلى ظهر المقعد تُحدّق إلى السّقف:

«كنت أقول.. اسمي مَزيَمو. لكن العرب في سوق العبيد أسموني

مبروكة».

«وبأي لسان قلتِ ذلك؟».

انحنت مبروكة ترتفقُ ركبتيها وأفلتت ضحكة خابية من أنفها:

«بلسان أهلي.. ربما».

«منذ متى؟».

سألت إلينور تشكّ في كون الممرضة بالفعل قد تحدّثت قبل قليل بلسانها البِكر. فشمّرت مبروكة عن عضدها الخالي من حِرز أم حدَب تعرضُ البُرهان:

«منذ فقدت الحِرزَ عند صخرة الوطية.. عادت إليّ الكوابيس القديمة».

بدت الطّبيبة كأنها لا تعرف الممرّضة التي تجلس أمامها:

«أي كوابيس؟».

***

(31)

هَبُوب الجَنَّة

﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

آل عمران؛ القرآن الكريم

الصَّلاةُ خيرٌ من النَّوم..

الله أكبر الله أكبر..

لا إله إلا الله..

أطلقَ صوتَه يتردَّد يُنادي للصلاةِ بعد السَّحر.

وسَرى حِسُّهُ خابيًا في فضاء الصَّحراء النَّاعسة، شفيفًا مثل انسياب النَّهمَةِ من فم نهَّامٍ أيبسته شهور البحر، فاشتاق إلى برٍّ أمان.

تردّد أذانه حزينًا مثل أنشودة وداع أخيرة، في سفينةٍ تُسيِّرها الرِّيح على مشتهاها إلى مجهول الغياب. هي المرّةُ الأولى التي تنفرج فيها شفتاه عن صوت الأذان على هذا النّحو من التّردُّد والخفوت. كأنما لا يُريد الفارش إيقاظ الرجال المتناثرين من حوله في المعسكر الغافي. أرادهم نيامًا نومَ أهل الكهف لا يفيقون منه ولا هُم من كهفهم يخرجون. بيد أنهم على غير مُشتهاه هبُّوا للصّلاة مثل جُثثٍ دبّت فيها الحياة، يوقظ واحدهم الآخر على صيحات أميرِهِم وقت رفع ساطور الأذان. يشدُّون بيضَ العُصابات حول رؤوسِهِم، ويضربون الرّمل بأكفهم ضربة واحدة، ويمسحون على وجوههم وكفوفهم قبل صلاة الفجر، ويعقِدون العزمَ لأحداث يومٍ طويلٍ يظهرُ فيه الحقُّ ويزهق الباطل. وطوبى لمن طلب الشّهادةَ وجاور الرُّسل والنبيين

والصدّيقين. وويلٌ للقوم الذين ضلّوا وأضلّوا عن سواء السّبيل.

بُعيد صلاة الفجر قُبيل الشُروق، وعلى مبعدة بضعة أميالٍ من الجهراء، احتشد أربعة آلافٍ من المُجاهدين المُسلّحين بالسّيوف والبنادق. الهجّانة على الجِمال، والفُرسان فوق الخيول، وحمَلة البيارق يتحرّون ساعة الزّحف. وصفوفُ الرّجالة متأهبة. رجالٌ دقيقو البِنية ينتصبون مثل رماحٍ راسخة في الأرض، ثيمّم أسِنّتها صوبَ الجهراء. وآثارُ الرّملِ على جباههم لا تزال بعد سجود صلاة الفجر. امتطى أميرهم الأحدب ذو اللحية المُدبّبة ظهر جوادِه تَشَمُّرًا، موليًا ظهره لصفوف رجاله. والطّقش حليفُ الإخوانِ بعد شهور صيفٍ لاهب، يمنحُ جيادهم فرصة اختبار قوّةٍ مُدّخرة طوال شهور القَيظ لمثل هذا الوقت من الحول.

تقدّم حمَلَة الرّايات إلى صُفوف المقدمة. وتوارى في الصّف الأخير الفارسُ الأسود، مؤذن الجماعةِ قويُّ البِنيةِ فارغُ القامة، وارث شجاعة عنترة وإيمان بلال، ساطور العَرد. يمتطي فَرَسَه السّوداء، ويكادُ يُلامس الأرض بساقيه المتدليتين. يُقبل على معركةٍ لا ناقة له فيها ولا بعير.

استدار الأميرُ ذو اللحية المُدبّبة، يُحكم لثامَ شماغِه الأحمر المثبت بالغصابة البيضاء حول رأسه. وواجه بجوادِه رجالَه المتأهبين يُطيل إليهم النّظر قبل أن يرفع الصّوت:

«بسم الله الرحمن الرّحيم، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسّلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. أما بعد..».

افتتح خطبته بالعبارةِ التي نقشها الشّيخ سالم أعلى بوابة قصرِ الشّيف العام الماضي؛ «لو دامَت لغيرك ما اتّصَلت إليك». قولُ حَقٍّ أرادَ به أمير الكويت باطِلًا يُضلل شعبه، ولو كان الأميرُ يؤمن بقولٍ يعتلي بوابة قصرِه لعمِلَ من أجلِ دينه قبل أن يصلَ شلطانه إلى خَلَفٍ يخاف الله، ولا يرضى بوجود مَشفى المشركين من النّصارى في أرضٍ تصدحُ فيها المآذن لدين الحق، ولا يتجاهل وصيّة النّبي، عليه أفضل الصّلاة والسّلام، بإخراج المشركين من جزيرة العرب».

تحسّس أميرُ الإخوان مقبض حُسامِه وهو يواصل خطبته:

«.. صبرنا على الموبقات في أرضِ الكويت علّ الله يهدي ولاةَ أمرِها. لكن من رأى منكم مُنكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان. ونحن قومٌ لا نرضى بأضعف الإيمان، وقد خُلِقَت أيدينا هذه لسدِّ باب المنكرات. صبرنا على التّبغ والخمرةِ والفُجور وبناء المقامات وأضرحة الشّرك واستيطان الكفرة. فتفشّى الجهلُ وأوغل النّاس في تصديق البِدَع وإثارة الفتن، إلا من رحم ربي، والإيمان بما لم ينزله الله جلّ جلاله كخرافة العباءة في قصر الأمير. هبّوا إلى الجهراء ولتكن وجهتنا بعدها الكويت، وما إقبالنا على الكويت إلا بأمر الله وبإرادته».

وقرَ ذِكرُ الكويتِ والعباءةِ في نفس ساطور وأربكه. يعضُّ على شفتيه متحسّرًا لإفشائه سِر العباءةِ سبيلًا للتقرّب إلى الإخوان ونيل خلاصه. *هل أكون سببًا في مقتل أمي وأخي؟*

استدار أميرُ الإخوان شرقًا وهو يصيحُ على قُوّاتِه:

«استعدّوا للرّاجفة».

لكزَ جواده بِقَدَمِه رافعًا حُسامَه عاليًا، وصاحَ برجاله يشحذُ خناجر غضبهم:

«يا سالم يا بِن صُباح.. أنا خيّال التّوحيد أخو من طاعَ الله.. بيِّن راسك يا عدو الله».

دبّت الدّماء في عروق رجاله تُوقد حماستهم. تتغلغل صيحته في نفوسِهِم الطمّاحة إلى الجهاد والموت في سبيل إيمانهم. ورُفِعت البيارق عالية خفّاقة. فنفرَ المجاهدون نفرةَ الحجيجِ على وقع أقدام المُشاةِ وسنابك الخيلِ وأخفافِ الجِمالِ وصليل الحديد. وتعالت هتافات الرّجال وراء أميرهم، يطلقون بارود البنادق، ويصدحون بهتاف «الزّاجفة» صوتًا واحدًا يرجُّ الصّحراء رجًّا:

«إبراهيم يا عمود الدين، محمد يا رسول الله.. هبّت هَبُوب الجّنة، وين أنت يا باغيها؟».

وحدهُ ساطور. وحدي. في آخر تلك الجمهرة المغبرة التي تموجُ نحو مطلع الشّمس. *ليتها ما طلعت*. مكسورًا على ظهرِ فرسِه السّوداء في مؤخرة الجيش. *إي والله!* لا يرفعُ صوتًا ولا راية. *ولا سلاحًا*. وليس له من أمنية إلا الخلاص المستحيل. *بل لي أمنية* غير هذه. عساه ينفذ بجلده. عسى *ألا يجيء أخي فيعيد فعلي، ويصير إلى ما صرت إليه*. ولا يملك ساطور من خيار بين البقاء مع إخوةٍ أطاعوا الله أو الموت مُرتدًّا. *وكلا الأمرين* موت. فسلّم لفَرَسِه تنقادُ وراء الجُند. وقادته الفَرَس صوبَ الجهراء مع هَبوب جنةٍ لا يبتغيها.

اخرس!

***

(32)

أوّل أمارات الختام الخمس

«تُقرع طبول الحرب قبل خروج بُوَدَزياه»

ألفى الهذّارُ نفسه في الظلمة والرّضيع بين يديه. يركضُ في متاهةٍ من السّكك الضيّقة يُطارده سليمان. يصرخُ ولا يخرج من فمه إلا أنفاسه المتلعثمة مثل كلماتٍ خرساء تنفرطُ حروفها في الهواء. سِكَكٌ تُفضي إلى سِكَكٍ لا تنتهي بين بيوت الطين. يركضُ فيُدرك أرضًا سبِخة تغوصُ فيها قدماه، فيتمغّط الزّمن ويستطيل بثقل خطواتِه، ويمضي الوقت بطيئًا لزج الثّواني. وسليمان وراءه يقترب على مهل.. يمدُّ يده فيطبقُ كفّه على ذراع الهذّار وينزعُ من عَضُدِه حافظة الحِرز الجلديّة، فيتسارع الزّمن ثانية، ويهربُ الهذّار بالرّضيع الليل بطوله حتى يُدرك الصّحوَ فازعًا: «سيف.. سيف!».

صاحت ديوك الفجر في الشطوح وعلى أسوار البيوت، وقت أفاق أبو غايب مكروبَ النّفس ثقيل الأنفاس متخمًا بتفاصيل كابوسه. *شي عجيب غريب! كيف يجيء الكابوس وحِرزٌ أم حَدَب يطوّق ذراعي؟!* تحسّس موضع حِرز أُم حَدَب فوجد عقدته مرتخية والحافظة الجلدية هبطت إلى مرفقه. نهض جالسًا على فراشه، ووجدَ أمينة ترتفق نافذة الحجرة المطلّة على الحوش وقد جافاها النّوم. تُسمّي بالرّحمن صفراء الوجه يابسة الشّفتين. سألها وهو يُعيد شدّ عُقدة الحِرز الجلدي حول عَضُدِه:

«نمتِ؟».

هزّت رأسها نافية، زفرَ وهو الذي ما أغمضت له عينٌ إلا سويعة الكابوس.

«خائفة؟».

هزّت رأسها ثانية:

«وأنتَ؟».

لم يُجب رغم ارتجاف قلبه. *ماذا لو غرق بنا المركب؟* تلفّتَ في الحُجرة الفارغة إلا من الفراش وقليل أغراض ملفوفة بالحُصُر، بعدما بيعَ كُلُّ ما في الدّار، وبعد سداد الهذّارِ دَينه للنُّوخِذا بن حامد عازمًا على ترك الدِّيرة والعودة إلى جزيرة مولده وصباه. *ماذا لو متنا بعد فعلتنا هذه؟* قام ليُصلّي الفجر في المسجد بعدما أفضى لزوجته بكلمة ثالثة:

«مخنوق».

خرجت أمينة من الحُجرة تُلملم بقايا حاجياتها قبل الإبحار إلى فَيلَكا، على اتفاقهما، بعد صلاة المغرب. تستغربُ هدوء زوجها واقتصاده في الكلمات على غير مألوف عِلّتِه. بَدت متعَبة والشّمسُ التي تنتظرُ غروبها، إيذانًا بالرّحيل، ما أشرقت بعد كي تغيب. وإذا ما غابت تكون الدِّيرة وراء ظهرهما هي وزوجها الهذّار مبحرين إلى الجزيرة.

***

ارتفعَ أذان الفجر، وفرشت شايعة سجادتها وصلّت في حُجرة فضّة الجديدة. وفضّة تجلس في فراشها داخل غلالة السّرير تُبحلق

إلى الجدار صامتة منذ أسبوعين. وما نطقت إلا بكلمات أفلتتها في ساعات هذيان. *بَرُوي كان زواجنا يا سليمان.. بَرُوي*. بالكاد تأكل بالكاد تنام، لا ثُفلت دمعة ولا تشهق بعبرة. *أهوَ مكتوبٌ لي أن أولد لأبٍ غائبٍ وأمٍّ تموت، فأكبر غريبة، وأتزوج بمن حلمت به زوجًا، فيكونُ أخي في الرَّضاعة وأنجبُ منه ولدًا.. يموت؟*

فرغت شايعة من صلاتها، ورفعت كفَّيها تدعو الله أن يجيء بـ سليمان.

«يا ربي أرجع المُؤلاف».

ردّدت وهي تتذكّر نبوءة أم حدَب، بأن المُؤلاف يعودُ حُرًّا على هواه، ويُدبر إن هي عليه أقبلَت. تخشى أم سليمان أن تُقبل على ولدِها الذي تحسبه في بيت شيخ البحّارة فيجافيها ويختفي. وشايعة التي لا ينقصها إيمانٌ بأم حدَب، آمنت بحديثِ العجوز أكثر من أي وقتٍ مضى، بعدما تحقَّقت نبوءة النّار في دار المرضع. وبعدما أخذت منها حفيدها وأعادته إليها صُرّة من الرّماد والعظام. وشايعة ببلاهة الحُبارى كأن شيئًا لا يجري حولها. ما ذرفت دمعة ولا بدر منها إلا الأمل المشوب بالقلق. *سوف يعود سليمان*. وتبالغ في التّمني. *وسوف يعود ولده*.

وبينما كانت شايعة تدعو الله بعد صلاتها تناهت إلى مسمعها جلبة في الخارج، تخلّلتها صيحات مُنادي القصر. لم تتبيّن بماذا يُنادي الرجل. أصاخت السّمع فلم تسمع إلا همسة جاءت من ورائها:

«روحي له يا خالتي».

رفرف قلب شايعة للصوت الذي جاء من وراء خيمة الفراش.

فالتفتت تُبصر فضّة وراء الغلالة الشّفيفة. وجدتها على حالها تتربّعُ صامتة شاخصة العينين، تمسحُ بكفِّها الفراش في نصفِه البارد.

***

انتهى أذان الفجر مع طرقات أم حدَب على باب بيت «أبو لسانين»، تقفُ وراءها شريفة وأم البنات مُرضعة سَيف. فتحت أم غايب الباب وأدخلت زائرات الفجر حوشَ دارها مُستغربة مجيئهُن المبكّر. وقد بدت الحدباء مهدودة الحيل متسارعة الأنفاس.

«الدّيرة مقلوبة.. قالوا سحابة صيف لكنها عافور».

قالت أم حدَب إنها جاءت تُخلّص الأمر لأن لا وقت لديها، فالطُّبول توشك أن تُقرع والحربُ سوف تقوم، والسّفرُ الثّاني يشارف النّهاية. وأم غايب لا تفهمُ شيئًا. ولا واحدة من النّساء تفهم. أقبلت العجوز في الفجر المشحون بالتوجّس، والشّيخ سالم يُجهزُ صفوف فرسانه للخروج إلى الجهراء، وابن أخيه الشّيخ أحمد الجابر يحشد المتطوعين. وفيما هي تلهثُ بآخر الأخبار ارتفع صوتُ منادي القصر في إحدى السّكك القريبة:

«السلاح في قصر الشيخ سالم، والخيل في مربط ابن الطاروف».

لم تُطل أم البنات البقاء في دار أم غايب بعدما حلّفتها أم حدَب على القرآن ألا تُفشي السّر، فنقدتها صاحبة الدّار ثمن خدمتها العظيمة. ثمّ أكرمتها شريفة خيرَ إكرام وجازتها بأغلى ما تملك لحظتها تلك. وخلّصَت العجوز الذّابلةُ الأمرَ بتعويضها عن أضرار النّار في دارها، وسداد كلفة الكاز الذي أشبعت به الحُجرة قبل إشعالها ليلة النّار.

جاءت الحدباء تُنهي الأمر أخيرًا، بعدما نسجت أحابيلها في بيت شايعة على مدار سِفرَين.. شايعة الخُبارى طيِّبة القلبِ خفيفة العقل. بيت مثالي لتنفيذ مكيدتها، بيت أرملةٍ ليس لها إلا ولدٌ غريرٌ يُطارد أحلامه في البحر، الولد الذي يمشي تحت السّاس ويذعره كلام النّاس. بيت الكنّةِ اليتيمة لا أهل لها في الدّيرة يذودون عنها. بيت بلا غزوةٍ في الحيّ الشّرقي، ولا أقارب في الدّيرة لهم إلا قليل قذفهم قحط نجدٍ إلى الحيّ القِبلي قبل بضعة عقود، لا يتزاورون إلا في عيدٍ أو زفافٍ أو عزاء.

أقبلت أم حدَب على بيت الهدّار في هذه السّاعة قبلما تموت. وما أُقيم عليه الميثاق قد تحقّق، وسليمان يقطع خطواته الأخيرة إلى سِفره الجديد. وضرّة الرّماد والعظام التي تسلّمتها فضّة انتهى أمرُها تحت الجدار الغربي في مقبرة «هلال»، وصلّى عليها الرّجال، ولم يُسجّل تاريخ مدينة الطّين أن الشّاهد الصّخري، الذي يحملُ اسمَ سيف بِن سليمان بِن سهيل، يقومُ على رُفاتِ قِطّةٍ مقبورةٍ بين موتى الدّيرة.

انصرفت أم البنات تُزيّن مِعصمها بأحد أساور شريفة، تحملُ ضرّة المال والسّر العظيم. فأخرجت أم حدَب من شقّ عباءتها الرّضيع الذي بلغَ الشّهر من عمره. وأخذته العاقر واحتضنته وداعبت أنفه بسبّابتها وهي تُبصر وجهه بلا بُوشِيّة لأوّل مرّة، وقبّلته بين عينيه المغمضتين. الولد الذي أرادت أن تُسميه بدرًا لأن لوجهه بهاء بدرِ التّمام، لا عيب فيه، حتى أذنيه التي قيل إنهما تشبهان أُذنيَ الخُضني ما كانتا. غير أنها تخلّت عن اسم بدر وأسمَتهُ «غايب»، على كنيتها القديمة، أُم غائب، كي لا يفطن الموتُ إلى حضوره فيسلبه من

بين يديها. راحت تلثمُ رأسه باكية في صمت، بكاء من نال مُراده بعد دهر. وداعبت أذنه وهي تقول لأم حدَب:

«كيف يقولون إن له أذنَيّ الخضني؟!».

«من؟».

سألتها أم حدَب فأجابت أمينة وهي تُشير نحو شريفة:

«سيف.. قالت شريفة إن أذنيه تُشبهان أذنَي أبيه».

تأفّفت الصاجّة المتعبة واقتربت من أمينة تُهامسها:

«تُريدين ولدًا؟ أم تُريدين ولد فضّة؟».

بدَت أم حدَب في أسوأ حالاتها في فجرهم هذا، ترتعد أطرافها وينضحُ جبينها بالعَرَق. عانقت أم غايب شريفةَ والعجوز الحدباء، بعدما سوّت أمرَ الهجرة إلى الجزيرة.

«سينتظركم خَليفُوْه بقاربه في الوَطية بعد المغرب..».

قالت أم حدَب، ثمّ أطالت النّظر إلى وجه الرّضيع بين يدي أم غايب، تبسملُ وتحوقِل وتُتمتم بتعويذات غير مفهومة:

«..بدر التّمام، تبارك من سَوّاه، ويشقى من رَبّاه..».

استعاذت أم غايب من سوء الفأل، وقبضت على فرحتها بالرّضيع الذي جاء على غير ما كانت تنتظر. فثقلت أنفاس العجوز وهي تستطرد كاشفة المزيد، كما لو أنها قرّرت ألا تموت إلا بعد إفشاء نبوءةٍ أخيرةٍ من كشف قديمٍ لـ كاتب الأسفار:

«..وقبل بلوغِه الحَوْلَ يولدُ في التّنّور من جديد».

استعاذت أمينة ثانية من قولٍ ما فهمت منه كلمة، فأخرجت أم حدَب من شقّ عباءتها زجاجة «ماي غريب»، ومدّتها بيدٍ مرتجفةٍ إلى أمينة، توصيها أن تسقي الرّضيع قبل الإبحار فينام. وانتبهت أمينة إلى إعياء العجوز وارتعاش يديها وشفتيها والعرَق المتلامع في جبينها الوردي. بدت أم حدَب حقيقيةً في سِنّها، قرن من الزّمان، كما لو أنها شاخت فوق شيخوختها دهورًا. سألتها أم غايب:

«مريضة يا حاجّة؟».

«من زمان».

أجابت العجوزُ لاهثة. بدا تعبُها واضحًا في هيأتها وثقل لسانها وبطء حركتها واِتّساع حدقتيها. انبرت تُسديها النّصحَ تُلقّنها سُبلَ وقاية الرّضيع من نبوءة التّنور وشرور العين والحسد:

«اِحذري أن يُقارب النّار. وخَضّبي راحتَي كفّيه بالحِنّاء، كَحّلي عينيه وطوّقي معصميه بالأساور مثل البُنيّات.. كي لا يشهق الحُسّاد إذا ما رأوه وفزّت قلوبهم: كيف لهذا الطفلِ الحُلوِ أن يكون ولدًا؟!».

سارت العجوز البرصاء بخُطى ثقيلة، كأنما تخوضُ في أرضٍ مدهونةٍ بالغراء. تمضي إلى دارِها قبل شروق الشّمس واستطالة الظلال. ولحقتها شريفة تتدثّر بعباءتها تُسرع في المسير، ترنُّ أساورها على وقعِ خُطاها. مالت على أم حدَب عند عتبة باب الدّار، همست بصوتٍ ملهوف:

«فازت أم غايب بالولد. ماذا عني وسليمان؟».

«لا تستعجلي على رزقك يا امرأة!».

تهدّج صوتُ شريفة تُغالبه عَبرةٌ واللهفة في عينيها:

«خوفي أن يُقبل الرّزق عقب ما أبورا».

اعتصر القلقُ شريفة التي بلغت عشرينها منذ حَولين، وهي تدري أن أمّ حَدَب شأن كل الصاجّات؛ تموت في المئة، وأن موتها لقريب قُرب العين للحاجب. وشريفة تدري إن ماتت العجوز فلن تظفر بـ سليمان الذي تذوب بذكرِه صَبابةً.

«ولد شايعة سوف يرجع، لكنه يرجع من أجل فضّة كي يُعيدها زوجة ما طلّقها ولا كان زواجه باطلًا وأنتِ يا شريفة تدرين.. ومن هذه الساعة حتى يرجع سليمان.. تدبّري أمرها وأمرك.. لو رجع وما لقيها تفوزين به زوجًا».

قالت العجوزُ فأسندت كفّها إلى دفّة الباب الخشبي. وأدارت رأسها ترنو إلى الشّرق تخشى طلوع الشّمس. كحّت كأنها تستفرغُ رئتيها المتعبتين بأفاعيل بذرة عين العفريت، ثمّ مضت تجرُّ خُطاها الثّقيلة في السّكةِ وحيدةً من دون ظِل.

***

واصل مُنادو القصر طوافهم مع بضعة فرسان على مساجد الدّيرة، يُنادون الرّجال للتطوّع في جيش الأمير:

«السلاح في قصر الشيخ سالم، والخيل في مربط ابن الطاروف».

واجتمع النّاس حول المنادي في ساحة مسجد «السّاير» الشّرقي. وسكتَ الهذّار وما مات، وهو الذي منذ ماتت أُمّه بعد سكوتٍ ما سكت، يُبعد الموت بالهذر، لكنه في هذا الفجر سكت، ففكّر، فبهَت.

وعبَرَ الهذّارُ بين الرِّجال يهجسُ بكابوس الفجر، ويتأكد من عقدة الحِرْز حول عَضُدِه. انكبَّ أمام المحراب يُصلّي تحية المسجد فور دخوله. فتبادلَ الرِّجال النظرات فيما بينهم، يستغربون صمت الرَّجل الذي ما رفع رأسه عن الأرض إلا بإقامة الصّلاة. أهو الهذّار أم شُبِّهَ لهم؟ هو نفسه يستغرب حاله. ألفى نفسه في الصّمت يُفكّر، وهو الذي لكثرة الهذر ما فكّر في شيءٍ قط. صلّى في الصّف الأول ودعا ربّهُ غير أن ضيق صدره لم يزل. هو يدري ما الذي يُسكته، لكنه لم يدرِ أن الشكوت سوف يُلقي به في دوّامة التّفكير على نحو لم يقدر أمامه على صدّ سيل الهواجس. ولمّا فكّر عرف أنه لا يريد أن يتورّط في هذه اللعبة أكثر. ولمّا تجلّت له حقيقة فعله أدركَ أنه تأخر وما عاد له من مهرب. خرج من المسجد مارًا بالفرسان والمنادي الذي عاود نداءه بين النّاس المحتشدين:

«السلاح في قصر الشيخ سالم، والخيل في مربط ابن الطاروف».

وبينما تهامس بعضُ الرجال مُستغربين دعوة المنادي للحرب في شهر مُحرّم؛ توقّف الهذّار باهتًا أمام رجل يغشاه البياض، فتعرّف فيه أبا السّواعد وأبناءه الثّمانية. أبصرهم بين المتطوعين المتحلّقين حول المنادي. يرفعون أذرعهم عاليًا:

«معاكم».

وأمسك الحاج عبدالله بن صالح بشاربه الأبيض، وهو يُجيل النّظر ثاقبًا عزُّوز الهذّار، يُذكره بحديث المقهى الذي ما مرّ عليه عشرون يومًا. فمرّرَ الهذّارُ بصره على أبناء الرّجل، عن يمينه سعد وسعود وسعيد ومساعد، وعن يساره مسعود وأسعد ومِسعِد وسعيدان.

رفعَ أبو غايب ذراعه عاليًا، يُرسل نظرة متردِّدة إلى أبي السّواعد، ويوفي بقَسمٍ أشهدَ عليه شاربَه أمام الرِّجال في مقهى بوناشي ذات ظهيرة غير بعيدة:

«معاكم».

***

اقتحمَ حُجرة نومِه شبه الخالية من الأغراض مع طلّة الصُّبح، يُلملم أشياءه على عجالةٍ وهو يُغمغم. ويُصفِّر في أوج ارتباكِه، ويُغني ويتلو من القرآن قِصار السُّوَر. يُشغِل لسانه عن الصّمت كيلا يموت. ويُلهي نفسه بالكلام كيلا يُفكِّر في كابوس الفجر. تمنطق بحزامه الجلدي، وصرّ خرقة قماشٍ على خبزٍ وأقِطٍ وتمر، وراح يُهرول في الحُجرة جيئة وذهوبًا يجمع بواقي حاجياته. فأقبلت أمينة على جلبته، ووقفت عند باب الحُجرة تحمل الرَّضيع:

«علامَ العجلة والسّفر بعد المغرب؟».

لم يسمعها زوجها الغائب في هذره، ولم يُطلّ على وجه الرّضيع. جثا يمدُّ ذراعه تحت الفراش، يتناول سَيفًا وخنجرًا وعلّقهما في نِطاقه. ارتخت عُقدة حِرز الصاجّة الجلدي حول عَضُدِه، فشدّه بعصبيّة ومسَّ العرق المتفصّد في جبينه بساعِدِه، ونهضَ أمام زوجته يوصيها خيرًا بنفسها والرّضيع. قال إنه سيلتقيهما تاليًا في بيت عمّتِه زَمزَم أم الخير في الجزيرة. بحلقت إليه أم غايب لا تفهمُ شيئًا من كلماته المنثورة في أرجاء الحُجرة:

«شي عجيب غريب والله فتح ابن الطاروف مربط خيله للرِّجال المتطوعين مع الشيخ سالم ورجاله وأنا منهم وقد أقسمتُ بشاربي

للرجال في الشّاي خانة ألا أتخلّف عن رجال بِن صَباح وسوف أذهب إلى المربط آخذ حصانًا أصيلًا أركبه إلى الجهراء مع الرِّجال وبعون الله أرجع معهم سالمين غانمين إلى الدِّيرة ادعي لنا يا أمينة والله المستعان أعودُ إذا ما ظفرنا بالنصر عقب طرد الإخوان وأركب البحر ونجتمع في الجزيرة ونبدأ عُمرًا جديدًا مع الولد سلّمي على عمّتي زَمزَم وقولي لها إني عائد بالسلامة والغنيمة إن شاء الله ولا تحرمني من دعائها واحذري أن تعرف بأمر الولد إلا أن الله رزقنا به بعد طول صبرٍ ودعاءٍ وبعد عبورك البِّيص».

كما لو أن البيعاريّة لم تسمع شيئًا من كلمات الهذّار المنثورة في فضاء الحجرة، قالت وهي تُجيل النّظر إلى السّيف والخنجر المعلّقين في نطاقِه:

«ماذا تقول؟! حلو حلو! هذا الذي ينقصني! اسمع.. عليك أن تبقى وأن تعرف شيئًا عن الولد».

تنكّبَ الهذّارُ صُرّة أغراضِه وما توقّف عند ما سمعه عن الرّضيع، هو لا يتوق إليه لولا أن زوجته تفعل. وعانق أمينة وتشمّمها، ثُمّ غادر دارَه راكضًا إلى مربط الخيل. وهي معقودة اللّسان كأنما صادر عزُوز الكلمات من فمها المفتوح قبل هروبه. ولمّا جلست في فراشهما الخشبي الخالي من الفَرش غائمة العينين؛ حلّت عُقدة لسانها وهمست:

«أنت الزّاروع في الجزيرة والبحّار في الدّيرة.. تشيل سلاحا يا أبا غايب؟!».

ثُمّ لَغلَغت البيعاريّة وسَمِعَ صوتُها في فضاء الحيّ فوق بيوت

الجيران، تكيلُ الشّتائم للهذّار الذي بدّدَ سلامة بيته وحفظَ كرامة شاربه.

***

مكثَت شايعة طويلًا عند دار شَيخ البحّارة سَنَد، تطرقُ بابها الخشبيّ العتيق بالصّفّاقةِ الحديديةِ وتعاود الانتظار دونما إجابة. تتعالى غير بعيدٍ عنها صيحات الرّجال حول المساجد عند الشّروق:

«الشور يا عيال.. الشور».

يتراكضُ الرّجال والفتيان وحدانًا وزرافات، مسلحين بالسّيوف والخناجر صوبَ الشور يحيرون وراءهم الغُبار. فعاودت أُم سليمان الطرقَ بصَفّاقة الباب تنادي:

«عَمّي سَنَد.. عَمّي سَنَد».

ولأن صاحب الدّار لم يرُدّ، عاودت الطّرقَ متأملة:

«سليمان يا وليدي.. رد على أمّك يا يُمّه».

غير أنّ سليمان لم يُجب أُمّه التي تفجّرت في رأسها نبوءة المولاف؛ إن أقبلتِ عليه أدبر. فتملّكها الخوفُ ولبثت أمام الباب لا تدري بمَ تعود إلى فضّة المعتكفة في حُجرتها، مُتربّعةً على سريرها صامتةً ساهمةً إلى الفراغ.

خرج من الباب المقابل لبيت بن هولين رجُلٌ يبدو في عجالةٍ من أمرِه، يحملُ بندقية يتبعه غُلامان. قال لـ شايعة إن العَم سَنَد لم يظهر منذ يومين، وإنه رآه آخر مرّة في طريقه إلى مَربطِ ابن الطاروف. ثمّ أسرع في مشيه ينادي ولديه أن يُعجّلا وراءه إلى

الشور، يصيح بالرجال المتناثرين من حوله أن يهرعوا إلى قصر السّيف يتزوّدون بالسّلاح والذّخيرة.

وقفت البلدة على ساقٍ واحدة وقت الشّروق، تلهجُ ألسِنة نسائها بالدعاء لرجالهنّ الملتحقين بصفوف جيش الأمير الحاكم، أو المرابطين عند الشور، يَخبرون جدواه أوّل مرّة، يستعدون لصدّ هجمات جيوش الإخوان إذا ما أخفق الشّيخ سالم ورجاله في دحرِهم في الجهراء.

وسارع منادو القصر بخيلهم إلى سِيف الحيّ الشّرقي، يوقفون رجالًا عقدوا العزم على دخول البحر للغوص على اللؤلؤ ثانية بعد موسم الغوص الكبير. رجال تهيّؤوا لحملات غوص الردّة، وأعدّوا السُفن والمراكب وركّبوا الحِبال وثبّتوا الصّواري وربطوا حمّالات الأشرعة. أعلَمهم المنادون بأمر الأمير إلغاء غوص الردّة هذا العام، فأيقن البحّارة جديّة الوضع، وأن الخطر لا يَحيق ببادية الدّيرة أو قراها البعيدة مثلما ألِفوا، إنما الشّرّ هذه المرّة يقترب من الدّيرة.

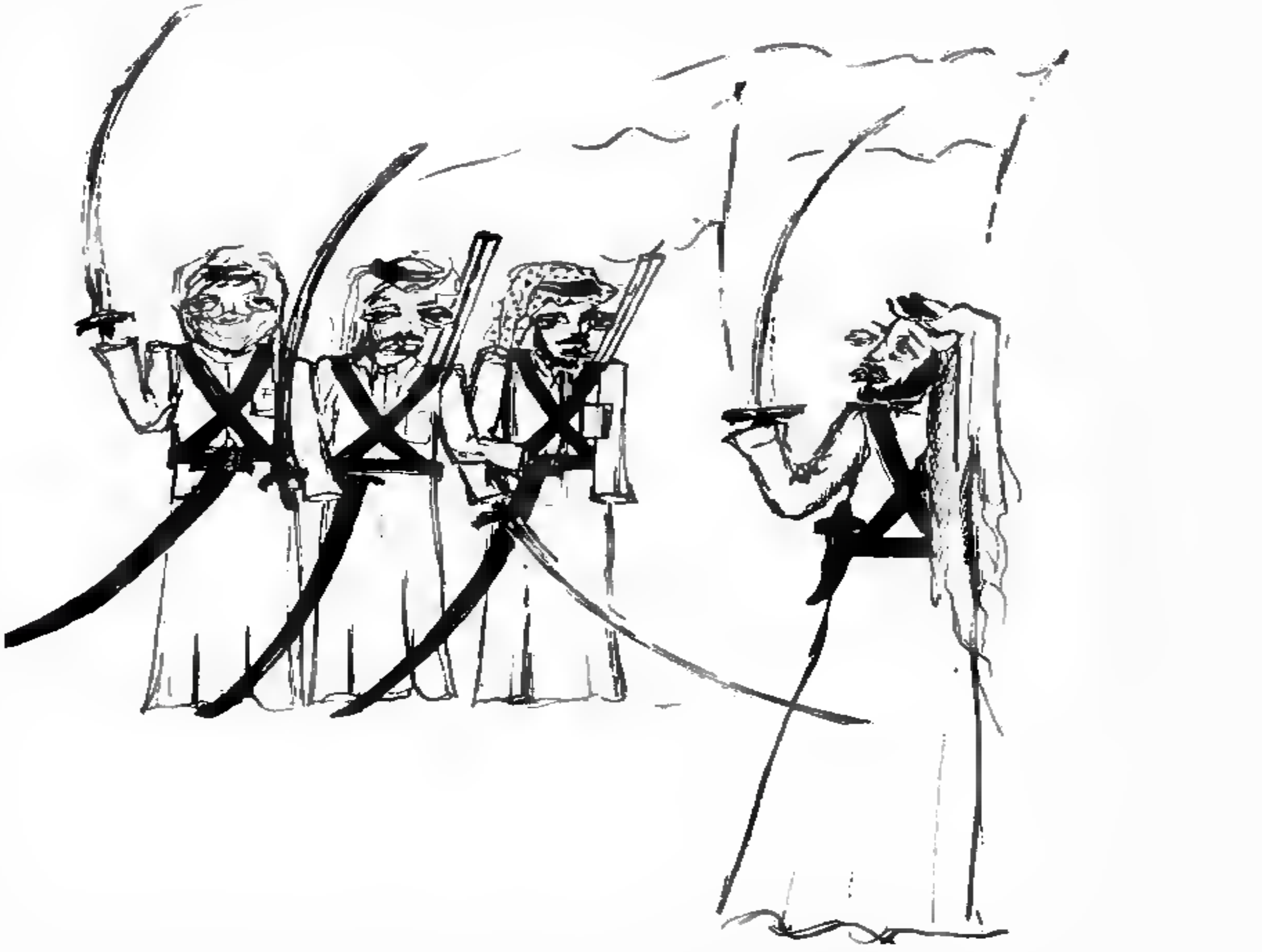

وما كاد رجالُ السُّوق يفتحون دكاكينهم حتى أغلقوها يهرعون إلى بوابات السُّور. واكتظّت الجموع مُتّقِدة الحماسةِ تتبع قرع الطُّبول. وهرولت العائلات اليهودية والعُمّال الهنود والفُرس يلوذون بدار الاعتماد البريطاني. ودبّت الفوضى في مَشفى الإرسالية. واصطفَّ الرِّجال عند السُّور في صفوفٍ مُتقابلة، يرفعون السُّيوف ويُلوحون بها في الهواء. يؤدون رقصة الحرب على قرع الطبول، العَرْضة، عَرضًا لجهوزيتهم للقتال. وعلى عكسِ وجهةِ الرِّجال غربًا إلى السُّور كان الميجور مور، بعد جولةٍ على البوّابات، يقود سيارته إلى دار الاعتماد ليُبرق إلى المندوب السّامي في الخليج بشأن ما حدث وما قد يحدث. فأقلقه ازدحام اليهود والعُمّال التّابعين للمعتمدية حول دار الاعتماد. واعتفس النّاس عند وصول المعتمد، مئة ونيِّف من

الأفراد بعضهم مع عائلاتهم يطلُّ من عيونهم الذُّعر. وزاحم الميجور بسيارته المتجمهرين الذين تكالبوا على دار الاعتماد يطلبون حمايتها. وترجلَ من السيّارة يهدئ الجموع يحاول النفاذ من بينها. تجاوز بين الزّحام حمدية وبناتها فأوقفته عند بابه امرأتان مجلّلتان بالسّواد كاشفتا الوجه، أولاهما عريضة الجذع قوية البنية، تملأ خدّيها الشّلوخ مثل مجاري دمعٍ داكنة. نزع المعتمد قبّعته أمام الثانية وتفرّس وجهها وهي تفرقعُ أصابعها. دنا إليها يراها في العباءة أوّل مرّة. بدت متعبة جافّة الشّفتين تتطاير ضفائرها الدّقيقة على جانبي رأسها خارج العباءة:

«مبروكة؟!».

وقبل أن تردّ مُمرّضة الإرسالية يابسة الرّيق صاحت بخيتة:

«أين عطا الله؟».

ولا يدري الميجور مور أين خادم دار الاعتماد، بيد أن الثّلاثة لمّا دخلوا حُجرة الجلوس، والمرأتان تناديان: عطا الله.. أبصروا مجسّم الكُرة الأرضية ملقًى على الأرضِ أسفل رفوف الكتب. وألفوا الخادم الهندي كانديد، يكنش حطامَ تمثال الملاك المجنّح.

«عطا الله لحق ساطور».

قالت مبروكة فخرّت بخيتة على الأرض عند طاولة الغرامافون، ولم يفهم المعتمد ولا خادمه كلمة من قول الأم التي وَلوَلت وهي تصفع وجهها بكفّيها:

«سوّد الله وجوهكم يا عيال بخيتة.. سوّد الله وجوهكم».

***

احتشدَ مسجد الشوق الكبير بالمذعورين، يؤمّنون خاشعين وراء المُلّا عبدالمحسن في دعائه دفعًا للبلاء. ولاذت النّساء بالدُّور مع الأطفال والعجائز والشُّيوخ. ووقفت صاجّات الدِّيرة صوامت على سطوح بيوتهنّ، مثل تماثيل مُجلّلةٍ بالسّواد مُشرئبّة الأعناق، يطللنَ من شقوق العباءات ويتطلّعنَ صوبَ الغرب. وحدهم شيوخ البحر على السِّيف حيث يُقيمون أبدًا، يُديرون ظهورهم المحنيّةِ إلى الدِّيرة. يحيكون الشِّباك على مهلٍ مع شروق الشّمس، وينظرون إلى البحر بلا عيون.

وشايعة بين الناس المتناثرين في سِكَكِ الدِّيرة، تنسلُّ مُسرعةً مُغبرةً تُيمِّم وجهها صوبَ الشّرق. تُسرع الخَطوَ إلى مَربط ابن الطاروف في «رأس عجوزة» عند أطراف السور في الحَيّ الشّرقي. البحرُ عن شِمالها، وعن يمينها مقبرة «هلال» حيث استقرّ زوجها في مثواه منذ سبعة عشر حولًا. تلتفتُ إلى سور المقبرة الوطيء، وتُتمتِم مُتعثرة الخَطوِ بعباءتها:

«راح ولدك يا بو سليمان.. راح الولد يا سهيل».

***

خطفَ عطا الله على ظهر جوادٍ أصيلٍ من نسلِ كحيلان، وانسلّ مثل طلقة البندقية، خارجًا من مَربط ابن الطاروف يلحق بسيِّدِه الأمير. *التّاجر الذي رفض تزويج ابنته لأخي، يُعيرني جوادًا أصيلًا: إذهب إلى الموت!*

تسابق ابن الطاروف مع السّيّاس يفرزون الخيل، وفرّق الكَديش

عن الأصيل وانتقى من أصائل الأحصنة والأفراس أشدّها بأسًا، وتبرع بها للفرسان المتطوعين في صفوف الشّيخ سالم. وامتطى عزُّوز الهذّار حصانًا أصهب أشاد به رجال المربط. وصاح الهذّار يُمطر صاحب الخيل بالشّكر وهو يفتلُ شاربه:

«ما شاء الله ما شاء الله حصان عجيب غريب والله قوّاك الله يا ابن الطاروف ومشكور على الحصان وإن شاء الله أعود به إليك سالمًا غانمًا قُول آمين وإن شاء..».

انطلقَ عَزُّوز على صهوة الأصهب يُثير وراءه الغبار والكلمات. يُقبل على مصيره، يفي بقَسَمٍ قطعه على نفسه أمام زوّاد المقهى القديم. ومرّ خاطفًا إلى جوار المرأة التي بدت بين رجال المربط مثل سوسَةٍ في ماعون أرُز. تقفُ بعباءتها السّوداء المعفّرة في السّاحة بين الرجال بدَشادِيشِهم البيضاء. فسألها ابن الطاروف يرفعُ صوته فوق صهيلِ الخيل وحمحمتها:

«خير؟».

«الخير في وجهك إن شاء الله».

أجابته شايعة قبل أن تدنو إليه مسرعة تسأله عن شيخ البحّارةِ سَنَد. تفكّر ابن الطاروف قبل أن يُجيب:

«جاءني بِن هولين قبلَ خمسة أيام، أخذ مني الرّملا وراح».

«راح؟ الله يردّه بالسلامة. هل أخبرك متى يعود؟».

«عادة الرّجل أن يكتري الفرسَ في الرّبيع، ويرحل إلى أبناء عمومته صوبَ جبل وارة.. لكننا لسنا في الرّبيع، والفرسُ التي كان

يكتريها.. هذه المرّة اشتراها».

أطالت شايعة النّظر إلى الرّجل من وراء البُوشيّة المنسدلة على وجهها:

«اشتراها؟!».

فَطِن صاحبُ المربط إلى ما ترمي إليه أُم سليمان. ختمَ يُبدِّد استغرابها قبل أن يُقفل إلى سيّاس خيلِه:

«بِن هولين باعَ البيت».

***

(33)

سُليمان في المقام

«على بركة خطوة الخِضر»

الشّمس في أواخر لحظات الأُفول. تَوارى ثُلثاها في الصّحراء، وأطلّ جبينُها الأحمر على الخليج المنطفئ. شمسٌ ناعسةٌ تتلصّص على الخلق قبل أن تخمد في الغرب جذوتها. وتُجيل النّظر إلى العالم قبلَ إغماضةِ المساء. عينٌ على القارب الذي يمخرُ عُباب الخليج ناشرًا شراعه صوبَ الشّرق، تُبصره الشّمسُ الناعسةُ منذ انسلّ من

شاطئ الوَطيةِ، مُخلّفًا وراءه أهالي الدّيرة مُتكوّدين على السّور يترقّبون العدُو. وعينٌ أخرى على رجال بن صُباح في الجهراء، تُبصر شرَرَ البنادق وغُبار الموت الأحمر.

السّماءُ ومياهُ البحر تلتهمان خطّ الأُفق، واحدةٌ تُلقي لونها الرّمادي على الأخرى. وصفحة الماء الرّقراقة، بفعل ثُلث الشّمس الباهت، تبدو مثلَ خرقة قماشٍ باليةٍ كامِدة. يتهادى فوقها القاربُ الشّراعي الصّغير في إبحاره نحو الجزيرة. يقطعُ المسافة إلى المرسى على بركة خطوة الخِضر. وعلى متنِه شِباك صَيدٍ وقُفّة من الخوص المجدول تضمُّ خبزًا وتمرًا وقلادةً من الأصداف والأظلاف. وصندوقٌ خشبي، وستة نفوسٍ يبدو منها سليمان وخَليفُوْه ورفيقاه زوج القطط الأثير؛ أشهَب وإلينور، غير مرتاحين لإبحارهما في مركبٍ يحملُ امرأة صامتة ثابتة مثل صخرةٍ سوداء.

هبطَ اللّيلُ وأرخى خَليفُوْه الشّراع. وعلّق سِراجًا على الصّاري الصّغير، ولاح له خيال الجزيرة داكنًا في الظلام. *بانت فيلكا*. ثمّ راح يُجدّف مع سليمان عند ذيْل المركب إلى أقصى شمالِ غربِ الجزيرة صوبَ مرسى قرية سعيدة. يُجدّف سليمان ساهِمًا مُتفكّرًا كيف وصلوا بهذه السّرعة، وفكّر في جنون قراره بأن يترك الدّيرة في ظرفٍ كهذا. يُكابر في قرارة نفسِه. *لا أريد رؤية أحد.. لا أمي ولا فضة*.

ليلُ الجزيرة حالك، وهِلال نهاية الشّهر يطلُّ دقيقًا مثلَ قُلامةِ ظُفرٍ بين نجوم وارتها السُّحب. تبادلت القِطّتان النظر فيما بينهما، والتمعت عيونهما تُضمران ذاكرة مشتركة. ثمّ تقهقرتا من مُقدّمة المركب إلى مؤخرته بحذرٍ كيلا تنتبه لهما المرأة المحتجبة وراء

عباءتها. وما كاد خَليفُوْه أن يُرسي مركبه حتى اندست القِطّتان في قُفّة الخوص تُخبئان ذيليهما بين قوائمهما. ألقى أبو القطاوَة مرساته في الماء، ولفّ حبلَ المركب حول أحد الأعمدة الخشبية بين صُخور المرسى. هبط حافيًا يصيح باللائِذَين بقُفّة الخوص في مؤخرة القارب:

«أشهب.. إلينورا!».

غير أن أحدًا منهما لم يطلّ برأسِه خارج القُفّة. ولم يصدر عنهما إلا خرخرة أنفاسٍ خافتة. أمسك خَليفُوْه جانبَ المركب يلُزُّه بالصُّخور يدعو المرأة المجلّلة بالسّواد إلى النزول، وضوء السّراج المترنّح يُراقص الظِّلال. تلكأت المرأة عند النُّزول. تقدّمت إلى طرف القارب وأظهرت ذراعيها من وراء العباءة تمدهما إلى خَليفُوْه. قالت:

«هاك.. إمسك الرّضيعة».

مال الشّاب بجذعه إلى الوراء كأنه يتحاشى ضربة سيف. رفع ذراعيه يهزُّ رأسه بالرفض ودلالات النُّفور على مُحيّاه. تقدّم إليها سليمان، يوازن خطوَهُ على سطح القارب المتأرجح في مَرساه، مستنكرًا مبالغة صاحبه مُبغِض الأطفال. وقف عند الصّاري في منتصف القارب ومدّ ذراعيه يفتعل ابتسامة لا تشبه حاله.

«هاتيها».

رفضت المرأة وهي تحاول النُّزول فكادت تقعُ متعثرة بحاشية عباءتها، وخَليفُوْه يقفُ فوق آخر صخور المرسى رافعًا يديه ما زال.

بدا الارتباك واضحًا في تلفُّتِ المرأةِ وعدم نطقها بكلمة. تُدير

وجهها في كلِّ الاتجاهات إلا جهة سليمان:

«يا بنت الحلال! هاتيها».

قال سليمان وهو يمدُّ ذراعيه إلى المرأة ما زال. فمدّت يديها المرتعشتين إليه صاغرةً تُداري خوفها. وحملَ الشّابُ الكائنَ الصّغير بين ذراعيه. وأطرق على ضوء سِراج الضّاري يتفرّس في وجهه، ألفاهُ يغطّ في النّوم بفعل سِحر «ماي غريب». وادع الملامح: العينين الكحيلتين المغمضتين، الكفّ المكتنزة المتسلِّلة من القِماط، باطن الكف المخضوب بالحِنّاء، والمعصم المطوّق بالأساور المذهّبة

الرخيصة. انحنى يُقبّل الجبين الطريّ باسمًا وقد انبجس الدّمع من عينيه:

«الله يحفظها ويبارك فيها ويجعلها من الذُّرية الصّالحة».

قال سليمان للمرأة بعدما هبطت على صخور المرسى. لم تُجِب وهي تمدُّ يديها تسترجع وديعتها الصّغيرة وتُخفيها داخل عباءتها. أشارت إلى خَليفُوْهْ صامتةً بأن يُنزل صندوقها الخشبي من القارب. عاونها أبو القُطاوَة ومضى وراءها إلى موضع الحَمّارةِ في ساحة المقام المظلمة. وعثرت لحسن حظها على حَمّارٍ في هذا الوقت، لكنه اعتذر وتحجّج بانتظاره إحدى النّساء تزور المقام، فدسّت المرأةُ المالَ في كفّه، وهمسَت:

«القرينية وأنت ساكت!».

فامتطت المرأةُ الحِمارَ مع صندوقها الخشبي، والرّضيع غائبٌ في عباءتها. وتابعها خَليفُوْهْ يُشيّعها ببصره، وهي تُطبق ساقيها على أحد جانبي الحِمار حتى اختفت في الخِرمِس. ثمّ عاد إلى قاربه بعدما هبط منه سليمان الذي وطِئَت قدماه أوّل يابسة بعيدًا عن أسياف الدِّيرة. وعاود خَليفُوْهْ مناداة صاحبيه:

«أشهب.. إلينورا!».

ولأنهما لم يخرجا من القُفّةِ صاح:

«واللعنة!».

قفز إلى مؤخرة القارب. وطرد القِطّتين من القُفّة فحملها وقفزَ ثانية إلى الصّخور مثل قِط. فأشار بذقنِه لـ سليمان صوبَ مقام

الخِضر المطل على المرسى الصّغير. ولم يُبصر صاحبه من المقام إلا سِراجًا مُعلّقًا عند المدخل بالكاد يُرى، يشعُّ مثلَ نجمة قصيّة تُرشده إلى مناله البعيد حيث مطالبه المستحيلة. تلكأ خَليفُوْه مبطئًا في خطواتِه يمدُّ ذراعه يطلب من سليمان أن يتقدّمه. وتفهّم ولدُ شايعة ومشى قُدّام الشّاب الذي لا يُدير ظهره لرجل. ومضى الاثنان على هدى سِراج المقام، مثلَ زوج يعاسيب يقتفي الضّوء في ظلمة اللّيل.

المكان هادئٌ في ليل الجزيرة إلا من صوت زحف الموج الرتيب وصرير الجنادب وصوت يشبه النّهيق ولا يُشبهه. تجاوز الاثنان ضريح سعيدة، وارتقيا عتبات المقام يرفعان أطراف دِشداشَتَيهما، حيث كان شبيه الأقزام صَنقُور، قصير القامةِ والدّشداشَةِ حافي القدمين، يقفُ أسفل سِراج المدخل، يسكبُ الماء على العتبات الصّخرية، ويغسلها من دَمِ الأُضحيات الذي أراقته زائرات الخِضر طول النهار. صوّب بصره إليهما بعينيه الغائرتين وراء خدّيه المكتنزين؛ سليمان يتفحّص المكان الغريب وقد حطّت أعلاه طيور اللّوْهَةِ التي غادرت البيت المثلّث في الدّيرة. وخَليفُوْه يشيلُ القُفّة بيُسراه، ويُخفي إبهامه في باطن كفّه وراء ظهره. يتلفّت إلى الوراء بين حين وحين.

كانت حُجرة المقام تتضوّع بدخان اللُّبان، حتى لا يكاد زائرها أن يُبصر أم صَنقُور المتربّعة على الأرض في منتصفه. والاثنان، أسفل سِراج المدخل الذي تؤرجحه ريحٌ خفيفة. وقفا عند عتبة الحُجرة يُنصتان. وكانت خادمة المقام توصي امرأةً برضيعها، وتشرح لها كيف تسقيه «ماي غريب». ثمّ ناولتها قطعة من لحاء طلحة أم الخير المُباركة:

«اغليها واشربي ماءها، واسقي الرّضيع على ما قلت لك من ماي غريب.. وما عليكما شر إن شاء الله..».

والرّفيقان عند الباب يُصيخان السّمع لحوار المرأتين في غيمة الدُّخان. فتواصل أم صَنقُور بصوتٍ كأنه صفير الصّدر:

«قومي الآن فالحمّار ينتظرك.. باتي ليلتك في بيت زوار المقام، وإن أصبح الصبح ارجعي إلى الديرة».

شكرتها المرأة، فلفظها الدُّخان الأبيض عند عتبة المقام كما لو أنها انبثقت من جدار. مرّت بسوادها مثل ظلّ لَوْهةٍ خاطفةٍ بين خَليفُوْه وسليمان المتردّد بالدُّخول.

«من هناك؟».

صاحت خادمةُ المقام المتدثّرة بالدُّخان الأبيض. أجابها خَليفُوْه:

«خليفة وبس.. ومعي صاحبُ حاجة».

أجابته أم صَنقُور رافعة صوتها:

«خَليفُوْه! هذي السّاعة المباركة.. أسفرَت وأنوَرَت.. واستهلّت وأمطرت».

فارتفع صوتُ المرأة في الخارج من ساحة المقام:

«أين ذهبَ حمّار الشؤْ!».

كتمَ خَليفُوْه ضِحكة وهو يدفع صاحبه بكتفِه يُجبره على الدُّخول. وأحكم سليمان لثامَهُ على أنفِه وفمه يُصفّي أنفاسه من شحُب الدُّخان. وتبعه خَليفُوْه بعدما ترك القُفّة عند عتبة الباب. فأطلّت

المرأة من وراء الباب على الدّاخل تشتكي للصاجّة:

«راحَ الحمّار لا بارك الله فيه ولا في حِماره.. ما العمل يا أم صَنقُور؟».

«ابنة حلال أنتِ يا هيلة والله العظيم».

أجابتها خادمة المقام فصوّبت سبّابتها نحو خَليفُوْه تستطرد:

«..عودي مع خَليفُوْه الليلة، على بركة خطوة الخِضر إلى الدّيرة».

وسارعت المرأة نحو المرسى تنتظر على سطح القارب. وتربّع خَليفُوْه وسليمان على الأرض أمام خادمة المقام، يفصلُ بينهما وبينها موقد حطبٍ لا تَني المرأة تُغذيه بقِطَع اللُّبان تصنع مزيدًا من الشُحُب الكثيفة. لم يُقابل سليمان صاجّة مثل أم صَنقُور قط، لا تحيطها هالة هيبة رغم رهبةِ المكان. سألته بصوتٍ يُشبه حمحمة الفرَس:

«إِسم أمّك؟».

«أُم سليمان».

أجاب سليمان، ثمّ طشّت المرأة مزيدًا من البخور وارتفع صوتُها:

«حممممم!».

تدخّل خَليفُوْه يُجيب:

«شايعة.. إِسمها شايعة».

قرّبت أُم صَنقُور وجهها إلى خَليفُوْه بين دُخان البخور. ارتعب أبو القُطاوَة من وجه المرأة بجبهتها العريضة تقترب منه أوّل مرّة

إلى هذا الحد. حدّق إلى منخريها المختلجين، وعينيها الجاحظتين والزّبد المتكلّس في شِدقَيها، وشفتيها الغليظتين المنفرجتين عن أسنانٍ مصفوفةٍ ينقصها ناب. سألته:

«اِسم أمّك شايعة؟».

أجاب خَليفُوْهْ وهو يُشير إلى سليمان الغارق في صمتِه:

«لا.. اِسم أمّه».

بحلقت إليه خادمة المقام مُحمرّة العينين:

«إذن ألصِق لِسانك في لهاتك وإلا قطعته مِن عِرقه!».

انكمشَ خَليفُوْهْ. والتفتت المرأة إلى سليمان تُطيل إليه النّظر:

«أم صَنقُور تسأل مرّة ولا تُثنّي».

ارتعشت شفة سليمان وهو يُجيب:

«شايعة بنت نورة».

«مطالبك؟».

تلكأ سليمان، فلكزه خَليفُوْهْ بِمرفقِه في خاصرتِه يدفعه ليُفضي. فأجاب ولد شايعة:

«تخلّيث عن ولدي و..».

قاطعته خادمة المقام:

«أعرف ما صار. أسألك ماذا تُريد أن يصير؟».

انفلتَ لسان سليمان يُقارع عَبَراته من وراء لِثامه:

«لا أدري.. لا أريد رؤية أهلي والناس وكلام الناس، لكني لا أقدر على مفارقة الدّيرة في الوقتِ نفسِه. وأريد أن أعرف كيف تكون حياة ولدي.. وأريد أن أُخبره أنني تركته عندما تُرِكت».

«بس؟».

سألته المرأة مستهينة بمطلبِه. وهزّ سليمان رأسه يؤكد، فأغمضت الصاجّة أُم صَنقُور عينها وقالت إنها سوف تسأل معشرًا من الجّن. رفعت رأسها تُغمغم طويلًا وتُسمي مطلب سليمان، ثُمّ رتّلت من القرآن الكريم آية من قليل ما تحفظ:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾.

قاوم سليمان ارتجاف جسده وأمعن حِسّهُ يتحرّى دبيب النّمل المذعور في صدغيه. وأردفت صاجّةُ الخِضر تُرتّل قليلَ ما تحفظ من القرآن وتطوّعه على مُشتهاها، وهي تُشير إلى جدران حُجرة المقام تُلمح للخِضر:

﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

أشاحَ سليمان ببصره بعيدًا عن صاجّة الجزيرة. فحملقت فيه خادمة المقام:

«لا تُدِر وجهك يا ولد! ما تدري أنه كلام الله؟».

أخفضَ سليمان رأسه. *لا نمل ولا دبيب*. ورفع بصره يحدج المرأة شزرًا وهو يُتمُّ الآية:

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾.

امتعضت الصاخّة أم صَنقُور من حفظ سليمان للقرآن الكريم. وسكتت عن التّرتيل، تدّخرُ قليلَ آياتٍ تحفظها لوقت الضّرورة. فأشاحت ببصرها صوبَ الباب مُبرطمة قبل أن تُنادي ابنها:

«يا صَنقُورا».

«لبّيه يُمّه».

أقبل صَنقُور القصاصة. فأشارت إليه أُمّه أن يحمل موقد الحطب ويضعه عند عتبة المقام. وتعلّق الدُّخان بالسّقف الأخضر وانجلى، واتّضحت الرؤية على ضوء السّراج. وفكّ سليمان لِثامه وتراءى له بعد أفول الدُّخان وجه أم صَنقُور صورةً عن وجه أم حَدَب، غير أنها في نصف عمرها تتمتع ببشرة سوداء ما نال منها البَرَص نصيبًا. أخرجت من ثوبها العجينة السّوداء. وكشطت قطعة صغيرة رمتها في جمر مَبخَرة، واستنشقت دخانها فانفرجت أساريرها وابتسمت. وسليمان المتربّع على الأرض يرقب تحوّل مزاجها من حالٍ إلى حال بعد استنشاقها دُخان الشيء الغريب.

نهضت أم صَنقُور تتكئ على ركبتيها، تحملُ شحومَ عجيزتها على ساقيها الدقيقتين وحافرَي الحمار المزعومَين المستورين بحاشية درّاعتها الخضراء الطويلة. وتهادت إلى ركن الحُجرةِ الصّغيرة صوب صندوقٍ خشبي مطعّم بالنحاس الذّهبي المطروق، ورفعت غِطاءه تبحث عن قرطاسٍ وقلم بين أشيائها الغريبة؛ زجاجات «ماي غريب»، وعقاقير متنوعة من دِهانات وأعشاب وبذور في زجاجات

صغيرة مصفوفة بين مجموعةٍ من مجلداتٍ ضخمةٍ خُطّ على كعوبها: سِفر كائنات مدينة الطين، ورزنامة مدينة الطين، وحوليات مدينة الطين، ومجلدان صغيران للفصلين السّابع عشر والثامن عشر من كتاب شمس المعارف الكُبرى، أولهما في خواص «كهيعص» وحروفها الربانيات الأقدسيات، وثانيهما في خواص آية الكرسي وما فيها من البركات الخفيات. وسلسلة أسفار مدينة الطّين ينقصها كتابان أعطتهما أم صَنقور إلى ولدها مستور قبل سِتّ سنوات، حينما هجر الجزيرة مبعوثًا من أمّه إلى الدّيرة، وطلبَت منه المكوث هناك ولا يبارح مكانه حتى يسأله عن الكتابَين أحدٌ لا يدري أحدٌ من يكون.

تلفّت سليمان يراقب تفاصيل حجرة المقام في أوّل مرّة يطأ فيها جزيرة فَيلَكا؛ خِرَقُ القماش الخضراء مدسوسة في شقوق الجدران، بين لطخاتِ الحِنّاء وآثار الكفوف المخضّبة بدماء الأضحيات، وطلاسم وآيات من القرآن الكريم. وأقفلت خادمة الخِضر من رُكن الصّندوق إلى ضَيفيها الوافدَين من الدّيرة، تقول لولد شايعة:

«ما دُمت تحفظ القرآن فلا بُدّ أنك ربيب الكُتّاب، وما دُمت ربيبهم فأنت تُحسن الكتابة..».

ألقت بقرطاس وقلم في حجر سليمان المتربّع على الأرض:

«..اكتب ما تريد إخباره لولدك».

تقطّب جبين سليمان من دون أن يفوه بكلمة. وصاحت عليه أم صَنقُور:

«أم صَنقُور كلمتها واحدة ولا تُثَنّيها!».

أطرق سليمان يكتبُ صاغرًا. وضع القرطاس على الأرض وراح يدوّن بكفٍّ مرتعشة:

«بسم الله الرحمن الرحيم..».

أبقى رأس القلم على القرطاس يُفكّر فيما سوف يكتب، كما لو أن ولده يطلُّ من وراء كتفِه على القرطاس يقرأ الكلمات:

ولدي سيف.. بعد السلام عليك ورحمة من الله وبركاته.. إعلم يا ولدي إني أبوك سليمان بن سهيل، وأني والله ما..

وبينما يكتب سليمان رسالته صرفت الصاجّة خَليفُوْهْ من الحجرة. فصاح سليمان بصاحبه:

«خَليفُوْهْ!».

أجابه صاحبه ماضيًا:

«كلمة أُم صَنقُور واحدة لا تُثنّيها».

ثُمّ انحنى على القُفّةِ عند باب حُجرة المقام، وأخرج منها القلادةَ التي خشخشت بين يدي أُم صَنقُور وهي تُمرّر أصابعها بين صَدَفةٍ وظِلف. وبدا الرّضا على وجه كبيرة الصاجّات المتوّجةِ مقاليد الكِهانة منذ أُثمونَين ويومين. وقالت لِـ خَليفُوْهْ تُكافئه بعدما تقلّدت إرث أُم حدَب الموروث من أم جوهر الموروث من صاجّات مدينة الطّين الراحلات:

«ألا مطلب لك أتوسط لك فيه عند الخِضر المبروك؟».

تهلّل وجههُ وهو يُجيب صاجّة الجزيرة:

«الرّزق والبركة يا أم صَنقُور. وأن تنبت لي حواجب وشارب ولحية بارك الله فيك».

«أبشِرا».

قالت ثُمّ مدّت كفّها مبسوطةً إلى الشّاب:

«اِنتف لي شعرة أعملُ لك منها، ببركة الخِضر، حِجابًا».

ثُمّ لعلعت ضحكتها مثل صيحة ديك الحبش، فتركها الشّاب الأملط ساخطًا مهرولًا خارج حُجرة المقام. وارتدت الصاجّة الضّحوك القلادة فوق صدرها العامر. فالتفتت مُنشرحة الصّدر إلى سليمان الغارق في الكتابة، باسمة كأنها لم تكسر للتّو قلب خَليفُوْه:

«ها؟ خلصت؟».

مدّ إليها سليمان كفّهُ بالقرطاس. فلفته بخرقةٍ مدبوغةٍ من وبر البعير. ودسّتها المرأة في جيب صدرها العظيم، ثُمّ فتحت زجاجة صغيرة وأفرغت في كفّها بضعًا من بذور عين العفريت. فبسطت كفّها أمام الفتى:

«خُذ واحدة وابتلعها الآن».

بدا الارتياب على وجه سليمان الذي سأل عن تلك البذور الحمراء المنقوطة بالأسود. أجابته:

«اِبتلع واحدة وتموت في ثلاثة أيام».

«ما نشدتكِ الموتَ يا أُم صَنقُورا».

قالَ سليمان عاقدًا حاجبيه يميلُ رأسه زامًّا شفتيه. *لو كنت*

مستعدًا للموت للحقت برجال الشّيخ سالم.. والله ما علّمني العم سَنَد حمل السّيف إلا لهذه السّاعة لو أني..

أجابته المرأة حادّة الصّوت:

«تتحقّق مطالبك يا ولد شايعة إذا ما مُتّ ودُفِنت في الذّيرة؛ فلا تُفارقها، وهذا مطلبك الأول، ولا تُقابل أمك وأختك من الرضاعة أبدًا، وهذا مطلبك الثاني، وإذا ما كبر ولدك أعطيه قرطاسك الذي قلت فيه ما تريد.. وهذا مطلبك الثالث».

«ولا تتحقق مطالبي إلا بالموت؟!».

«أو ما سوف يظن أهلُ الذّيرة أنه الموت.. هناك سبيلٌ ثانٍ يا ولد شايعة».

تململ سليمان في جلسته ونهض مُتأفِّفًا إزاء أحاديثها الملغّزة. وأفلتت أم صَنقُور زفرةً طويلة قبل أن تسأل:

«الأول أم الثاني؟».

«إن كان في الأول موتي، لا أريد. لكن ما الثاني؟».

«أم صَنقُور لا تُثنّي.. لكنها إرادة كاتب الأسفار».

قالت كبيرة الصاجّات خادمة الخِضر، فمضت وتبعها سليمان إلى عتبات المقام في الخارج حيث حطّت طيور اللّوهة تمدُّ أعناقها الطويلة وتحملق صوبَ عتبة المقام السُفلى، وقد أقعى خَليفُوْه هناك على الأرضِ، يُطأطئ كما لو أنه يُصلي أمام قبر. يُغمغِم ويموء بصوتٍ خفيض، ويلهجُ باسم ليل ويدعو له بالراحة والرحمة.

انحنت خادمةُ المقام بصدرها الرّجراج تتدلّى قلادتها على موقد الحطب عند العتبة العُليا، وبصقت في جمر الموقد فانتشرت في الهواء خيوط الدُّخان لولبيّة مثل قرون الشّياطين. ثمّ واجهت البحر بصدرها وهي تتحسّس قلادتها الجديدة تُشرف على سِفرٍ جديد، وأنصتَ سليمان إلى صوتها العجيب وكلامها الغريب بلُغةٍ ما مرّت عليه إلا في الكُتب:

«الحل الثّاني، يا ولد شايعة، معجزة لا قدرة لخلقٍ مثلنا على تحقيقها. والمعجزة في زماننا لا تصيرُ ولا تُرى مرأى العين إنما تُكتب في الكتب بالقلم. هو أمرٌ بيد كاتب الغيب في الأسفار، هو الذي يكتبني ويكتبك، وهو الذي أمرني أُخبرك؛ لو أبحرت إلى الذّيرة في الحال على طريق خطوة الخِضر عليه السّلام، تصلُ بعد منتصف اللّيل. وهُناك في الوَطية، اخلع نعليكَ وادخُل الماء عند ارتفاع أذان الفجر. واجعل صخرة الخِضر وراء ظهرك، وقِف حينما يُحاذي الماء سُرّتك. وبعد سماعك آخر كلمةٍ من الأذان اِبدأ بعدّ الموج.. واحدة.. اثنتان.. ثلاثة.. حتى إذا ما أقبلت الموجةُ السّابعةُ ادخُلها تبّةً كاملة، ولا تخرج وإن انقطع نفَسُك.. حينها فقط تتحقق مطالبك يا ولد شايعة».

ارتبك سليمان:

«لا أخرج وإن انقطع نفسي؟! هذا موتٌ ثانٍ يا أُم صَنقُورا».

هزّت رأسها:

«لن تموت، ولكنهم يحسبون».

ثُم نادت خَليفُوْه أن يقترب إليهما عند عتبات المقام ليشهد الحدث

والحديث. والتفتت إلى سليمان ثانية:

«تخرج من البحر بعد التَبّة، تلاقي نعلَيك عند خَليفُؤهْ.. واحذر أن تلبس نعلين غير نعليك، وامشِ حافيًا يا ولد شايعة حتى تأخذهما من خَليفُؤهْ».

التفتت إلى خَليفُؤهْ:

«اِسمَع يا ولد.. نعليه لديك أمانة.. قف على السّيف ولا تُحيد بصرك عن موضع تَبّةِ صاحبك وإياك أن ترمش رمشة واحدة قبل خروجه، أما إذا رمشتَ فخذ نعليه وأقفل إلى دارك واحفظهما أمانة حتى يجيء.. واحذر أن تعيش الدّهر، فينبت في رأسك الشعر، ولا تموت أبدًا إن لم تُسلّم الأمانة إلى صاحبها الحافي لمّا يرجع».

أومأ أبو القَطاوَة يفهمُ شيئًا ولا يفهمُ شيئًا، يتوق إلى تحقُّق نبوءة الشّعر، ويدري أن كلام الصاجّات يُفهم بعد حين. وتسارعت أنفاس سليمان وهو يدش كفّه في مخبَى دِشداشَتِه، وأحصى من خمس زُوبِيّاتٍ استلفها من سعدون أربعًا، ومدّها إلى صاجّة الجزيرة وهو يُعيد الزّوبية الخامسة إلى مَخباه:

«أم صَنقُور! رحم الله والديك آنا ضايع.. فضّة.. أمّي وولدي.. لا أريد إلا أن.. افهميني يا بنت الحلال.. افعلي شيئًا غير هذا الذي لا أفهمه الله يرضى عليك».

أشفقت الصاجّة عليه وهي تُطبق كفّها على الزّوبيّات الأربع:

«سوف تتحقّق مطالبك ولن تموت، وسوف يأخذك كاتب الأسفار إلى سِفرٍ جديد تحقق فيه ما تريد.. إذا ما أتممت التَبّة واغتسلت بماء

الموجة السّابعة أخرج من البحر وعد إلى الدّيرة واسأل عن بيت مستور المُصَوْقَر.. بيت من؟».

ولأن أم صَنقُور تقول القولَ مرّة ولا تُثنّي؛ سألته أن يُعيد الاسم كي لا ينساه، فأجاب:

«مستور المُصَوْقَر».

«قُل له تسلّم عليك أمك، وتقول لك سلمني الأمانة وارجع إلى الجزيرة».

عقدت أم صَنقُور طرف ملفعها على الرُّوبيّات الأربع، ثم صاحت بِـ صَنقُور. وجاءها القصاصة يرتقي عتبات المقام مُتقافزًا حافيًا مُغبر القدمين:

«لَبّيه يُمّه!».

دفعت سليمان بكتِفِه ليهبط العتبات. ثمّ قالت لابنها وهي تُشير بذقنها صوبَ مرسى المراكب مقابل ساحة المقام:

«رافقه إلى الديرة، وعاونه على التَّبّة».

وقالت لولدها إن شقيقه مستور أخيرًا سوف يعود إلى الجزيرة، فتهلّل وجه صَنقُور وشعّت ابتسامته وغاصت عيناه وراء خدّيه المكتنزين:

«وأشرب معه الشّاي هنا في الجزيرة؟!».

«وتشرب معه الشّاي في الظهر مثلما اعتدتما قبل ستة أحوال».

ومضى بصحبة سليمان وخَليفوْه إلى القارب، تُشيّعهم صاجّة

الجزيرة بناظريها وهي تصيح على ولدها وهو يختفي مع سليمان وخَليفُوْه في الظلام:

«غطسه ولا تغطس!».

فأجابها وهو ماضٍ إلى القارب:

«لا حاجة للغطس ما دام مستور سيرجع».

وأبحرَ خَليفُوْه إلى الدّيرة ليلًا، على بركة خطوة الخِضر. يطفو قاربه على صفحة الماء السّوداء. يصحبُ سليمانَ بن سهيل وصَنقُور القصاصة وأشهب وإلينور والمرأة الغريبة. وما انفكَّ زوج القِطَط يُشهر آذانه يُرهف السّمع، كلّما غَمغَم الكائن تحت عباءة المرأة التي خرجت من المقام.

***

(34)

القصر الأحمر

وإيّاكَ أن تلتوي أو تساوم أو تنحني

فخلفكَ قومٌ يطلُّون لك

من شقوق العباءات

سليمان الفلَيِّح

نزلَ بِن صَباح برجالِه عند مشارف الجهراء، يَرِدون آبارها وقت الضُّحى. وأمر الفُرسان بألا تُكثر الشُّربَ خيلُهُم، إلا مقدار ما يسعفها على ترطيب جفاف أميالٍ دكّتها الحوافر دونما راحة. فشربت الخيلُ باعتدالٍ كيلا ينطفئ العزمُ إذا ما أُتخِمت البطون. وما كاد الرِّجالُ يلتقطون نَفَسًا أو يروون عطشًا حتى استقبلتهم أخبار القرية المنكوبة، وقد سبقهم إليها الإخوان في غارتهم وقت الشُّروق.

لاح للأمير ورجاله حشدٌ من النّاس يركضون ويمتطون الجِمال والأحصنة والبغال، يسبقون غبارهم وظلالهم مقبلين نحو الآبار على مبعدة سِتّة أميالٍ شرق الجهراء. وأوجسَ الفُرسان ريبة من المقبلين. فتأهبوا وارتفعت الرّايات وأُلقِمَت البنادق وأُشهرت السّيوف. وأحاط الفداوية بالشّيخ سالم أمام الغرباء وصيحاتهم، ثمّ أُخفضت البنادق والسّيوف حينما تعالى في الضّجيج المقبلِ بكاءُ أطفالٍ وولولة نساء.

تدافع الفارّون من القرية إلى الشّيخ سالم ورجاله على تخوم الجهراء، يهجُّون بجِمالهم وقطعان غنمهم وبغالهم وكلابهم. مُتعرّقين مُغبرين، يحملون أخبار الإخوان المعسكرين غربي القصر، يصوِّرون

ما خلّفته كتيبة واحدة في القرية وبساتينها من نارٍ ورمادٍ وذخانٍ ودماءٍ وجثث، وصُراخ من بقي وراءهم على قيد الحياة من نساءٍ وأطفالٍ نالهم من حُسن الحظّ، أو رُبّما سوئِه، ما أبقاهُم على قيد حياةٍ تُقارب الموت، بين جرحى وثكالى وأيتام، يلوذون وراء الأسوار العالية بساحة القصر الأحمر.

هبّ الفُرسان إلى القصر يُطاردون ظلالهم إلى الجهراء، ويمّمَ الفازُون بالعجائز والشُيوخ والنّساء والأطفال والدّواب وجوهَهم الهلعة شرقًا، يقودون ظلالهم إلى الدّيرة.

***

ضربَ الإخوان خيامهم غير بعيدٍ عن القصر الأحمر. قصر قائم فوق رابية تُشرف على البحر على مسافة ميلين ناحية الشّرق. وأولوا ظهورهم لمعسكرهِم مُصطفّين مُتشمّرين. يواجهون الجدار الغربي للقصر بعدما غارت واحدة من كتائبهم على القرية في باكر الصّباح.

اصطفُّوا مُتأهبين صامتين، حُمر العيون تطلُّ بارقة من وراء اللُّثم.

يولون صدورهم للشرق حيث يتقدّم رجال بِن صُباح ببطء وترقُّب. وتوسّط أميرُ الكويت وقائد العسكر الصّف الأول، بين جناح الميمنة يقوده بِن طوالة، وجناح الميسرة يتقدّمه دعيج الفاضل، مخلّفين جدار القصر الغربي وراء ظهورهم، يواجهون معسكر الإخوان الذي برزت فيه الرؤوس مُعتمِرةً الغُصابات البِيض فوق الشُمغ الحمراء.

صاح أميرُ إخوان من طاع الله على حمَلة الرّايات أن يتقدّموا الصّفوف فور ما لاح له جيش الشّيخ سالم في المواجهة. كل حامل رايةٍ يقود كتيبة قوامها ما يربو على الخمسمئة مُقاتل. صاح أميرهم ثانية. وزفعت البنادق وأشهرت السيوف، ثمّ تقدّم بجواده بضع خطوات قبل أن يصيح ثالثة:

«الرّاجفة».

فارتفع دويُّ بارود البنادق مثل هزيم الرّعد، وتعالت الصّيحات وأهازيج الحرب ترهب الخصم:

«إبراهيم يا عمود الدين، محمد يا رسول الله.. هبّت هَبُوب الجّنة، وين أنت يا باغيها؟».

والرّاجفة مازالت تنتز أصداء دوّيها، تخلعُ بثورتها روحَ المرءِ خَرَعًا وارتجافًا، بصخب هتافات البنادق وثورة الدُّخان والغُبار وصيحات جُند من طاع الله، قبل أن تتخضّب ساحة القتال بدماء الشُّهداء وموتى الآثمين. وحده ساطور بين اللّجّةِ لا يُطلق نارًا ولا يُرَدِّد صيحة، مكسورًا على صهوة فرسه السّوداء بلا عزم ولا همة. يُقبل على مصيرٍ في علم الغيب، وأخشى ما يخشاه أن يكون أخوه ضمن الصُّفوف المقابلة على مرمى بصر ورصاصات الإخوان.

وَجَمَ جيش بن صُباح أمام الرّاجفة التي خبرها في معركة حَمَض قبل بضعة أهِلّة، الرّاجفة المشوبة بطعم الهزيمة. وارتفعت صرخةُ ذعرٍ في الصُّفوف الخلفية:

«الرّضيع.. الرّضيع».

فالتفتَ الشّيخ سالم إلى قائد العسكر الشّيخ علي بن خليفة صامتًا على مألوف عادته، عاقدًا حاجبيه يستوضح أمرَ الصُّراخ. وانشقت صفوف الجيش تفسح للقائد دربًا إلى المؤخرة، في حين تناقل الرّجال أن أحدهم قد جُنّ بفعل دويّ البنادق وصيحات الحرب. ألفاهُ الشّيخ علي بين الصُّفوف الخلفية يصرخُ ويدورُ بحصانه الأصهب، يُثير الغُبار والقلق بين الفُرسان، فطرده إلى القصر الأحمر كيلا يُثير الفوضى بين الرّجال ويوهن عزيمتهم.

خمدَ دويّ بنادق الرّاجفة وصمتت صيحات رجالها، ثُمّ زحفت فرق مُشاة الإخوان في صفوفٍ متوازيةٍ مثل صفوف المصلين، يُحاذيها جناحا الفُرسان في الميمنة والميسرة، وصَفٌّ من الهجّانة في المؤخرة على ظهور أصائل الجِمال. تحرّك جيشُ الإخوان كتلة واحدة تُثير من حولِها الغُبار فيرتفع فوقهم يُظلّلهم مثل سحابةٍ صفراء، فتموز مثل زوابع العجاج تهبُّ من الغرب تحت وهج شمس الضُّحى. غمامة أصواتٍ تضجُّ مُطارِدةً الموت المُحقّق؛ صلوات على وقع أقدام المُشاةِ وحوافر الخيل وأخفاف الجِمال وصليل الحديد. تباطأ وقعُ الخَطوِ قبل أن تتوقّف الصُّفوف بأمر أمير الإخوان أمام جيش بن ضباح الذي اصطفّ مولي الظّهر إلى القصر الأحمر. فهبط الصّمتُ ثقيلًا حينما تقابلت صفوف الجيشين. صمتٌ تخلّلته حمحمة الخيل وصهيلها. والمسافة بين الفريقين مقدار حذفةِ حصاةٍ والموتُ

وشيك على مرمى البصر. واللحظات تتسحّبُ بطيئةً طويلة، وبِن ضُباح يهجش بأعداد جيش العدو التي قدّرها الميجور مور قبل ثلاثة أسابيع في اجتماع قصر السّيف، أربعة آلاف مقاتل، يراهم ماثلين أمامه مُتّقِدي العيون مُسدّدي البنادق شاهِري النّصال.

برزَ أميرُهم يتقدّم على صهوة جواده، مَحنيّ الظهرِ مُتلثّمًا بالشّماغ. عدّلَ غصابته البيضاء على رأسه، وأشهَرَ سيفه بيمينه. والبندقية محشوة الرّصاصة والبارود تقفُ وراء كتِفِه اليُسرى. تظهر عيناه من وراء اللّثام متّقِدتان بلون الدّم، تتأملان جيش الخصم كأنما تُحصيه. فأماط اللّثام عن فمه شاهر السّيف:

«أنا خيّال التوحيد أخو من طاع الله.. بَيّن راسك يا عدو الله».

مازال الشّيخ سالم يُجيل بصره صامتًا إلى الصّفوف المقابلة. حمحمت الخيل وتململت في وقوفها. فأمر بِن ضُباح بإطلاق المسيوقة(7)، وصاح برجاله شاهرًا سيفه، وبصره على أميرهم:

«ها هُم الإخوان لا يبغون شيئًا إلا رقابكم.. فما أنتم فاعلون؟».

***

(35)

My Arabian Days and Nights

«تمسك بما عندك لئلا يأخُذَ أحد إكليلك»

الكتاب المقّدس /سفر الرؤيا

ـذي لم نكن نتمناه. وقد كان الميجور مور على حق في كل ما قاله في دعوة العشاء الثلاثاء الماضي.

وبعد تلك المقدمة الطويلة عن طبيعة علاقة الشيخ سالم بجماعة الإخوان، أعود لما بدأت به الكتابة في هذه الصفحة لكن بالتفصيل. خرج الشيخ سالم مبكرا صباح اليوم يقود فرسانه إلى ما يبدو أنه معركة، قبل أن يستولي الإخوان على واحة الجهراء وينكلوا بأهلها.

لم يكن نهارا اعتياديا بسبب ما حل في المدينة في الصباح المبكر. خرج الفرسان ينادون من القصر وطافوا على المساجد يطلبون المتطوعين، وأخبروا الرجال أن السلاح متوفر في قصر الحاكم، وأن الأحصنة يتبرع بها للمتطوعين أحد أصحاب الإسطبلات قرب ساحل «رأس عجوزة» في «شرق». وأعلن الشيخ أحمد خروج أمير الكويت ورجاله والمتطوعين من الأهالي إلى الجهراء. خرج الرجال من المساجد، يتمنطقون أحزمة جلدية تحمل السيوف والخناجر والمسدسات وبنادق الـ ماوزَر الألمانية والـ مارتيني الإنجليزية.

ناب الشيخ أحمد عمه الأمير لتصريف شؤون البلدة في الداخل، وقد أوصاه عمه باستشارة رجال الدين والأعيان والتجار في شؤون البلدة. ولم يتخلف الشيخ أحمد ساعة عن دعم الرجال المتجمهرين

على دكات السور وفي أبراجه وأعلى بواباته. يطوف بهم وهو يمتطي فرسه البيضاء، بندقيته وراء كتفه يرفع ذراعه بالسيف العربي عاليا، يهتف مثيرا حماسة الرجال. مجموعات كبيرة رابطت هناك؛ الشيوخ والشباب. وحدهم اليهود الذين اختفوا من المشهد. لا يورطون أنفسهم بالمشاكل ولا يتعاطون السياسة بأوامر من الوكيل البريطاني.

أخذني إدوين بعد خدمات العبادة بسيارة الإرسالية إلى هناك. طاف بي ظهرا على السور وبواباته الأربع الرئيسة. كان منظرا غير مألوف، فوضى لم أشهدها حتى إبان معركة حمض قبل خمسة شهور، ربما لأن السور لم يكن قائما آنذاك. حالة من الهياج أصابت الجميع. هرع الأغنياء والفقراء والكبار والصغار والسادة والعبيد وحرس القصر -الفداوية- يأخذون أماكنهم عند السور وبواباته يساندون المدافعين، ينتظرون رجوع الأمير ورجاله الذين خرجوا للدفاع عن الجهراء.

لأول مرة أشاهد تفاصيل تحفة الشيخ سالم في أوان وجوب وجودها. ذلك السور الطيني الذي بني في شهرين، وتم إنجازه قبل أربعة شهور. هذا السور الممتد على مسافة خمسة أميال، بنصف دائرة، من البحر إلى البحر. كان مختلفا كأني أراه لأول مرة، رغم أن طرفه الغربي يقع على بعد ثلاثمئة ياردة من بيتنا في أرض الإرسالية. كنت أتفحصه وأنظر إلى تفاصيله أخشى عليه من سقوط وشيك، وهو البناء الذي شيده الأهالي بأيديهم وعلى نفقتهم الخاصة ولم تساعدهم الحكومة بروبية واحدة.

أنا ما أحببت الحرب قط ولا أتمناها في أي مكان، لكن الإخوان

في هذه المرة كسروا أعراف الحرب ومواثيق العرب المتوارثة، فقد تعرضوا للنساء والأطفال ونكلوا بهم في غارتهم على الجهراء، تلك القرية الزراعية الوادعة بآبارها العذبة وبساتينها التي نستورد منها البرسيم لخيولنا والماعز. تلك الواحة التي ذهبنا إليها مرة كضيوف في نزهة دعانا إليها الميجور مور، وأذكر في ذلك الحين أني شاهدت هناك بناء عربيا صمم على أساس أن يكون قلعة، يسمونه القصر الأحمر بسبب لون طينه. ذلك القصر الذي بناه الشيخ مبارك، والد الشيخ سالم في الجهراء قبل ما يزيد على عشرين عاما على ربوة تشرف على ساحل خليج كاظمة. كتبت عن زيارتي إلى القصر وبساتين الجهراء في أوانها. هذا القصر مهدد اليوم بأن يصير للإخوان. وكنا مؤمنين في الإرسالية التبشيرية أن الإمارة سوف تسقط إذا ما انتصر الإخوان في واحة الجهراء، وإذا لم يتدخل الوكيل السياسي البريطاني في الكويت لوضع حد لأطماعهم.

انخفضت درجة الحرارة وبلغت اليوم 97 فهرنهايت، وعوضًا عن سعادتنا بانقضاء شهور الصيف العربي القاسي والطويل كنا نعلم أن انخفاض درجة الحرارة مؤشر أكيد على نشوب الغارات والحروب بين العرب، لأن الصيف -الذي يحتمله المقاتلون العرب وجمالهم- لا تحتمله الخيول العربية التي تحتاج كميات وفيرة من الماء، وعلى ذلك فإنه ليس من المستبعد على الإطلاق أن يهجم الإخوان على الكويت في هذا التوقيت مع تحسن الطقس. ورغم جدية الأمر، والهلع الذي دب في نفوس الناس وتحصنهم في المساجد للصلاة والدعاء لله لإبعاد الأذى، فإن الكثير من الناس تمسك بالقول إن أزمة الكويت مع جيوش الإخوان سحابة صيفية سرعان ما تنقشع أو

تبعدها الريح.

أبطأ زوجي القيادة قرب دروازة الجهراء، وهي بوابة السور الخشبية المؤدية إلى تلك القرية التي تبعد عن البلدة حوالي عشرين ميلا. يا له من منظر! تفتح البوابة على مصراعيها بين حين وآخر، تستقبل الناجين من أهالي الجهراء، والبدو اللاجئين من صحراء الكويت. تتدفق العائلات إلى المدينة ركضا وعلى ظهور الجمال والخيول والحمير والبغال. عائلات هلعة تحمل جرحاها وقطعان غنمها وجِمالها وحميرها وكلابها، كما تحمل أخبار هلع القرية الخربة إلى المدينة. يحاصر الأهالي الوافدين إلى البلدة بسيل الأسئلة عن أخبار المعركة. غار الإخوان على الجهراء بعد الشروق، نهبوا المواشي وقتلوا الناس وحرقوا الدور ولم يسلم من أهلها إلا من تحصن في القصر الأحمر هناك. والبوابة هنا لا تكاد تغلق حتى تفتح من جديد لتستقبل مزيدا من اللاجئين والأخبار التي لا نصدقها ولا نكذبها. البغال السود لا تكاد تُرى من كثرة الحوائج المحملة عليها. والجمال التي لا تحتمل إلا السماء فوق رؤوسها تزمجر عند بوابة السور، تثير الغبار حولها وترفض المرور أسفل سقفه. يختفي رجال القبائل ذوو الجدائل الطويلة في الصحراء ثانية، بعد تأمين شيوخهم ونسائهم وأطفالهم والمكفوفين داخل البلدة والتزود بالسلاح والذخيرة.

قرعت طبول الحرب ورفع رجال السور سيوفهم يؤدون رقصة القتال. كل ذكر في المدينة قادر على حمل سيف أو بندقية أو مسدس قد اتجه مع غيره من الأبطال المدافعين إلى السور. كانوا يصطفون على دكته الطينية العالية، يقفون استعدادا كتفا إلى كتف، يسندون بنادقهم أعلى الجدار. حتى الفتيان من المدافعين أوجدوا

لهم محلا بين الرجال وهم يرتدون مثلهم، وكان مظهرهم رائعا بثيابهم البيضاء القصيرة وأحزمة الخرطوش تزين صدورهم، وعلى رؤوسهم الكوفيات البيضاء والعقالات السوداء، كنت في شدة قلقي عليهم وأنا أعرف معظمهم بسبب ترددهم على المستشفى أو زيارتي لتطبيب نسائهم في البيوت.

إنه لمن الغريب أن الشيخ سالم لم يطلب في هذا الوقت العصيب المشحون بالخطر أي مساعدة من بريطانيا، وقرر الخروج على رأس رجاله المسلحين، والأغرب أن الوكيل البريطاني لم يتدخل إلا بصفته متفرجا بين صفوف المدافعين عن السور، نميزه بين الناس من قبعته الفلينية بين الكوفيات العربية، يطوف قلقا ببذلته الرمادية وربطة عنقه قانية الحمرة بين أصحاب الثياب البيضاء. يسمع أخبار الجهراء من الوافدين إلى المدينة.

أوقفنا السيارة وترجلت مع إدوين ومضينا صوب الشيخ أحمد الجابر الذي كان يمتطي حصانه، ووقف إلى جواره شاب عشريني، هو الشيخ عبدالله أكبر أبناء الشيخ سالم، والميجور مور والملا صالح سكرتير الحاكم والسيد محمد القزويني أحد زعماء الشيعة الذين لم يسمح لهم أمير الكويت بالقتال، وأمرهم بحفظ الأمن في الداخل، كي لا يثيروا استفزاز الإخوان بتورطهم في المعركة، لأن الطائفة الشيعية -كتبت سابقا عن أتباع القزويني وأتباع الحائري- تعتبر بتصنيفهم كافرة، والإخوان هم المسلمون الأرثوذكس كما نسميهم في الغرب، متزمتون ويحرمون كل شيء حديث تقريبا، السيارة والراديو والساعة باعتبارها أدوات شيطانية، أما التلغراف الذي مدت الحكومة البريطانية أسلاكه في الكويت قبل ثلاث سنوات

فيعتبرونه ضربا من السحر يعمل باستخدام الجِن. وقد قالوا إن البرق اللاسلكي لا يعمل إلا عندما تذبح عنده ذبيحة يذكر عليها اسم الشيطان. ومن المعروف أن الإخوان ينادون بضرورة التقشف. ينهون عن التدخين ويمتنعون عن المسكرات ويحاربون البذخ في الملابس، وهم يعتبرون كل اختراع يأتي من الغرب من عمل الشيطان، إلا البنادق والأسلحة فهي ليست من عمل الشيطان.

استأذن الميجور مور واستقل سيارته إلى الوكالة البريطانية. تمنينا -إدوين وأنا- أن يذهب الوكيل لإرسال تلغراف عاجل إلى المندوب السامي في الخليج الفارسي، ممثل جلالة ملك بريطانيا وآيرلندا وإمبراطور الهند الملك جورج الخامس!! ونظنه سوف يفعل. أما ابن أخ الأمير، الشيخ أحمد، فقد راح يوجه الجموع عند البوابة ويطمئنها، يرفع صوته عاليا يجاوز أهازيج الرجال وقرع طبول العرضة، وهي رقصة الحرب وتسمى العرضة النجدية بخلاف العرضة التي كتبت عنها سابقا والتي تؤديها الفرق الغنائية الرجالية في نهاية موسم الغوص واستقبال البحارة. وأثار إدوين قلقي حينما قال لي إن المعركة ستكون خطيرة، هذا تفسيره لوجود الشيخ عبدالله داخل البلدة، «لا يخرج الحاكم وولده البكر إلى مواجهة خصم شديد»، قال إدوين.

كان اليوم مفعما بالغناء مثل كل يوم رغم خطورة الوضع. وأنا بالرغم من إجادتي العربية لا أفهم معظم الأغنيات صعبة الكلمات، لكني أشعرها في قلبي أصيلة قوية رغم الخوف البادي على الوجوه، لكني أمام راقصي العرضة ظهر اليوم شممت رائحة الدم والحريق والموت.

بدأ حملة السيوف والبنادق بالسير بطيئا حول المغنين، بخطوات منسجمة مع قرع الطبول، وازداد الانفعال والحماسة حين بدأ الراقصون التلويح بسيوفهم وبنادقهم في الهواء فوق الرؤوس. وفي ضجيج الطبول وصيحات الرجال سمعت صوت امرأة تصيح: «يا طويل العمر». كانت العرافة المسنة الحدباء التي لا تحبني تنادي نائب الأمير المرابط عند السور. زاحمت الرجال تحمل سعفة نخلة يابسة وتسللت بينهم محتجبة بعباءتها. وقفت أمام الشيخ أحمد الذي كان يمتطي حصانه، ورفعت صوتها في الضجيج تحذره من ضياع عباءة في قصر السيف، والشيخ أحمد والناس لا يفهمون. رفعت يدها عاليا وهي تقول كلمات غريبة لم أفهمها عن عباءة القصر. فكشر الشيخ أحمد وشد سير اللجام وأولى العرافة المسنة ظهره يتفقد رجال السور، في حين تسارع حرسه الشخصي لإبعاد العرافة المسنة التي بثت الخوف في نفوس الأهالي.

وفي أجواء الغرابة تلك طلبت من إدوين أن يقلني إلى مستشفى الإرسالية الرجالي حيث الدكتور ميلريا. كان ينبغي أن نجهز المستشفى لاستقبال المصابين. وما كدنا نصل حتى وجدنا الدكتور ميلريا وفريقه قد قاموا بتجهيز المستشفى وممراته وباحته قدر المستطاع. وقد طلب الدكتور -بصفته مشرف الإرسالية- من الناس التبرع بما يستطيعون من أجل لوازم الطبابة البسيطة والغذاء، وكان الطلب بدعم وتأييد من الشيخ أحمد. وزار الدكتور ميلريا عددا من التجار في دواوينهم، وعنفهم على عدم إمدادهم المستشفى بالمساعدة، فزاره لاحقا واحد من أكبر تجار البلدة -بن حامد- يحمل كيسا ثقيلا بالروبيات، ووضعه على طاولة مشرف الإرسالية. قال

له إن كلامك صحيح ونحن مقصرون، وهذا الكيس الأول، وسوف تصلك أكياس أخرى من التجار. انحنى بن حامد أمام الدكتور ميلريا وانصرف(8). ثم تبرع الكثير من التجار والأهالي حتى فاضت التبرعات عن حاجتنا، وهو رد فعل ما كنا نتوقعه بهذا الشكل أبدا. حتى أولئك المحافظين الذين كانوا يتحاشون التعامل مع أعضاء الإرسالية، أبدى بعضهم تساهلا غير اعتيادي مع الدكتور ميلريا غير المحبوب في أوساطهم. وبدا اليوم أن المدينة كلها قد أدركت ابان هذه الأزمة قيمته كصديق مخلص.. وكطبيب، وبدا لنا أن شعبيته في الكويت -على الرغم من معارضة ومقاومة بعض الجهات الدينية التي ما زالت قوية ضده- قد بدأت جذورها ترسخ. ولا أنكر رغم قسوة الظرف أنني شعرت بشيء من الرضى، فأكثر الناس عداء لنا صار يعترف بأهمية وجود مستشفى الإرسالية في البلدة. فمن يصدق أن بعض المحافظين الذين ما انفكوا يحذرون من خطورة «بيت الزجاج» أو مستشفى المسيحيين -النصارى- على مرضى المسلمين، هبوا لمساندتنا وتلبية احتياجات المستشفى، أولئك الذين يكتفون بالتداوي بالقرآن والأعشاب والتعويذات الجلدية والكَي بالنار، أو في أفضل الأحوال يبتاعون الأدوية البسيطة من الدكان الذي يشبه الصيدلية -الدواخانة- في ساحة الصرافين. إنه لنصر كبير أن ننال التقدير من أولئك الذين تداويهن العرافات وتسقيهن حساء غير معقول، قوامه نقيع أذن الحمار ولحية التيس ودماغ الجربوع وساق الجمل!(9)

بحلول الساعة الثانية بعد الظهر وصلت إلينا أول دفعة من المصابين، ثم سرعان ما غصت ممرات المستشفى وباحته بجرحى

السيوف والخناجر والرصاص. يلقي بهم خدام الشيخ سالم عند باب المستشفى وينصرفون مسرعين، ولا نستفيد من المتطوعين إلا بحمل الجرحى ونقلهم إلى الداخل. ثم فتحت بوابة السور لمجموعة من الفرسان ذوي الجدائل الطويلة، يتبعون قائدهم، يقول الأهالي إنه قائد الجناح الأيمن ورجاله، هزمهم الإخوان بجناحهم الأيسر فانسحبوا إلى البلدة. هؤلاء الفرسان الذين أرسلهم أمير حائل من صفوان تلبية لطلب الشيخ سالم بعد خسارة معركة حمض، هم في الحقيقة لا يكنون أي حب للشيخ سالم لكنهم يحملون الكثير من الكره للإخوان الذين خاصموا إمارتهم في شمال شبه الجزيرة العربية.

بعض أهل البلدة لا يكف عن ترديد شائعات غير قابلة للتصديق، يصدقون حكايات غريبة، ولا يكفون عن المبالغة في نسج الأساطير حول جماعة الإخوان. فقد انتشرت في البلدة كلمات العرافة المسنة للشيخ أحمد عن العباءة الغريبة في قصر الحكم، يقول الأهالي إن الغواصين قد عثروا عليها في البحر في موسم الغوص قبل الماضي، ويقولون إن العباءة قادرة على حجب مدينة عن الشمس. ويشاع أن الإخوان يريدون حرق العباءة كيلا تنتشر الخرافات والبِدع بين المؤمنين، وأهل البلدة يؤمنون أن أعداءهم يستميتون للحصول على العباءة لإسقاط البلدة في ظلام لا نهائي! ونقل لي إدوين في نهاية اليوم خبرا من تلك الأخبار سمعه من الأهالي، يقول إن الشيخ أحمد الجابر دخل مجلس الضيوف في قصر السيف في المساء، فوجد الإطار الخشبي المذهب الكبير على الجدار خاليا من العباءة السحرية. أقاويل أشبه بقصص ألف ليلة وليلة، أو قصص

الأخوين غريم، وأحداث لا تصدق إلا في رواية فنتازية، لا نعيرها في الإرسالية اهتماما رغم سحرها ومتعة الإصغاء إلى تفاصيلها. حكايات تستحق أن تصدر في كتاب مسل.

يقول المصابون الذين وفدوا من المعركة متأخرين إن الشيخ سالم ورجاله قد أبلوا بلاء عظيما بصد الإخوان وإيقاع الخسائر الكبيرة بهم، لكن أعداد العدو كانت كبيرة وذخيرة الكويتيين قاربت على الانتهاء. وفي حوالي العاشرة مساء وصل إلى الكويت ثلاثة فرسان تسللوا من القصر الأحمر في الجهراء، ذهب اثنان منهم إلى بيت الشيخ أحمد في أقصى المدينة، وثالثهم جاء إلينا في المستشفى بشفتين متورمتين يبست عليهما الدماء. وما زال حصانه البني مربوطا عند مدخل المستشفى لعل أحد الأهالي يتعرف إليه. سقط الفارس عن حصانه عند مدخل المستشفى. كانت صلعته معفرة بالغبار وكان يريد أن يقول شيئا، يحرك شفتيه ولا يقول كلمة. فانتزع بصعوبة محفظة جلدية من ذراعه -تشبه التعويذة التي كانت تحملها مبروكة- وناولني إياها قبل أن يغمض عينيه. لا أتصور أني أنسى ذلك الوجه. تلك العينين الغائرتين والفم المفتوح على اتساعه تحت شارب كبير ملطخ بالتراب والدم. يصارع العطش والخوف والاختناق. حاولنا إسعافه في اللحظات الأخيرة، لكنه مات مبتلعا لسانه.

وجاءت الأخبار من رجال السور في الليل. يقولون إن الفارسين قابلا الشيخ أحمد، وأخبراه أنهما تسللا من بوابة القصر الشمالية. ونقل الناجيان إليه أن المعركة انتقلت إلى بساتين أشجار السدر والنخيل وبين بيوت القرية، وأن الكويتيين تقهقروا واختبأوا بالقصر

الأحمر. وأن قوات العدو تحاصرهم. قالا إن أهالي الجهراء والأمير سالم ورجاله إن نجوا من الحصار، فإنهم لن ينجوا من العطش داخل أسوار القصر ذي البئر الواحدة، بئر مالحة تعف الحيوانات عن شرب مائها. وما لديهم من أكياس التمر والأرز والشعير لا يكفي المحاصرين الذين جاوز عددهم الألف وخمسمئة كما قدر الفارون من الجهراء.

شممت في أحاديث الجرحى ورواياتهم رائحة الموت، الموت الذي شممته في رقصة الحرب عند السور ظهر اليوم. الموت الذي تحقق بوفاة أربعة جرحى في مستشفى الإرسالية في نهاية هذا اليوم. والمصادفة أن الأربعة أسماؤهم الأولى عبدالله(10). واضطر الدكتور ميلريا إلى بتر ذراع شاب أسود اسمه مستور. كانت ذراعه شبه مقطوعة بسيف من الكتف. أنا حزينة جدا لأجلهم، ولا أملك إلا الصلاة لهم.. الرحمة والسلام لأرواحهم..

والشفاء العاجل للمصابين..

آمين..

ولا أريد أن أتخيل ما الذي صار لهم في القصر الأحمر.

Eleanor J. T. Calverley

Sunday, October 10, 1920

11:45 **PM**

(36)

الذي صار

العطشُ المطل في الملامح السّمراء

والصُّوَر التي لها مهابط في الأعين السّوداء

قد علّمته الشّعرَ والصّلاة والغناء

محمد الفايز

أشعِلَت الشرُج في القصر الأحمر عند هبوط اللّيل، وأُوقِدَت النّار في مشاعل أبراجه الأربعة، وغصّت أحواشه السّتّة بالنّساء والرجال والأطفال والمقاتلين. يتحصّنون وراء الجدران الطّينية العالية الحمراء. وتصاعدت من حولهم صيحات الإخوان مُحاصِرةً ودويُّ بنادقهم لا يهدأ في القرية المنكوبة. تتردّدُ أصداؤها في الفضاء المظلم، ولا يرتفع داخل القصر إلا أنينُ الجرحى في الحَوْش الرئيس. وحول البئر الوحيدة في القصر تحلّقَ عطا الله وخمسة من أبناء أبي السّواعد، يحرسونها ويصدُّون عنها تدافُع العطشى.

انسحب رجال بِن صُباح إلى القصر الأحمر في ظهيرة المعركة، وانكسر جناحا الميسرة والميمنة، وتناثر رجال دعيج الفاضل بين بساتين الجهراء وساحِلِها. وابتعد بن طوالة ورجاله بانسحابهم وصولًا إلى الدّيرة. وما فُتِحَت بوابات قصر الجهراء، مُذ أُقفِلَت وغُزِّزَت مغاليقها بالسّلاسل، إلا حينما جاء قائد العسكر ورجاله يلوذُون بالقصر مُتأخرين، فدُلِّيَت لهم الحِبال وتسوّرها بعضهم، لكن الشّيخ علي بن خليفة بن صُباح أبى أن يتسوّر الجدار بالحبال، ولزم

الوقوف أمام البّوابة، ففُتِحَت له ولرجاله وأُطبقت سريعًا، وأُحكِمَت مغاليقها بأكياس الشكر والتّمر والأرز.

وخالطَ الأنينُ عويلَ الثّكالى وبكاء الأطفال في حوش الحريم. وغاب البعضُ في زحام السّاحةِ مع ذاته كأنما يودّعها، ويُحقّق رغباتٍ أخيرة وهو يتجرّع كأس الموت من ماء البئر اللّئيمة. خليطٌ من المذعورين؛ سود، شمر، بِيض، بحّارةٌ وصنّاع وبدوٌ وأحرارٌ و«عبيد»؛ هذا رجلٌ ناقعٌ بدمِه يذرف الدّمع ويُصلّي جالسًا على الأرض. وذاك شيخٌ مضفور الشّعر، ملفوف السّاعد بجبيرة، يتكئ بظهره على جدارٍ ويترنّمُ بقصيدةٍ تُشبه الحُداء. وتلك امرأة يرتفع صوتها في حوش الحريم، تشقُّ الجيب تبكي فقد أولادها، وتئنُّ كأنما تغني وترجو من الموت رحمة.

وعلى دكّةٍ قرب الباب الشّرقي استندَ أبو السّواعد، الحاج عبدالله بن صالح، يتحاملُ على سنوات عمرِه، يئن مِن طلقةٍ أصابته في ساقِه اليُمنى لطّخت بياض ثوبه ببقعة دم. حوله ثلاثة من أبنائه المتناثرين في القصر. يُحيطونه بتبجيل كأنه العبادة، يتقرّبُون لله انحناءً على ساقه المصابةِ يتحقّقون من سلامة جبيرتها. يطعمونه من قليل زادهم تمرًا وكسرات خبزٍ وأقِط، ويسقونه من بواقي الماء في القِرَب وهُم عطشى، كأنما يرتوون إذا ما شرب أبوهم. وغير بعيدٍ عنهم اِنسَدَح رجلٌ حاسر الرأس أصلع متورّم الشّفتين كثّ الشّارب، لا يكاد يصدّق أحدٌ أنه نام أخيرًا وأطبق فمه على لسانه الفالت.

ومكث الأمير في حوش الضيوف المواجه لمصلّى القصر عند الجدار الشمالي، يستمع لرجاله الذين تعذّروا بنفاد الذّخيرة في المعركة وعدم وصول الإمداد لهم من ذخائر القصر، وانبرى الفقيه

عبدالعزيز الرشيد يعزو ما حدث إلى كثرة الإخوان وتغلغلهم بين البيوت والبساتين. فقاطعهم بِن صُباح:

«لا يشغلكم ما صار عما يصير. نحن محاصرون».

ثمّ أمرَ الأميرُ قائدَ العسكر أن يجيء له بحصانه من مربط القصر، وأوصاه بأن يختار مع الحِصان حصانًا آخر من أسرع الأحصنة، وأن يجهّز الاثنين ويسرجهما على الفور. وحار قائد العسكر في ما يدور في رأس الحاكم، وطار إلى مربط الخيل مع فداويّ وخادم ليتخيّروا أسرع الخيل لأمرٍ في نفس الأمير.

خمسة من أبناء الحاج عبدالله بن صالح ما زالوا يتوسّطون الحوش الرئيس. يطوّقون البئر مُسلّحين يمنعون العطشى من بلوغها.

وحده عطا الله مسموحٌ له أن يزعب من مائها، يُذيب فيه التّمر ليَستسيغ طعمَهُ مَن شارف على الموت، أولئك الذين خافوا الموت عطشًا، فشربوا ماء البئر المالحة المُحلّاة بالتّمر قبل رقودهم الأبدي. كُلُّ من شرِبَ الخليطَ ماتَ إلا عزُّوز الهذّار الذي أفقدته الرّاجفةُ

ظهر اليوم صوابه، فطار عقله بعدما طارت غُترته وخرّ مرتجفًا أمام الدّوي والصياح، وسارع إلى القصرِ يعبُ من ماء البئر قبل الجميع، قبل التحام الجيشين، قبل الانسحاب وقت الغروب، قبل أن تُغلق بوابات القصر، قبل الحصار وقبل أن يطوّق سعد وسعود وسعيد ومساعد ومسعود البئرَ المالحة. انحنى على البئر يُطفئ ظمأ بظمأ. يستفرغ الماء المالح على الأرض، فيُذيب له عطا الله التّمر بالماء ويشربُ ويزداد عطشًا. وفرّ عقله لمّا توافد الرجال متقهقرين من المعركة يلوذون بالقصر. وحسِبَه الموتَ مُقبلًا ولا مفر. وصار يركضُ في الحوش الكبير، يتخبّطُ بين النّاس الجالسين على الأرض وأنين الجرحى. لا يُريد أن يموت وفي ذِمّتِه السّرُّ العظيم. يتلعثم بكلماتٍ لا يُفهم منها إلا: «الرضيع.. الرضيع». يركضُ ويصرخ ويتكلّم بسرعةٍ كأنما يُزغرد. يكرُّ على البئر ثانيةً يتقاتل مع حُرّاسها، وينسلُّ من بينهم يُقبل على مالح الماء، فيزُدُّهُ «العبدُ» النّحيل عطا الله بلكمةٍ تُفقده الوعيَ وتُورّم شفتيه.

ويلعن عطا الله السّاعة التي جاءت به إلى الجهراء، لا يدري ما الذي دفعه إلى اللحاق بجيش بِن ضباح وقت الشُّروق. *بل أدري!* أتراهُ جاء يفتدي سيّدَه؟ *ما جئت لهذا.* أم جاء ينقلبُ عليه؟ *لا أدري، لكني وسط المعركة تعالت في رأسي نداءات بخيتة ترجوني العودة إلى القصر، فانقلبتُ على نفسي، وفررتُ منها إلى القصر الأحمر كي لا أخون. لو أن الخلاص يُشترى بغير خيانة بِن ضباح!*

أفاق الهذّارُ بعد سويعاتٍ بعدما ارتاح النّاس من لَجّتِه، فكرّ إلى البئر يتوسّل عطا الله أن يسقيه الماء، غير أنه ما وجد الخيزرانة بين أبناء أبي السّواعد الخمسة الذين أبعدوه عن البئر. فعدا إلى البوابات

يرجو حرّاسها أن يُخرجوه، فنهروه وأبعدوه. وأثار الرّبكة والهلع ثانية بين المحاصرين في الحوش الكبير. وركض بدمِه المتخثّر على شاربه الكث وشفتيه الوارمتين يصيحُ مناديًا حصانه الأصهب، فأشار عبدالله بن صالح إلى أبنائه الثّلاثة أن يُسكتوه كيلا يُثير مزيدًا من القلق فيغضب الشّيخ المجتمع برجاله في حوش الضّيوف. هبّ الثّلاثة إلى الهذّار يُطبقون أسنانهم على حواشي دَشاديشِهم. ولاحقوه حتى حاصروه بين بضعة جرحى من الرجال تحت الجدار الجنوبي في مربط الخيل عند حصانه الأصهب. وكتّفوه بأيديهم وطرحوه على ظهره فوق البرسيم والتّراب. فطوّقه أسعد ومِسعِد من جانبيه، وكمّمَ سعيدان فمه حابسًا كلماته في جوفِه كيلا يُثير غضب قائد العسكر الذي يقف مع رجلين عند معلف الخيول في آخر المربط. وراح الثّلاثة يُعافرون الرّجل الذي أضاع عقله في نوبة ذُعرٍ ما انفكّت تكرُّ عليه منذُ سماعه الرّاجفة ظهر اليوم.

كان الشّيخ علي بن خليفة يمسك برسن «عبيّان» حصان الأمير، ويتخيّر من أصائل الخيل حِصانًا أو فرَسًا. غير أن هُوّةً صغيرة أسفل جدار المربط لفتت انتباهه وراء حوض التّبن والبرسيم. فأقعى أمامها يُمرّر خلالها ساعده، فانحنى إلى جواره الخادمُ يُطمئنه:

«صغيرة طال عمرك».

بدت الهُوّة الصّغيرة قديمة في الجدار على نحو لا يثير الشّك، لكن ما رآه قائد العسكر على البرسيم اليابس شغل تفكيره، وقد التقط حافظة معدنية تصغر علبة الثقاب، مرسومٌ على سطحها كلبٌ أبيض يطلُّ في بوق غرامافون.

عضّ الهذّار كفّ سعيدان فصاح:

«الرّضيع!».

وتوسل أبناءَ أبي السّواعد، وحلَّفَهُم برأس أبيهم أن يمهلوه وقتًا ليتكلم، ولمّا أمهلوه ترجّاهم أن يُفلتوه من أجل الرّضيع. وكأنما نسي الكلمات كلها إلا «الرّضيع»، يُكررها مرّة تلو مرّة. وهو يحاول أن يتملّص من قبضتهم. التفتَ قائد العسكر صوبَ الجلبة في آخر المربط صائحًا مَن هُناك. فكمّم سعيدان فمَ الهذّار ثانية:

«صه! الشيخ علي.. الشيخ علي».

لم يُبال الهذّار مواصلًا كلامه مكتومًا تحت كفّ سعيدان الذي يخشى عضّة أخرى. فجرّدَ الشّيخ علي سيفهُ من غمده وهرعَ إلى الأربعة المتمرغين بالتّراب. أشهرَ سيفه أمام عزُّوز المثبّت على ظهره إلى الأرض، وسارع سعيدان يُخبره أن الرّجل من أهل الدّيرة ولا ينوي سوءًا. فنهره قائد العسكر:

«ما باله يهذي ويعافر؟».

تبادل الإخوة الثّلاثة النّظر بينهم لا يحيرون جوابًا. وَجَموا أمام حالٍ لم يشهدوا لها مثيلًا إلا واحدة قديمة تنتابُ شقيقهم الأصغر إذا ما لاح له في حوش الدّار أو جدرانها بريغصيٌ عابر. انبرى سعيدان يُجيب:

«مصروع.. صرعته الزّاجفة طال عمرك».

تفرّسه الشّيخ علي ممتعضًا قبل أن يتعرّفه:

«هذا أنت يا مجنون؟!».

أولاهم القائد ظهره بعدما زجرهم وحذّرهم من إثارة القلق بين المحاصَرين. وأقفل مع معاونيه إلى معلف الخيول أسفل الجدار الجنوبي. أطبق قبضته على رسن الحِصان «عبيّان» وأشار إلى مُعاونيه صوبَ فرَسِه:

«شويمة».

فطن الهذّار إلى أن إحدى البوابات سوف تُفتح بعد قليل لخروج فارسين على حِصان الأمير وفرَسِ قائد العسكر. غمغَمَ تحت كفِّ سعيدان وهو يتوق إلى الخروج على صهوة حصانه:

«والأصهب».

لم يُعِر الفارش والخادمُ اهتمامًا لغمغمتِه. أسرجا الحِصان والفرَسَ اللذين اصطفاهما الشّيخ علي بتوصية من الأمير، فعضّ الهذّارُ كفَّ سعيدان ثانيةً، وفتح فمه دامي الشّفتين على اتساعه يصرخ بما أوتيَ من حيَل: «الرّضيعا»، فتراكض الرّجالُ في ساحة القصر الكُبرى إلى البوابات على إثر صيحة مربط الخيل، لا يُميّزون إن كانت تجيء من داخل المربط أم من وراء الجدار الجنوبي. تكوّدوا على البوابات الخشبية يُعزّزون مغاليقها.

وتعالى ضجيج الحرسِ في أبراج المراقبة الأربعة، مرّة بعد مرّة، كلّما أفلتَ الهذّار صيحة لا يدرون من أين تجيء، أو كلّما اقترب الإخوان جماعات أو فُرادى من أحد الجدران. وانبطح عشرات الرّماة على الأرض، يُمرّرون بنادقهم في فرجاتٍ صغيرةٍ أسفل الجدران، يُصوّبون النيران إلى أيّ رِجلٍ مقبلة كيلا يُدرك الإخوان أشجار الأثل والنّخيل المحيطة بجدران القصر، فيرتقوها ويمطروا أحواش القصر

بطلقات البارود. لمحَ أحد حرس الأبراج خارج القصر امرأة نحيلة بالغة الطّول، متسربلة بعباءة قصيرة تكشف عن ساقيها السّوداوين الدّقيقتين، تبدّى ظلّها يبزُّها طولًا في مدى ضوء مشاعل الأبراج وراء الجدار الجنوبي، تسيرُ ببطء وراء ظلّها موليةً ظهرها للقصر. أوشك يُناديها مُحذّرًا لولا أن ابتلعتها الظلمة فاستعاذ بالله من خيالٍ تراءى له.

خرج الفقيه الرشيد من حوش الضُّيوف بعد اجتماع الأمير، يشيلُ مزودته على كتفه ويرفعُ أمامه سراجًا. ومضى إلى مصلّى القصر مُغبّر العِمّة مُقطّع الدّشداشة مُعفّرًا بالتُّراب. وانزوى في الرُّكن يُصلّي نافلة. فهبطَ الصّمتُ في الحوش الكبير حينما ظهر الشّيخ سالم يقود رجاله. يتحرّى مجيء قائد العسكر والفارسين. وكفَّ العطشى المنهكون عن تدافعهم أمام أبناء أبي السّواعد الخمسة لبلوغ البئر. واعتدلَ الجرحى، ووقفَ من له حَيلٌ على الوقوف عند مجيء الأمير الذي رمقَ الجدار الجنوبي. يصيخ السّمعَ إلى صياح الهذّار في مربط الخيل. صيحات تجوش وحيدة خللَ صمتِ الحَوْش في حضرة بِن ضُباح: «الرضيع.. الرضيع! افتحوا البوابة».

قطّبَ الأميرُ الصّموت حاجبيه يُحاول تمييز وجهة الصّياح داخل أو خارج القصر. فظهرَ الشّيخ علي من المربط يتبعه الفارس والخادم يقودان الحصان والفرس. وخرج الرشيد من المصلّى على صياح عَزّوز قبل أن يبدأ نافلته. ووقفَ عند عتبة المصلّى يُراقب ما يدور في الحوش الرئيس. وتقدّمَ الشّيخ علي إلى الأمير يُبرِّر صياح المربط:

«هذا الرّجل الذي صرعته الرّاجفة ظهر اليوم طال عمرك».

سكت صياح الهذّار في مربط الخيل حتى ظنّ من يعرفه أنه أسلم الرّوح. ثمّ أشار الشّيخ علي صوبَ الفَرَس والحصان وهو يقول للشّيخ سالم:

«عبيّان وشويمة.. أسرع ما في القصر طال عمرك».

مكثَ الأميرُ صامتًا يُعاين حِصانه وفرَسَ الشّيخ علي بن خليفة، وما كان لقائد العسكر إلا التنازل عن فَرَسِهِ «شويمة» وقد سبقه الأمير بتقديم حِصانه «عبيّان». فنقّل الأمير الحاكم سبّابته بين الفارس والخادم المسلّحين:

«مرشِد ومرزوق.. فلنرَ ما أنتما فاعلان».

فأومأ إلى الفارسين وسارع الفداوي مرشد يمتطي «شويمة»، يدري الفرَسَ في العدو أسرع، على حين نطّ الخادمُ الأسود مرزوق على صهوةِ الحصان الأصيل، «عبيّان» سليل الصّقلاوي، غير مُصدق أنه يمتطي حِصان الأمير.

وشيّعهما الأميرُ بنظره وهما يمضيان صوب الباب الشّمالي حيث أزال الرّجالُ كومة من أكياس المؤونة. ورفع قائد العسكر ذراعه يلوّح للرّماة المنبطحين أسفل الجدار الشّرقي، فأطلقوا نيران بنادقهم في وقت واحد يُشاغلون الإخوان عن خروج الفارسين من الباب الشّمالي. وما كاد يُفتح الباب ليخرجا طلبًا لنجدةِ الدّيرة حتى ارتفعت صيحات أبناء أبي السّواعد في مربط الخيل، وانسلّ عزوز الهذّار من المربط مثل الرّصاصة يمتطي حصانه الأصهب، يخترقُ الرّجال يخبُ إلى الباب الذي أوشك أن يُطبق ويُردم بأكياس الشّكر والتّمر والأرز ثانية. فلتَ الهذّارُ فدوّى ارتطامُ الباب وراءه.

وظهر أسعد ومِسعِد وسعيدان من المربط مُعفّرين بالتّبن والتّراب، وقد أوسعهم الهذّار ضربًا قبل إفلاته. وتعالت صيحات الإخوان وهتفت بنادقهم وراء الجدران عند خروج الثّلاثة، فصمتت البنادق بعد حين. وصاح أحد الحُرّاس في برج المراقبة المحاصرين في القصر:

«البشارة.. فلتَ مرشد ومرزوق..».

صمتت الجموع في السّاحة تتحرّى مزيدًا من الحارس الذي ما عاد يُبصر المتسلّلين في الظلام. أغمض عينيه وأصاخ إلى صياح الهذّار يبتعد على وقع الحوافر، فالتفتَ إلى الجموع تحت البرج لا يواري ابتسامة:

«..وثالثهما المجنون».

لاح البِشرُ على وجه الشّيخ سالم، وتنفّس النّاس الصعداء من حوله بعدما ضعضعت المعركة قواهم، وأنزلهم الحصار على شفا حفرة من اليأس. أقفلَ الأمير إلى حوش الضُّيوف يتبعه رجاله معلقي الآمال على الفدائيين الذين انسلُّوا إلى الديرة. ودخل الرشيد المصلّى ثانية وأطبق عليه الباب. نزعَ نظارته وعِمّته وأودعهما في مزودته قبل أن يتركها على الأرض أسفل السّراج المعلّق على الجدار. وولّى وجهه إلى القِبلة وصلّى نافلته داعيًا الله للثّلاثةِ أن تصحبهم السّلامة إلى مقصدهم. ثمّ أطفأ السّراج وتمدّدَ على حصير المصلّى البارد مُطمئنًا، يُمنّي النّفس بنجدةٍ من الشّيخ أحمد إذا ما بلغ الفرسان الدّيرة بسلام. تقلّب على جنبيه يهرب من فكرةٍ إلى أخرى حتى جافاه النّوم. فنهضَ يُشعل السّراج ثانية، وانحنى على مزودته وأخرج

منها نظارته وقلمًا ورزمة أوراق يُخاتل هواجسه بالكتابة. تربّع على الحصير مُنكبًا على أوراقه. وخطّ البسملة في صدر الورقة، ثمّ كتب:

هجم الإخوان على الجهراء صبيحة اليوم الأحد 26 محرم سنة 1339، بنحو أربعة آلاف مقاتل، ولم يكن في الجهراء إذاك إلا نحو ألف وخمسماية من رجالنا. أما الإخوان فقد أُصيبوا في هجومهم ذلك بما أضاع رشدهم، وتركهم حائرين وسط الميدان، ولكن ماذا يصنعون وقد وقعوا في شبكة لا خلاص لهم منها فالأرض بيضاء بلقع لا عوج فيها ولا أمت، والهلاك ملازم لهم إن أقبلوا أو أدبروا. غير أنهم أخيرا صمموا على الإقدام مهما أصابهم، ومهما نزل بهم

وقد فعلوا، إلا أنهم تباعدوا عن الجهات التي ذاق الكثير منهم الحِمام منها. وأسرعوا إلى جهة من القرية ظنوها خلوا من المقاتلين، ولكنهم هناك وجدوا رجالًا أشداء اشتركوا وإياهم بمعركة تشيب لها الولدان، كان الإخوان فيها يتساقطون بلا عد ولا حساب وكاد يقضي على بقيتهم لولا نفاد ذخيرة الكويتيين الذي غادرهم يركنون إلى الفرار ويدعون معتصمهم مدخلا للإخوان إلى القرية.

أما أنا فكنت مع ثلة من الأصحاب أمامنا فرقة من الإخوان صبغنا الأرض من سواد جثثهم ولم يبق منهم إلا أفراد يعدون على الأصابع أطلقوا لأنفسهم عنان الهرب، فحصل إذاك فصل قصير من الراحة كنا نتساءل فيه عن حقيقة الواقعة، وفيما نحن كذلك وإذا بأمير الجهراء قد أقبل علينا، وعلائم الدهشة والاستماتة ظاهرة في وجهه، فسألناه عما وراءه، فقال: قضي الأمر ودخل الإخوان القرية وانتشروا في شوارعها وبساتينها، فانجوا بأنفسكم فإنهم منكم قريبون. وهناك طفقنا نعدو إلى القصر الأحمر لا يلوي أحد على أحد، وكنت وحدي أقفز من جدار إلى آخر ومن بستان إلى سواه حتى أبصرت في أخريات البساتين رجلا أصيب برجله بين مجموعة من الرجال. عرفت أنه الحاج عبدالله بن صالح من بياض عقاله مع أولاده الثمانية، يساعدونه على الوقوف وهو يقوم ويسقط، فنبهني ولده الكبير سعد إلى وجود أحد الإخوان في ذلك البستان فوقفت برهة أتطلع إليه ولما لم أره أدبرت، وعند ذلك أطلق علي طلقتين وقاني الله من شرهما، إحداهما وقعت عن يميني والأخرى عن يساري، ونظرا لاعتصامه بما يقيه من ويلات عدوه فقد تركته وشأنه وذهبت إلى القصر وجئته قبل أن يغلق، فوجدته مكتظا بالرجال والنساء

والأطفال وعلى وجوه الكل أمارات الخوف ودلائل الذعر وهم بحالة تفطر الأكباد وتذيب الفؤاد، فمن واضع يديه على خديه ومن ماسح دموعه بيديه ومن مضرج بدمائه الحمر ومعلق يده المكسورة في عنقه، مشهد مريع جسد ويلاته علم الكل بالهلاك العاجل وتيقنهم بالموت الزؤام. علمنا أن الإخوان بعد احتلال الجهراء لا يغادرونها وأنهم سيظلون محاصرين لنا إلى أن يضطرونا إلى التسليم، والذي زاد تخوفنا أن ليس في القصر ما يسهل علينا مطاولة الحصار، فإن كان فيه ذخيرة وطعام فليس فيه إلا بئر واحدة ماؤها ملح أجاج يزيد الظمآن عطشا، وفي القصر ما يزيد عن ألفِ نسمة.

رفع الرشيد رأسه إلى الوراء يُريح عنقه. ثمّ فرقع أصابعه وأعاد تثبيت نظارته المستديرة على طرف أنفه، فقلبَ الورقة وراح يُكمل التدوين على ظهرها:

كان لزاما علينا طلب النجدة من الشيخ أحمد، فالإخوان لن يغادروا الجهراء دونما نجدة من الله ترسلها الكويت لنجدة المحاصرين في القصر، فقد تيقنت الهلاك كما تيقنوا فأسفت على موت لا شهادة فيه ولا عز وقد أهمني الأمر كثيرا. استخرت الله وأزمعت على تقديم المشورة في آخر النهار، فذهبت إلى (سالم) في إحدى حجر القصر، وهناك وجدته مضطجعا وعلى شفتيه ابتسامة أعياني فهمها: أهي ابتسامة اليأس وقد يكون لليأس ابتسامة كما الأمل، أم ابتسامة الأمل بالفوز والنجاة؟ أعياني فهم حقيقتها، ولكن قرأت في وجه الرجل سورة الشجاعة النادرة والثبات المدهش. كان بين الفرسان في حوش الضيوف صامتا حاد النظرات. أقبلت عليه وما كنت أحسب إلا أن ألفيه مكسورا، فوجدته وهو في هذا القصر المحاط

بالأعداء وكأنه بين أهله وخدامه في مغناه، وقد يظهر للمتفرس فيه أنه واثق من نجاته فقلت: يا لها من صفات جديرة بالزعيم لو كان!

اقتربت منه وأبصرني إذّاك فقال: ما عندك يا (فلان)؟ فأعلمته بما خالج ضميري، وأن طلب النجدة من الشّيخ أحمد الجابر أمر لا مندوحة عنه، فقال: حسنا ما رأيت، ولكن الوقت حره شديد فلننتظر إلى المساء. رأى إذاك أن يرسل إلى الكويت من يستصرخهم فأرسل مرشدا الشمري ومرزوقا المتعب على أجود ما في القصر من الخيل، وانضم لهما عبدالعزيز بن حسن بن عبدالله الهذار فارسا ثالثا على جواد أصهب بارك الله في عزمه، وخرج الثلاثة من القصر على حين غرة من الإخوان، ولقد أحسن سالم بما صنع فإن الإخوان ما كادوا يبصرون الفرسان الثلاثة إلا وشملهم الخوف وأحاط بهم الفرق سيما وقد أصيبوا بخسائر عظيمة في الذخيرة والأرواح، ضعضعت قواهم وأنزلتهم على شفا حفرة من اليأس.

عبدالعزيز بن أحمد الرشيد(11)

الأحد 26 محرم سنة 1339 (12)

الجهراء

***

(37)

صَحوةُ المَتَسَى

كأسي؟ وهل في الكأس يا سامر

بقيةٌ؟ أم أنها عاقر

خالد سعود الزيد

«والله كانت مُطمئنّة».

قال سعدون على ضوء السّراج الشّحيح، تفوحُ من فمه رائحة اليانسون النّفاذة، لامِع العينين أحمرهما، بعدما قرأ لخليلتِه من كُرّاسِه بُنّي التجليد. كان قد فرغ للتوّ من قراءة حكاية العجوز والبقرة. حكاية خطّها عن عجوزٍ هنديةٍ طاعنةٍ في السّن وافقها في إحدى أسواق كراتشي في آخر أسفاره.

وفصّلَ سعدون الوصفَ في قراءته يُصوّر ما رآه ودوّنه، لا يُفوّت فائتة كأنما يُحصي موجودات المشهد في أوراقه. سوقٌ قُرب المرفأ، بشرٌ وبقر، وكلابٌ سائبةٌ وباعةٌ يطردون القرود بالعِصي، وأفاعٍ تراقص مزامير الدّراويش. وهُناك عجوزٌ ملفوفةٌ بالسّاري الذي يكشف عن بطنٍ غائرٍ أعجف. تجري دموعها على وجهها الأسمر ذي الابتسامة الواسعة الدّرداء. تنحني، وتبتهل وتتمسّح ببقرةٍ بُنّيةٍ هزيلةٍ ناتئة الأضلع، مُطوّقة بالورد الأصفر مُتوّجة الهامةِ بلطخةٍ حمراء. ويتدلّى من رأسها الورد الشّكيك مثل جدائل. معبودةٌ مشغولةٌ باجترار ما في بطنها ببلادة، تتلفّتُ بغير اكتراثٍ في السّوق المزحومة بالبضائع والنّاس والمخلوقات. وتسوطُ ذُباب مؤخرتها

بذيلها الملطّخ بالفضلات.

أطبق كرّاسه وقال:

«..كدتُ أضحك في بادئ الأمر، ولكني ما إن رأيت وجه العجوز الهندية حتى صرتُ أردّد في سِرّي:

يا ربي ثبّتها».

اختفت عينا بهيجة بين وجنتيها وحاجبيها، وانفرجت شفتاها عن ضحكة جلجلت في ظلام الحُجرة:

«أستغفر الله! يُثبِّتها على ماذا؟ عبادة البقر؟! الله يخلف على عقلك يا سعدون!».

أطرق صاحب الحَوْطة ينظرُ إلى الحصير، في الظلال المتراقصة بفعل ارتباك شعلة السّراج. يُبصر وجه العجوز الدّرداء داخل رأسه. ويشحذُ ذاكرته يستدعي ألمَ كَيٍّ أم حَدَب في رأسه، ويستشعر لسعات خيزرانة كريم العين في جسده. يهزُّ رأسه دامع العينين ويقول إن العجوز تدري أنها في آخر الأمر، مثل موتى الهنود، تُحرق بالنّار.. وأنا أخاف القبر.. وأخاف النّار.. لكن عجوز الهِند كانت مُطمئنة.. والله كانت مُطمئنة.

«..أما في ديار الحَبَش..».

سارع سعدون يُغيِّر موضوع عجوز الهند وبقرتها الهزيلة قرب ميناء كراتشي، قبل أن يجرفه الحديث إلى ما يُكدِّر صفوَهُ. سارعت بهيجة تُقاطعه زاجرة:

«بالك تحاكيني عن بنات زنجبار!».

ألقمَ سعدونٌ كأسه كسرة ثلجٍ وحاسَ الشّرابَ بسبّابتِه قبل أن يُجيب:

«لأ.. بل عن عجايب النهر».

أفرغَ ثلاثة أرباع الكأسَ في جوفِه، وسقى بهيجة الرُّبع الأخير وأترع الكأس مرّة رابعة. ثُمّ أبحر في حكيه من موانئ الهند، قاطعًا

بحر العرب إلى مراسي السّواحليين شرق إفريقيا راسيًا في تنجانيقا. واعتدل في جلسته يتنحنح قبل أداء الحكاية، يتذكّر نهرَ روفيجي مُظللًا بظلالِ الأيكِ السّاحلي المتشابك على ضفافِه:

«..كل شيء كان مُحتملًا يا بهيجة.. كل شيء في تلك الغابات؛ الذُّباب والبعوض الذي منحناه أجسادنا طوعًا علّه يشبعُ ولا يشبع، رطانة السّواحليين في المراكب القريبة تفلُق الرأس كأنهم عَزُوز الهذّار في مزاجٍ رائقٍ للكلام. المرض وشظايا مقابض الفؤوس في راحة الكف، الليالي المطيرة والثّياب التي لا تجف، وأفاعي طين النّهر الذي خضت فيه مع منصور الغيص بين السّواحليين حتى خاصرتي. نقتطع الأشجار على صيحات القرود. أتناسى الدنيا بالعمل وأشغل رأسي عن التفكير في الدّيرة وأبي وأمي وإخوتي الثّمانية، ونداءاتي للصّلاة على سطح البيت فجرًا لمّا كنت صغيرًا وأحاديثي مع الله، لولا عاجلنا وحش النّهر ذاك، لعنة الله عليه، فاتحًا فمه الكبير. فرّقَ مراكبنا ودفعَ الرّجال إلى تسلُّق جذوع الشّجر مثل القرود ينحاشون من الموت! وما فارقت فكرة الموت خيالي يا بهيجة. الموت الموت الموت! الموت حتمًا ليس أقسى من الحياة. وأنا ما كدت أنساه حتى ذكرني به منصور حينما اختفى في البحر العام الماضي.. أنا لا أُصدّق حكاية موته.. الموت الموت الموت..».

تكدّر مزاج بهيجة وانقبضَ صدرها خشية معاودة سعدون الحديث عن رغبته الجبانة في ذبح نفسه. وأشارت بيدها صوبَ المقبرة المجاورة:

«سعدون! ألا تخاف سيرة الموت في هذا الليل؟!».

ارتشفَ من كأسِه ثمّ مدّها إليها:

«اثنان لا يخافان الموت يا بهيجة، اثنان.. قوي الإيمان وشديد الكُفر».

وشديد الشكر. أستغفر الله..

رقّ صوتها بعدما همهمت مستغفرة. وارتشفت من الكأس ووضعته على الأرض أمام سعدون:

«وأنت؟ ألا تخافه؟».

«الموت؟ لا. لا أخاف الموت».

«مِمّ تخاف؟».

ضمّ ركبتيه إلى صدره وطوّقهما بذراعيه:

«أخاف وبس».

أجالَ بصره بين أركان المجلس والسّقف. *لو تعرفين الصّرع يا بهيجة لقلتِ إن الموت أرحم. أتُراه أرحم؟*

«..لو أني أضمن أنه النّهاية لأقدمتُ على ذبح نفسي هذا الحين، لكني أخاف أن أحيا بعد الحياة حياة.. تبًا للموت ما فارق خيالي منذ افترس التّمساح صبيًا سواحليًا عَلِقَ في طين النّهر قُدّامَ ناظريّ فجأة. الموت يا بهيجة، ما الموت؟».

انتفضت بهيجة واعتدلت في جلستِها مثل طفلةٍ التهمها الفضول. أثنَت ساقيها المنفرجتين ورفعت حاجبيها:

«عليك الله كيف كان شكله؟!».

«السّواحلي؟!».

عضّت شفتها الشفلى وقرصت زنده:

«التّمساح».

بشّ وجه سعدون وتهلّل لحماسة بهيجة، وهو الذي يُحبها على نحوٍ مُغاير إذا ما استحالت طفلة مشاكسة بين يديه. يُحبها بحسٍّ شفيفٍ لا يعيه، محبّة خالصة لا يشوبها شغفٌ أو اشتهاء. هو في هذه اللحظةِ لا يريد أن يفكّر في الموت، الفكرة الوحيدة التي تشاكس عقله بعدما يُشبع بطنه بخير بهيجة، ويُشبع ما دون بطنه ببهيجة. يمنحها كلّ ما تريد إلا صفعة تتولّهُ لنيلها. ولمّا نال من المرأة مبتغاهُ، بعدما علّمها جديدًا من فنون كتاب المفاسيخ الهندي، وعوّض نفسه عن أيام الجفاف منتهزًا خروج سليمان الذي أقام في مخدعه عشرين يومًا.. لمّا أخذ من المرأة كلّ شيءٍ صارت في عينيه لا شيء. عاد إلى مزاجٍ لا يُحب الحريم وحكي الحريم، يريد الواحدة منهنّ امرأة في فراشِه، وخارج الفراش طفلة. أفرغ نصفَ الكأس في جوفه وأعادها إلى الأرض، ثُمّ نقرَ غمّازة بهيجة بطرف إصبعه:

«التّمساح يا بهيجة.. يمشي على بطنه.. وشكله شكل البريغصي».

قلّما تحدّث سعدون عن البريغصي دونما رهبة أو نوبة صرع. باعدَ بين ذراعيه يُغلّظ صوته:

«..أكبر منه ألفين مرّة.. ضروسه مثل المنشار و..».

قاطعته بهيجة:

«وما خفت؟!».

«أفأ! يقول العبسي خُلقت من الحديدِ أشدّ قلبًا.. وقد بليَ الحديدُ وما بليث».

وما فهمت بهيجة من قول عنترة كلمة إلا الحديد، وأردفَ سعدون:

«..والله ما هِبت ولا انصرعت من شبيه البريغصي والله، لأنه من المستحيل أن يفعل ما فعل ويختفي تاركًا ذيله المبتور بين قدَميّ!».

صكَّ فخذيه وانقلبَ على ظهره يُكركر فوق الحصير. تجري النّشوة في عروقِه فرَحًا طفوليًا لا يُشبه هيأته المتهالكة. لم يُبالِ بالكأس التي أطاحها بساقِه فاندلقَ سائلها الأبيض على الأرض. ولاح طيفُ ابتسامةٍ على وجه بهيجة وهي تدنو إليه تحتضن رأسه. أسندته إلى فخذها، ومسّدَته بحذرٍ كيلا تُزيل الكُحل فينكشف أثر الكَيّ القديم. واستكان الشّاب وهدأ وجيب قلبه المترع باللّوعات والضّحك.

«الله يلعن البريغصي».

«تخاف منه؟».

«أخاف من الصّرَع».

أجابها بسرعة ثُمّ لاذ بصمتِه. واستعاذت بهيجة من نوبةِ صرعٍ تُصيب خليلها على حين فجأة، تُسقِطه متشنجًا مرتعشًا مزبدَ الشّفتين جاحظ العينين شاخص البصر إلى أعلى يُبحلق إلى الفراغ.

«سعدون.. هل هو مؤلم؟».

«لا يوصف.. هو شيءٌ لا يوصف يا بهيجة.. ما أراهُ في نوبةِ الصّرع شيءٌ لا يوصف ولا يُحتمل ولا أتمناه لأحد.. لا الملالوة ولا الصاجات

ولا أي ابن حرام يستحق هذا العذاب».

سألته ما الذي يراه ساعةَ الصّرع، فارتعدَ جسده واصطكّت أسنانه وتحشرج صوته قبل أن يرد:

«وجه الشيخ الغضوب».

انهمرَ الدّمعُ من عينيه على فخذ بهيجة. أبقى رأسه على حِجرها يمسك بكفِّها يُلصق باطنها على وجهه. يتحسّس بخَدّه دفء فخذها ونعومته، ويهمس ساهمًا وهو يتنشّق في راحةِ كفِّها ضَوع الحِنّاء:

«غنّي».

مسحت بهيجة على ذراع سعدون التي ما آذتها قط، ثمّ ربّتت على كتفِه. وأغمضت عينيها وصدحت بحنجرتِها المجروحةِ تُغنّي ما يحنُّ إلى سماعِه دونما تسمية:

نام يا وليدي نام..

نام ولك ربٌّ لا ينام..

نام، بحضن موسى وعيسى،

والنّبي عليه السّلام

«أريدُ أمّي».

قالَ وهو يصبُّ الدّمع على فخذها، وكفُّ بهيجة على وجهه لا تزال. فانحنت تلثمُ جبينه وهي تواصل غناءها مُطبقة الجفنين. تحشرج صوته:

«أبطأ الموت».

أطبقت كفَّها على شفتيه وقطعت غناءها:

«ألا تكف عن ذكره! عسى يومي قبل يومك!».

ثمّ أغمضت تستأنف الغناء. فنطّ أشهب وإلينور فوق عتبة الحجرة. ودخلا مسرعَين بذَيلين مُنتصبين، يجوبان الحُجرة ويتلفتان إلى كل الاتجاهات قبل دخول خَليفُوْه. فنظرَ سعدون إلى أبي القُطاوَة، حيث ظهر عند عتبة الباب ووقف يحملُ سراجًا مُنطفئ الفتيل. فرفعَ صاحب الحَوْطة رأسه عن فخذ خليلته. ومسح أدمُعَه وافتعل ابتسامة:

«نفتكَ من سليمان لتجيء أنت؟!».

سكتت بهيجة عن الغناء. فتحت عينيها والتفتت إلى مرمى بَصَر سعدون صوبَ الباب حيث يقفُ صاحب القُطاوَة صامتًا، يضربُ قدميه على عتبة المدخل يُزيل غبار السّكك. نهضت الفتاةُ تُلقي عباءتها على جسدها شبه المستور بثوبٍ شفيف. وركضت إلى مخدع سعدون يرنُّ خلخالٌ في قدمها اليُسرى على وقع خَطوِها، مُخلّفة

وراءها شذا عطرها الأخاذ. شعورٌ بالرّضا ملأ صدرَ خَليفُوْه، وقد أثاره حياء بهيجة وهربها احتشامًا. شيّعها بنظره وهو يقتعدُ تكية من صوف السّدو، مقابل صاحب الحَوْطة الذي سأله:

«أين سليمان؟!».

ردّ مُرَبّي القِطَط:

«سليمان في الوَظية، يقول إنه سوف يرجع بعد صلاة الفجر».

أفلتَ سعدونٌ زفرة طويلة وهو ينظر صوبَ مخدعِه:

«أين كنتما طول اليوم؟ الدِّيرة مقلوبة».

أخبره خَليفُوْه بأمر رحلتهما إلى جزيرة فَيلَكا من أجل لقاء خادمة مقام الخِضر. فوقرَ اسمُ المقامِ في مسامع القطتين يُشاكس ذاكرتهما. التفتَ أشهب يُبحلق إلى إلينور، فهزّت القِطّة البيضاء رأسها قبل أن يُطلق الاثنان قوائمهما للرّيح قفزًا على عتبة المجلس.

أمسك سعدونٌ بالسّراج إلى جواره. غذّى الشّعلة بمزيد من الزّيت يُنير ظلمة المكان، فأشعل سيجارة:

«هل من أخبار عن بِن ضباح ورجاله؟».

«سعدون! شَغْل هذا!».

نقرَ خَليفُوْه سبّابته برأسه على طريقة صاحب الحَوْطة واستطرد:

«كيف أجيء بأخبار الجهراء من الجزيرة؟».

«حمار، لكن كلامك صحيح».

نظر خَليفُوْه إلى زُجاجة العَرَقِ نصف الممتلئة إلى جوار رُكبة سعدون:

«ماذا لو دخل الإخوان الدِّيرة؟».

نفخَ سعدونُ الدُّخان من أنفِه مُعتكر الوجه:

«أووهُووووه..».

فاعتدل في جلستِه قبل أن ينفلت لسانه:

«..يجيئك الموت يا تارك الصلاة! يغزونا أولئك البدو فتُضرب في الدِّيرة الخيام وبيوت الشَّعر، فتزاحمنا الأباعر في السِّكَك، ونصبح على غزوة ونمسي على غزوة، ويحكم فينا كريم العين، ويصير الحاكم بأمر الله ويسلط علينا رجاله. ويعتمرُ رجال الدِّيرة الغُصابات البِيض، وتصمت الدِّيرة ولا يحق لك أن تفتح فمك بكلمة. ولا صوت يعلو على أصواتهم في المنابر. ولا يرتفع في الدِّيرةِ صوتُ طبلٍ ولا طار ولا غناء، ولا تشاهد امرأة في السوق. ويطردون العَنْكريز فيأكل الرَّمَد عيونكم، ويمزق الشل صدوركم، ويقفلون المدرسة المباركية فيعود الصبية إلى الكُتّاب، ويلقون بالشِّيعة في البحر فيشحُّ في الشوق الحدّادون والخبّازون والنّدّافون، ويتناقص في الفُرضَةِ العتّالون، ولا يبقى على السَّيف قلّاف(13). ويهجُّ اليهودُ فلا يبقى في الدِّيرة صانع خمر، فيصحو سعدون وويلٌ لسعدون من نفسِه إذا صحا، وويلٌ لكم. وماذا بعد؟ يغلقون مكتبة بِن رُوَيِّح أو يحرقونها، ويُلبسون الناس على مزاجهم. ويُصفِّعوني تصفيعًا، إي والله، يُطفئون سيجارتي هذه في فمي، ويغسلون شراعي ويلعنون أبا خامس أسلافي. ويضربوني ضرب سَنةٍ في ساعة، إي ورب الكعبة،

يفعلون بي فعل أهل البصرة بسركيس في مسجد الزُّهير، فأُضرَب ولا أدري بماذا ضُربت، أو يرجموني في ساحة الصُّفاة! أعوذ بالله! أو يهدُّون هذه الحَوْطة على رأسي».

«اسمها المَتسَى».

«حمار، لكن كلامك صحيح..».

أطفأ سعدون سيجارته واستدرك:

«..أمانة لو فعلوها وقتلوني يا خَليفُوْه، رجمًا أو بغير رجم، وحدك تعرف مكان قبري..».

تأفّف أبو القْطاوَة، وأشار سعدون بكفِّه صوبَ ساحة الحَوْطة وراء الباب:

«..الكل يعرف إنه في حوش المَتسَى.. لكن لا أحد غيرك يدري أنه تحت النّخلة أم الفسائل في زاوية الجدار.. لا تدفنوني في مقبرة لا يُشيّعني فيها أحد خَليفُوْه! حلّفتك برأس الصاجّةِ.. حلّفتك بقِطَطِك، والله إن فعلتموها تلعنكم روحي..».

لو تحيا الرُّوح بعد فناء الجسد..

«..ماذا كنت أقول؟ نعم.. لو حكموا فينا يا خَليفُوْه أوّل ما يفعلونه أن يهدُّوا المقام على رأس صاجّة الجزيرة، ويدبغوا عجائز النّار بالسّعف المنقوع في الماء المالح، حتى تستوي جلودهنّ مثل جلد ضَبٍّ في قِدر بدوي».

دوّت ضحكةُ سعدونٍ على صورةٍ أبصرها للصاجّات في خياله، ثُمّ اعتدل في جلسته:

«..على سيرة عجائز النّار.. أين وصل الأخوان؟».

«إخوان مَن طاع الله؟».

«الأخوان مِن الرّضاع يا بهيمة.. إلى أين وصل أمرهما؟ استلف مني سليمان خمس زوبِيّات استلفتها من بهيجة.. هل نالَ بُغيته عند دجّالة الجزيرة أم أنها ضحكت عليه وبلعت بيزاته؟».

«لا أدري ماذا قالت له المبروكة. هو في الوَطيّة مع صَنقُوْر القصاصة يُخلّصان أمرًا».

التقط سعدون كأسه وأعاد ملء نصفها بخليط الماء والعرَق بلا ثلج. ثمّ أفرغها في جوفِه دفعة واحدة قبل أن يقول:

«وأي صَنقُور هذا؟ لا تقُل لي إنه واحدٌ من جِنّ الجزيرة؟».

«هو صَنقُور ابنُ أم صَنقُور خادمة مقام الخِضر».

عَفَط سعدون بشفتيه:

«يعني واحدًا من جِنّ الجزيرة.. بلى هو كذلك.. أليس هذا الذي يقولون إنه يغطس في سِيف الوطية ويختفي ثم يعود بعدما يحسب الناس أنه مات غريقًا؟!..».

بذل سعدون جهدًا في كبتِ أعصابه. وراح يلفُّ سيجارة أخرى ويسأل من دون أن يُبعد عينيه عن نثار التّبغ في الورقة بين كفّيه:

«..عن أي مقامٍ تتحدّث؟..».

آثر خَليفُوْه الشكوت دَرءًا لسماع خُطب سعدون التي لا تنتهي. وانصرف عن النّظر إلى مُحدّثه وطاب له أن يحدّق إلى موقد

الحَطب. واصل سعدون:

«..ها؟ كيف صار مقامًا بربّك؟ فَنارٌ شيّدته مُحسنةٌ نجديةٌ على طرف الجزيرة قبل دهر.. مَن في الدّيرة لا يدري؟! فَنار يا بهيمة. فَنار.. منارة تُرشد المراكب والسُفن في ظلمة الليل يا كديش.. منارة يا بقرة.. كيف صارت المنارةُ مقامًا مُظلمًا للخِضر بالله عليك أخبرني يا قُندرة؟ تضحك عليكم الصاجّات وأنتم تصدقون.. لا يُلام فيكم إخوان من طاع الله والله..».

حملَ السّراج يُقرّب شعلته إلى السيجارة بين شفتيه. ومزَّ الدُّخان مزّةً توهّجت لطولها جمرةُ السيجارة حتى تساقط رمادها. فأردفَ وهو يكاد يخرق رأسه الثّمِل بسبّابتِه:

«..شغّلوا عقولكم!..».

زفر الدُّخان كثيفًا من فمِه ومنخريه فأردف:

«..أما سمعت عن العباءة التي يتكلم عنها الناس هذه الأيام؟! عباءة بُوْدَرياه في قصر السّيف، بالله عليك هذا كلام؟! يقولون إن منصور الغَيص قد ضاجع لُخمَة، وأنجبت له وحش البحر ذا العباءة! هل تصدِّق هذا الحكي يا لوح؟! هل تصدّق أن رجلًا لا تعِفُّ نفسه عن فعلٍ كهذا؟! وهل تصدق أن ابن منصور، بُوْدَرياه، سوف يخرج من البحر ليبحث عن أبيه ويستعيد عباءته؟!..».

لم يفُه خَليفُوْه بكلمة، وهو يُطيل النّظر إلى موقد الحَطَب في منتصف المجلس. ثابتًا مثل صَنَم. يُفكّر في نذير الصاجّات وتوجُسهنّ من عباءة القصر. أردف سعدون:

«..اسمع ما سوف أقوله عن منصور الغيص وإياك أن تبوح به لأحد.. كان الرّجل هنا في مكانك هذا سكرانًا، يقول إنه سوف يقوم بحيلة تُخلّصه من ديونه المُكوّدة عند بِن حامد، يفتعل حكاية مضاجعته اللُّخمة قبل أن ينسل في الفجر من السّنبوك ليسبح إلى مركبٍ قريبٍ يأخذه إلى البحرين هربًا من جشع بِن حامد.. وأنت حمار مثل الجميع لا عقل لك وتصدّق هذه الخرابيط التي أطلقها البحّارة.. شغّل دماغك!».

وخَليفُوْه ما زال في سكتَتِه يُطيل النّظر إلى موقد الحَطَب، وسعدون يستطرد:

«..قُل لصاحِبَتك الحدباء البرصاء أمُّ الثُؤلول العَفِن إن بحّارة بِن حامد قذفوا عباءة بديلة أول يوم في الموسم كما يقول أهل الديرة.. فليوفر ابن اللُّخمَةِ وقته لأنه لن يجد أباه في الدّيرة إذا ما جاء يبحث عنه، وليَقبل بالعباءة المزيفة التي رماها البحّارة خيرًا من لا شيء.. هل تدري لو سمعك الشيخ سالم تشيعُ خرابيط العباءة؟ والله يعلقك في السوق مِن ساقيك.. الحمد لله والشكر على نعمة العقل!».

لم يُزحزح خَليفُوْه ناظريه عن الموقد وهو يُقرُّ بإيمانه:

«بُوْدَرْياه سوف يجيء ليستردّ عباءته من قصر السِّيف».

صفع سعدونٌ جبهته وعضّ على شفته السّفلى قبل أن يقول:

«بلى.. وساطور أبلغ إخوان من طاع الله بأمر بدعة العباءة! والإخوان يريدونها لأنها تغير الشِّرك والبدع والخرافات في الدّيرة الكافرة.. في هذه أنا مع الإخوان يا خَليفُوْه لو أغاروا علينا والله».

ظلّ أبو القُطاوَةِ ساكتًا مُشيحًا عن سعدون، وانفرجت شفتاه يقول:

«يا أخي مساجد الديرة أكثر من بيوتها ويقولون كافرة؟! بل هم يريدون العباءة لأن مالكها يقدر أن يحجّب ديرةً عن عين الشمس.. ولو وقعت في أيديهم.. تخيّل!».

«الدّيرة؟».

«العباءة يا جاهل!».

اعتدل سعدون في جلستِه:

«والله؟! ليت لي مثل إيمانك يا خَليفُوْه.. *إيمان عجوز الهند والبقرة*.. لكن قول الصاجّة عندي مثل ضرطة النعجة لا يلتفت إليها الذئب وأنا ذئب.. والله لو كنت صاحب الأمر لخنقتها بيدي.. ابنة الكلب أقنعت أمي أن البريغصي دخلني وترك ذيله بين قَدَميّ دلالة.. أتصدق أنت أيضًا حكاية البريغصي هذه؟!».

أشاح خَليفُوْه ببصره عن موقد الحَطَب، وحدّق إلى عينيَ سعدون يُدافع عن الصاجّات وكراماتهنّ. يُدلّل على صِدق نبوءاتهنّ، والمعجزات التي يُكرِم الله بها النّساء على أيديهن:

«انظر كيف تحبَل العواقر إذا ما عبرن البِيص!».

«وأنت تُصدّق هذا الكلام؟!».

«أصدّق أن العاقر إذا عبرت البيص يمنحها الله روحًا مقابل روح.. أو مقابل بلوى تصيب السّفينة ورجالها. أُصدّق ولمَ لا أُصدّق ومُلّاك السفن يُصدقون، وها هُم نواطيرهم قرب السّيف يتربّصون بأي عابرة في الليل قرب الخشب، يُبعدونها لو قاربت البيص! سعدون

أنت لا تعيش معنا».

«والله أنتم الذين لا تعيشون! يا حمار اِفهم. لو أن بقرة من تلك العواقر عبرت ليلًا فوق البِيص، وأمالته مقدار شعرة، لجاء العُمال في الصباح يعبتون الخشب على بيصٍ مائل، ولمالَ بِناءُ المركب كله يا ثور! ما شأن النواطير بنسائكنّ حبِلنَ أم عساهُنّ لم يحبلن! شغّلوا عقولكم!».

«وماذا تقول في شحم الخمِسَة؟ يَدهن الكسيحُ ساقه فيقوم يركض مثل النعامة.. أنت تدري يا سعدون وأبوك يدري أن شحم الخمِسَة فيه شفاء ساقيه لكنكما تنكران..».

لم يُحر سعدون جوابًا فأردف أبو القطاوَة:

«..قُل لي بربِّك ماذا عن صخرة الوَطية؟ ها؟».

تلفَّت سعدون حوله:

«أووهُووووهْ».

استطرد خَليفُوْهْ:

«لا تعوي كأنك جرو مضروب بالنعال وقُل لي بربك.. كيف أُبحر منها إلى فَيلَكا وأصل قبل الذي يُبحر من رأس عجوزة بربع نهار؟ وأنت تدري أن رأس عجوزة أقرب إلى الجزيرة.. كيف يصير هذا ومسافتي من صخرة الوطية أبعد؟ أخبرني بالله كيف؟..».

أومأ خَليفُوْهْ إلى كأس العَرَق الفارغة إلى جوار سعدون ثُمّ دَقَّ رأسه بسبّابتِه:

«شغّل هذا.. مثلما تتمنى على النّاس أن يَشغّلوه وأنت غارق في إطفائه!».

تلقّى سعدونٌ لطمةً من دون كفٍّ أطارت السّكرة من رأسِه. صرخ على صاحبه:

«لو في أمّك خير أعد ما قلته وأنا أشقّ حلقك! عشنا وشفنا! صارَ البَرَنْتَى يكلمني عن العقل!».

أطبق خَليفُوْهْ قبضته على إبهامِه، ثمّ نهض بشفةٍ باسمةٍ مرتعشة. فأطلّت بهيجة برأسها من باب مخدع سعدون تستطلع أمر الحديث المشحون بالغضب، فعاودت دخول الحُجرة وأطبقت وراءها الباب. والأملظ صامت. *إنشِد حمدية عن فعل البَرَنْتَى*. قطّبَ حاجبيه يهجش وهو ينظرُ إلى وجه صاحب الحَوْطة بإشفاق. ضعيف وجبان.. *طفل كبير.. الله يلعن الأطفال كلهم كبارًا وصغارًا*. هو الذي ما فلت من تَفْلَتِه أحدٌ نعته بالصّفة البغيضة، ما انفرجت شفتاه عن: «إتفُوْه!»، فابتلعها وخزّر عينيه يُطيل النّظر إلى صاحب الحَوْطة. *هذا أنت كما أنت ولا جديد، بعد قليل تقيء ما في جوفك وتغسلك بهيجة مثل طفلٍ وسخ وتحملك إلى فراشك!* واغتاظ سعدون من نظرات خَليفُوْهْ النّاطقة. كزّ على أسنانه فانفرجت شفتاه عن ابتسامة مرتجفة:

«والله أنك خبيث.. مثل كل المخابيث.. بَرَنْتَى.. لا ذكر ولا أنثى!..».

ابتلع خَليفُوْهْ ريقه وحملَ سِراجه المنطفئ يمضي صوبَ الباب، فتابع سعدون:

«..إنقلع عن وجهي.. عد لصاجّة المرقاب وليّة نعمتك».

استدار أبو القُطاوَة قبل بلوغه عتبة الباب:

«خيرٌ من أن تطعمني بهيجة ويسقيني بِن شاؤول».

«اِسكت وإلا أدوس رأسك!».

أجابه سعدون بصوتٍ مرتعِش خفيض، وما سكت خَليفُوْه:

«حتى هذه الحوطة تدفع بهيجة ثمن إيجارها من عَرَق فَر..».

«..اِخرَس يا مخاط النعجة!».

صرخ صاحبُ الحَوطة وانفلتَ نِثارُ ريقه، ثُمَّ مال إلى مسند السّدو إلى جواره وأخرج من ورائه المكحلة النّحاسية، وقذفها على خَليفُوْه:

«خذها.. كحّل عيونك يا بَرَنْتَى.. رحم الله أباك يوم مات رجلًا في الصّريف، لو أنه عاش وشاف ما خلّف! والله ما تبرأ منك أبناء الخوّاص من قليل».

سقطت المكحلة بين قدمَيّ أبي القُطاوة، وانحنى يلتقطها بطيف ابتسامة. واستقام ثانية يدُسّها في مَخبى دِشداشَتِه. فاستدار يدوس عتبة الحُجرة ويضربُ قدميه عليها، كأنما يُزيل عنهما غُبار الشّكّ على دأبِه عند الدُّخول إلى المَتسَى، غير أنه يفعلها هذه المرّة عند الخروج. التفت يرمقُ سعدونًا من وراء كتِفِه:

«ابق هُنا ومُت وحيدًا كارهًا نفسك والجميع، وأنت الذي تكرهك ثيابك التي عليك.. خرج أبوك وإخوتك مثل الرجال مع رجال الدِّيرة، ومع الشيوخ والتجار والملالوة والنواخذة والبدو والفداوية والعبيد..

وابق أنت هُنا مثل الحريم.. لكن تدري؟! أنا مسامحك.. لأنك سكران».

تكسّرَت كأس سعدون على الجدار قُرب رأس خَليفُوْه، وتناثرت شظايا الزُّجاج على كتفِه، ولم يرمش للأملط جفن. فصرخ صاحِبُ المَثنَى:

«سعدون لا يسكر!».

***

(38)

ذات السّلالم

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

القرآن الكريم/البقرة

لا قناديل في معسكر الإخوان فيُبصر تحرّكاتهم عَدُوّ، فلا يدري المُحاصَرون في القصر من أي جهةٍ تجيئهم الغارة المقبلة. وتواترت صيحاتُ المهاجمين وراء أسوار القصر قبل الفجر، بعيدةً مثل عواء ذئاب اللّيل تتنادى، تُسمع أصداؤها ولا يُستدلّ من أي صوبٍ تجيء. واللّيلُ خِرمِسٌ ولولا اعتياد عيون الإخوان الظلمة لما أبصروا الفارس الملثّم، شاهق القامةِ يخرجُ من خيمة أميرهم. فيمتطي فَرَسًا سوداء. ويُحاذيه من كلا الجانبين سِتّةٌ من الفرسان، ثلاثةٌ في ظهر ثلاثة. مُلثّمون بالشُّفغ يعتمرون بِيض الغُصابات. شدّ الفارسُ الأوسط الغُصابة على رأسه، فلكزَ بطن الفَرَس يقودها إلى القصر الأحمر على مبعدة نصف ميل. وتحرّكت الكتيبةُ الصّغيرةُ على مهلٍ تحت سماءٍ مُعتمةٍ مُنطفئة النّجوم. وسارت الحوافر بطيئة الوقعِ صَوب مشاعل النّيران في أبراج القصر.

شعرَ المُحاصَرون بحركة غريبة وراء الأسوار، وقع حوافر تتخلّلها حمحمات خيل. وتنبّه الحَرَسُ في الأبراج الأربعة القائمة في زوايا القصر، وتبدّت لحرس البُرجين على طرَفيَ الجدار الغربي خيالاتٌ مقبلةٌ. وأنصتوا إلى وقع الحوافر يهبُّ متمهِّلًا في هدأة اللّيل.

فأعطى قائدُ العسكر إشارة الاستعداد للرُّماة لحمل السّلاح والانبطاح أرضًا أمام ثقوب الجدار الواطئة. وهبّ لصعود البرج في زاوية الجدارين الشّمالي والغربي. فأطلّ من الأعلى وأبصر على وهج نيران المشاعل غصابات الرؤوس البيضاء دانية إلى القصر. وأوشك الشّيخ علي بن خليفة أن يأمر الرُّماة لولا ارتفع صوت الفارس الذي توسّط الكتيبة الصّغيرة المقبلة يُعرِّف بصِفته:

«مرسول لابن صُباح».

لوّح قائدُ العسكر يُقاطع ذراعيه للرُّماة. فمضى موكب رسول الإخوان بجناحيه إلى البوّابة الكبيرة في الجدار الشّمالي، وترجّل الفارس عن صهوةِ فَرَسِه ومكث أمام البوّابة الخشبية ينتظرُ أن تُفتح له. وانتظر حرس البوّابة أمرًا لإزالة مغاليقها من أكياس السُّكر والتّمر والأرز، على حين أسرع الشّيخ علي إلى حَوش الضُّيوف يستطلع رأي الشّيخ سالم بشأن الرّسول. وتوقّع الرّجال هِدنة يطلبها الإخوان بعد فرار الفرسان الثّلاثة قبل قليل. ولمّا طالَ صمتُ الأمير تشجّع بعضُ الرّجال ينصحُ بفتحِ البوّابة مقدار ما يسمح بعبور الفارس المرسول وحده، من دون مُرافقيه الاثني عشر، تلافيًا لمكيدةٍ تُشرع بوابة القصر لعددٍ من الجند لا يعلمه إلا الله. غير أن الشّيخ سالم لم يُحِر جوابًا وهو يُنصِت إلى بكاء الأطفال وولولة النّساء غير بعيدةٍ في حَوش الحريم. فأمرَ قائدَ العسكرَ بعد صمت:

«أنزلوا له حبلًا».

«تَم يا طويل الغمر».

وغادر الشّيخ علي حَوش الضُّيوف ليُتِمّ الأمر. أُنزل الحبلُ إلى

رسول الإخوان، وبهت الفرسان الاثني عشر لاستخفاف بِن صُباح بهم، وهمُّوا بالعودة إلى معسكرهم لولا أن فاجأهم فارسهم الملثّم يطوي حاشية دِشداشَتِه حول خصره، فيشدُّ الحبلَ يصعدُ الجدار بقدمين حافيتين كأنما يتسلّق نخلة، ويختفي داخل القصر.

قاد الفداويةُ الرّسولَ إلى البرج حيث يمكث قائدُ العسكر. وقد أقبل عليهم الأميرُ والفقيه الرشيد. ولمّا مَثل الرّسول بين يدي بِن صُباح أطرق لاهثًا، ولم يرفع رأسه لحظة واحدة وهو يُميط اللّثام عن وجهه. فسلّ الشّيخ علي سيفه وكزّ على أسنانه:

«ساطور؟!».

رفع الشّيخ سالم ذراعه للشّيخ عليّ، فأرجع قائدُ العسكر السّيف ثانية في غِمدِه. وأطال الأميرُ النّظر إلى وجه الفداوي المارق، وهجسَ بمرمى أمير الإخوان من وراء إرسال «عبد» الأمس ليفاوض. بدا الأمرُ استخفافًا وتقليل قدر للمحاصَرين. *إنما تمنّوا أن أقتل رسولهم الخائن فيزيدوا أسبابهم سببًا للحرب.* ما أبعد الشّيخ سالم عينيه عن وجه ساطور. هو يألف هذا الوجه حقّ الأُلفةِ لولا نصفه الأسفل الذي تدثّر بلحية طويلة خشنة:

«ما عندك يا ولد بخيتة؟».

وقعَ اسم المرأة في نفس ابن مريان وقعًا شجيًا بدّده شعوره بالغبن. وتذكّر بخيتة والقصر، وأن ليس له غير القصر أب. فأطرق ساطور ثانية أمام الأمير يُفضي:

«أرسلني أمير الإخوان للمجيء.. لست بمرسول بل طالب حاجة. أطلبُ السّلامة لأخي إن كان معكم، وأعود به إلى الجماعة، لكن والله

يا طويل الغمر ثم والله ما جئتكم لهذا.. والله ما جئت إلا لتحذيركم. تظاهرت بقبولي بمكيدة أميرهم بطلب تسليم أخي، لأحذركم أن العباءة معه وهم يريدون العباءة.. والله ما جئت إلا كي أحذركم أن أميرنا.. أعني أميرهم.. أميرهم أرسل في آخر النهار رجاله يجمعون السّلالم والحبال من البيوت الخالية، وكلّف آخرين أن يَنجُروا المزيد من السّلالم من حطب الأثل في منجرة القرية. وقد جمعوا المعاول والفؤوس وكل أداة هدم لغارة وشيكة مع ارتفاع أذان الفجر وقت انشغالكم بالصّلاة.. وتكون إشارة الهجوم ثلاث تكبيرات».

«هذا كلامٌ مأخوذٌ خيره».

صاح الشّيخ علي طائش الصّواب، فسارع ساطور يقول للشّيخ سالم مرتعد الفرائص:

«هذا شيءٌ مما جاء بي إليك يا شيخ.. برهانًا على حسن نيّتي..».

أمسك ساطور عن تتمّة القول، ورفع عينيه مُطأطئًا يُنقّل بصره بين الأمير وقائد العسكر والفقيه الصّامتين. فأتمّ:

«..أما الشيء الآخر فأنا أريد لأخي ألا يسلك مسلك أخيه، وأن يحذر كريم العين ويبقى في الديرة. ولا يتوهّم الخلاص كما توهّمه أخوه الذي يرجوك العفو والسماح له بالإقامة في قصر صِباه يا طويل الغمر.. عطا الله يجب ألا يخرج بالعباءة».

لم يصدّق الأمير ما يُلمح إليه ساطور بشأن أخيه وخرابيط العباءة والمدعو كريم العين. وأوجس ريبةً تجاه مملوكه الغادر، فالتفت إلى واحدٍ من حرَس البُرج:

«هاتوا عطا الله».

ركضَ الحارس، فتصاعدت النداءات في أحواش القصر الأحمر ولواوينه تُنادي عطا الله. ولم يُجب عطا الله، ولا عُثر عليه في مكانه القريب عند البئر المالحة بين أبناء أبي السّواعد. ولم يُستدل على أي أثرٍ إلا كُوّة صغيرة أسفل الجدار الجنوبي في مربط الخيل. كُوّة بالكاد تسمح لمرور طفل.

«ما لقيناه..».

قال الحارس فور ما أدرك سطح البُرج، وتردّد قبل أن يواصل، فأخفض صوته أمام الأمير ورجاله:

«..لقينا في جدار المربط فتحة يا طويل العُمر..».

وقرَ القول في نفسِ قائد العسكر الذي عاينَ فتحة الجدار بنفسِه صغيرة لا تُثير الشُكوك. وارتبك الحارس لما تبدّى على وجه الشّيخ سالم من غضب، فأردف يُطمئن ويتنصّل من مسؤولية اتهام عطا الله بغير يقين:

«..لكنها فتحة صغيرة، بالكاد تُمرِّر عود الخيزران».

خرّ ساطور جاثيًا عند قدمي الأمير ينشجُ مِلؤه الذُعر:

«إنحاش عطا الله يا شيخ.. هرب وما كان خالي اليدين..».

ارتبك أحد حرَس البرج المتحلّقين حول الأمير ورجاله، وتقدّمَ إلى الأمير وهامسه بأنه رأى ما حسبه وهمًا؛ امرأة طويلة تمشي بعباءتها صوبَ الظلام.

«متى؟».

سأله الشّيخ سالم، فأجاب الحارس:

«قبل خروج مرشد ومرزوق والهذار إلى الديرة».

وما كاد يُنهي الحارس قوله حتى ارتفعت التكبيرات في البعيد:

«الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر».

صاحَ أحد رجال البُرج يُشير صوبَ الغرب:

«الإخوان.. الإخوان يا طويل العُمر».

فثارت البنادق خارج القصر، وارتفعت الصّيحات، وهزّت الرّاجفة الأرض والجدران، فابتلع الجرحى والثّكالى الأنين والصّراخ، يُصيخون السّمع مُروّعي الوجوه ذاهلي الأعين. وأرعدت السّماء بصيحات مَن طاع الله:

«إبراهيم يا عمود الدين، محمد يا رسول الله.. هبّت هَبُوب الجّنة، وين أنت يا باغيها؟».

أطلّ بِن ضباح ورجاله من البُرج، يُشرفون على الغرب، فطالعوا خيالات الجُند في الظلمةِ وراء مدى ضوء مشاعل أبراج القصر الأحمر. ومكث الجيش في الظلام بعد سكوت الرّاجفة لا تُسمع لهم نأمة. وتحرّى رُماة القصر المنبطحين أرضًا أمام فُرَجات الجدار، يترصّدون السّيقان إن أقبلت، غير أن مدى ضوء مشاعل الأبراج لم يُدرك محطّ الجيش المتواري على تخوم الظلام، ولم يُظهر منهم مُقبلًا واحدًا إلى القصر.

«جاؤوا يُطالبون بك بعدما هرب أخوك».

قال قائد العسكر، فنهضَ ساطورٌ عن الأرض وهو يقول:

«والله ما جاؤوا إلا ليهدُّوا القصر على رؤوسنا بعدما نالوا مرادهم.. *أتراهم نالوه؟*».

«مرادهم؟!».

تساءل قائد العسكر وهو يخصُّ الأمير بنظرة ريبة. ومشى ساطور بضع خطوات وأطلّ من البُرج ناحية الغرب، فصرخَ في الجند المتوارين في الظلام مقابل القصر:

«عطا الله!».

قذف صرخته من قاع صدره، فتشظّت أصداؤها في الفضاء المعتم كأنما السّماء تُسبّح باسم خالقها؛ الله.. الله.. الله. فانبثقَ أحدهم من الظّلام هزيلًا نحيلًا يُقبل على صهوة جواد. وولج بقعة الضّوء أمام الجدار الغربي ولجمَ جواده. فصاح بأخيه العالق في بُرج القصر:

«أبشر بالخير.. والأمانة وصلت».

فاستدار عطا الله بجواده واختفى في ظلام الجُند ثانية. وعضّ ساطور على منبت إبهامِه فضرب سطح جدار البُرج. والتفت إلى الشّيخ سالم والدّمعُ يهطل على وجنتيه، وحالَ الفداوية دونه ودون تقبيل قدمي الأمير وهو ينوح مثل ثكلى:

«ضاعت العباءة يا بِن ضباح.. ضاعت العباءة».

جرّه الفداوية بعيدًا وقيّدوه. وما رفّ للشيخ سالم جفن، يطلُّ من

فوق البُرج يُحدّق إلى ما يُشبه الظلال البعيدة. وتقدّم الرشيد إلى جواره ينظر إلى الوجهة نفسها. فلفظت الظلمةُ الفرسان والهجّانة والمشاة حاملين المعاول والفؤوس والسّلالم الخشبية، يصبُّهم الظلامُ في مدى ضوء مشاعل الأبراج أمام القصر. وعصابات رؤوسهم مُتّقِدة البياض تسبح مقبلة في الظلام، مثل قناديل البحر ليلة اكتمال البدر، يحملها موجُ اللّيل بتؤدةٍ مهيبةٍ إلى السّيف. وهالَ مرأى زحف السّلالم المقبلة الأميرَ والفداوية والحرَس، فأومأ بِن صُباح إلى الشّيخ علي، وسارع قائد العسكر يهبط سلالم البُرج، وانبطحَ أرضًا بين الرُّماة ومرّرَ سبطانة بُندقيته في فُرجة الجدار. فثارَ البارود ولفظت بنادقُ المحاصَرين رصاصاتها، تستهدف سيقان حمَلة السّلالم المقبلين. وكانت هِمّة الإخوان مثار عَجَب. يسقط واحدهم ولا يكاد يُلامس شلّه الأرض حتى يُرفع على المناكب من جديد، فتُصاب السّيقان الجديدة وتتهاوى الأجساد فوق الأجساد، وتعلو السّلالم مناكب عوضًا عن مناكب، تزحفُ فوق أجساد الجرحى مكسورة السّيقان، وتموج فوق العُصابات البيض موجةً في إثر موجةٍ تتكسّر على أعتاب القصر.

أشاح الأميرُ ببصره عن السّلالم الزّاحفة وأرسل نظرة إلى الشّرق، وجهة مسير الفرسان الثلاثة الذين فلتوا من الموت. وأمّل النّفسَ بنجدةٍ من الكويت بدَت بعيدة المنال. قال للرشيد باسمًا:

«سوف تكتب كل هذا..».

ثُمّ أطلق بِن ضباح زفرة طويلة قبل أن يردف:

«.. إن شاء الله».

***

(39)

تَبّة سليمان

«العُبور إلى سِفر العَنقُوز»

صمتت تراتيل شيوخ البحر آخر ساعات السّحر. وتراتيل حائكي الشّباك السّتةِ ما خبَت ولا انقطعت ساعةً إلا حِدادًا لأمرٍ جلل، أو احتفاءً ببشرى عظيمة. وتوقّف الزّمنُ لحظةً أطفأ كاتبُ الأسفار العائش في الغد روحًا أحبّها في صحائف مدينته. وعرفت مدينة الطّين أنها مُنذ هذه اللحظةِ بلا عجوزها الحدباء البرصاء التي قدّرت الأقدار في بدايات الأسفار. غابت العجوزُ عن بيتها المُثلّث ذي الأعمدةِ التّسعة في حيّ المرقاب، في لحظةٍ هاربةٍ من الزّمن.

فتحت أم حدَب بابها وأطلّت على السّكّة المظلمة تحمل أمامها سراجًا. ظهرت بوجهٍ داكنٍ برّاقٍ مثل الكهرمان الأسود، تبزق في

وجنتيها خطوط الدّمع. وأوصدت وراءها الباب الخشبي العتيق. تحملُ سَعفتها اليابسة والسراج وتمشي نافخة الصدر مبحلقة العينين مستوية الظّهر. خلّفت وراءها البيت المعلّث الذي حطّت على سوره طيور اللّوهَةِ في سالف الأيام، قبل أن تختفي الطّيور السّوداء وتهجر البيت، فتصِمُهُ بالخَرَس بعدما ضجّ بأصواتها التي تُشبه النّهيق. أنهت العجوزُ مُهمّتها وتركت الدّيرة لـ بُوْدَرياهْ يخرجُ اليوم من البحر. يظهرُ في سِيف الحَيّ القِبلي. يهجمُ على أبناء الطين يبحث عن أبيه ليقتله، ويقلبُ الوحشُ مدينة الطّين بحثًا عن عباءته السّليبة.

وأطبقت أم حدَب الباب وراءها ومشت دونما التفات، وتوارت في ظلام السّكّة تُتوّج منويتها بإكليل المنيّة، تُسلّم لغَشية الموت في أرضٍ لا يُقيم فيها أحد، ولا يُدَقُّ فيها وتد. تنشدُ مخاوفها على لحن أهزوجة الصاجّة العتيقة:

يا ربّة الذكرى والشّمسِ والطّين..

والبحرِ والصّحرا.. لو كنتِ تدرين..

يا الزّرقا يا الصّفرا.. حمرا الشياطين..

إن طاحت الجَهرا.. كِثرت سكاكين..

يا صاجّة يا صاجّة.. ما صدقتي..

ولمّا أنشدت أم حدَب في ظلام السّكّةِ أهزوجتها عاود شيوخ البحر إنشاد تراتيلهم، ودبّت في الزّمَن روحه التي انطفأت ساعة غابت عجوز المرقاب عن المرقاب. وصاحت ديوك الفجر وارتفع الأذان في

فضاء مدينة الطّين:

«الله أكبر الله أكبر.. الله أكبر الله أكبر»

سبقَ مؤذن مسجد «الشّاير» مساجدَ الدِّيرة. وتصاعد الأذانُ من مئذنتِه في السّماء فوق البيوت والمساجد والدّكاكين يمضي في الهواء نحو السّيف، يسبقُ خَليفُوْهْ أبا القطاوَة الذي يتخطرف في مشيه بين ضِيق السّكك حاملًا سِراجه، يقصدُ صاحبيه عند الصّخرة العجوز. وتابع الأذان تحليقهُ في الفضاء، يطفو فوق أرض الإرسالية الأمريكية المطلة على ساحل الوَطية. عابرًا المبنى الجديد الذي شيّدهُ الإنجيليون في ظهر «بيت الزُّجاج» كنيسةً خرساء بلا ناقوس.

«أشهدُ أن لا إله إلا الله.. أشهدُ أن لا إله إلا الله»

هبط صوث المؤذن شجيًا على سليمان وصَنقُور في السّاحل المظلم، وانطفأ في موجات البحر الهادئة، فصدحت مئذنةٌ تلوَ مئذنة، تنثرُ البركات في سماء مدينة الطّين، تُزاحم تراتيل شيوخ البحر السّتة. وسليمان يخلع نعليه على الثّراب ويخوض في مياه الخريف الباردة. يُسارع الخَطوَ يبحثُ عن الصّخرة السّوداء التي سوف يوليها ظهره ليدخل الموجة السّابعة. وابتعد صَنقُور بقامته القصيرة محني الظهر فوق صخور السّاحل، يبحثُ في ظلمة الماء والسّماء عن الصّخرة التي تحملُ أثرَ وطأة الخِضر وثَقب عَصاه. *اللعنة! تضيع مني في كل مرّة! لو كان البَرَنْتَى هُنا..*

«أشهدُ أن محمّدًا رسول الله.. أشهدُ أن محمّدًا رسول الله»

تسارع وجيبُ سليمان خشية انتهاء أذان الفجر قبل عثورهما على الصّخرة في المياه السّاجية. وتعثّر في مشيِه فانحنى على قدمِه

اليُسرى يُبعد شيئًا علِقَ بين أصابعها، فحرّر قدمه من قلادةٍ ذهبيةٍ دقيقةٍ يتدلّى منها صليبٌ صغير.

ولمّا يئسَ صَنقُورَ من العثور على الصّخرة العجوز وقفَ بعيدًا عن سليمان يُمسك بكيسٍ شفّاف. وتناول منه مصباحًا يدويًا يشبه القلم. فأشعله وصوّبه إلى الأرض يُهرول جيئةً وذهوبًا. ولم يمكث طويلًا قبل أن يصيح بـ سليمان:

«لقيتها!».

«حيّ على الصّلاة.. حيّ على الصّلاة»

هبّ إليه سليمان راكضًا، ثمّ جثا حينما أبصرَ بُقعة الضّوءِ ساطعةً على الصّخرة، تنبثقُ مُشِعّةً من كفِّ صَنقُور. بهت وهو الذي لم يُصدّق حينما أخبره خَليفُوه من قبل أن صَنقُور القصاصة يُخرج الضّوَ من كفِّه:

«ما هذا؟!».

حملقَ القصاصة إلى الصّخرة التي شعّت في ضوء مصباحه وأجاب:

«صخرة الوطية».

هزّ سليمان كتف صَنقُوز وسأله:

«ما هذا الذي في يدك صَنقُور؟!».

صوّبَ صَنقُور الضّوء إلى وجهه طفوليّ الملامح، فشعّ في الظّلام واسع الابتسامة، وغارت عيناه في الظلّ وراء اكتناز خدّيه:

«ثريك»(14).

ثمّ وجّه الضّوء إلى سليمان فالتمعت القلادةُ في يدِه:

«ما هذا؟».

سأله الشّاب القصير، ثمّ هجمت أصابعه على القلادة وراح يتفحّصها على ضوء المصباح:

«أستغفر الله! حرام.. هذا صليب».

«حيّ على الفلاح.. حيّ على الفلاح»

دسّ صَنقُور القلادةَ الحرام في مخبَى دِشداشتِه، ثمّ أطفأ المصباح وأعاده إلى الكيس الشّفاف. فنهضَ سليمان غير مبالٍ بالقلادة المصادَرة، ودنا إلى الفتى الذي يحبسُ الضّوء في كيس. وأمسكَ ذاك الشّيء الشفّاف بيده يتحسّسُ خامًا ما لمس لنعومتِه مثيلًا. ليس بحريرٍ ولا بورقٍ ولا بِمَلْمَل، ولا هو بنسيجٍ ولا وَبَر ولا صوف ولا أطلس. *يا ابن السّاحرة!* وسأل صَنقُورًا شاخص البصر عن الكيس الغريب:

«ما هذا؟!».

فلم يجبه ابنُ صاجَة الجزيرة، ودسّ الكيس وما فيه في مخبَى صدره، ورجاه سليمان أن يُريه ذاك الضّوء المحبوس في كيسه السّحري، فقارب مؤذّن المسجد القريب يختتم الأذان:

«الصّلاةُ خيرٌ من النّوم.. الصّلاةُ خيرٌ من النّوم»

دفع صَنقُورٌ سليمانَ أمامه، وأولى كلاهما ظهره إلى صخرة

السّاحل، وخاضا في البحر حتى حاذى الماءُ سُرّةَ سليمان، وارتفعَ إلى كتفيّ صَنقُور. فتحرّكَ الموجُ مُقبلًا، ورفعَ صَنقُورَ ذراعيه يُمسك بكتفيّ سليمان من ورائه، يُعِدُّه للتَبّةِ الطويلة في الموجة السّابعة بعد آخر كلمات الأذان. فأدار ولد شايعة رأسه ينظرُ إلى الدِّيرة وراء ظهره كأنما يودعها، يتخيّل أمّه في «المطبّة»، ويفكّر بفضّة والحليب المُر. *والله لولا كلام الناس لأبقيتك زوجة. لعنة تلعن الناس والصاجات و.. والجميع.* وتاقت نفسه إلى تحقيق مطالبه المستحيلة. *ألّا أفارق السّيف ولا أقابل أهلي، وأن أخبر ولدي أني تركته يومَ تُرِكت.* تنبّه في الظلام وهو ينظرُ وراء ظهره، فأبصرَ خيال رجلٍ يحملُ سِراجًا يُقبل من بعيد.

«الله أكبر الله أكبر»

توقّف الرّجل قُرب الصّخرة، وانحنى يضعُ السّراج على صخور البحر، وتبدّى في نور السّراج عند قدميه خيالُ قِطّتين ثُقعيان بلا حراك. فهزَّ صَنقوْرَ كتفيّ سليمان، يُنبّههُ إلى عدّ الموج بعدما يختم المؤذن نداءه:

«لا إله إلا الله»

أوشك سليمان أن يُردّد الشّهادة وراء مؤذن المسجد القريب، لولا انبرى صَنقُورَ يعدُّ الموجَ بصوت مسموع: «الأوّلَه..»، فسدّدَ سليمان نظره إلى الأمام يستشعرُ الموج الدّاكن مُقبلًا، فتابع صَنقُور:

«الثانية..».

«صَنقُور.. أنا لا أريد أن أموت».

«اِحسب هذي الموجة المقبلة هي الثالثة.. أُمي قالت إنك لن تموت».

«لكنها قالت اِبقَ في التَبّةِ حتى ينقطع نفَسك، وانقطاع نفَسي يعني مَنيتي».

«الرابعة.. لن أتورط في موتك، وهذا صاحبك الأملط وراءنا يشهد.. هذي الموجة الخامسة».

تسارع خفقُ سليمان وتعرّق جبينه وهو يُحكِم لفّ غُترتِه حول رأسِه:

«هل أخرج منها سالمًا؟».

«جهّز نفسك هذي السادسة.. وكما قالت لك أمي؛ تتحقق مطالبك في التَبّة يا ولد شايعة.. هذي الموجة السابعة.. أمّنتك بالله قُل للجماعة إن كولمن يسلّم عليكم.. يالله أسرِع!».

ملأ سليمان صدره بالهواء لا يفقه من كلمات صَنقُور آخرها. ثمّ غطسَ جاثيًا على رُكبتيه في الموجةِ المقصودة. فسكتَ شُيوخ البحر عن النّشيد، وكفّت الأمواج عن المجيء. وانحنى القصاصة على صاحبه السّاكن في الماء، يدفعُ كتفيه إلى الأسفل يُعاونه على إتمام التَبّة. وشعر سليمان أنه يهبطُ إلى قاعٍ سحيق. وسمِعَ وجيبَ قلبِه مثل وقع حوافر الخيل في ساحة الوغى، وأنصتَ خَلَلها إلى صوت شيخ البحّارة يمسحُ على قلبه ويُكرّر نصيحته: *تحكّم بنبضك فإنه يطرِدُ الهواء من الصدر!* فيحبش سليمان الهواء في الصّدر، كما لو أن الشّيخ ينتظره على حافّة السّنبوك في السّطح. وتهدأ دقّات قلبِه وتنأى الواحدة عن شقيقتها مقدار ما ظنّه سليمان دهرًا.

فيغيبُ فيما يُشبه الحلم، ويرى في الخيال ضياء الشّمس في غير أوانِه يخترقُ الماء مثل الشُّهب، تنسلُّ من بينها سمكةُ العَنْفُوْز، تتألّقُ بزُرقتها الدّاكنة واللّطختين الصّفراوين المشعّتين في جانبيها. ويرفع بن سهيل رأسه تنبجش من منخريه فقاعات الهواء الأخيرة، فيبصرُ في خياله قاربًا يطفو في الأعلى يُلقي صُرّةً في حجمِ قبضةِ الكفِّ ويمضي. فتهبطُ الصُّرّةُ بطيئًا حتى إذا ما استقرّت في القاع نبتَ منها وَتدٌ راكزٌ في الأرض. فتنطفئ سمكة العَنْفُوْز وتختفي، وتغيبُ شُهُب الضِّياء ويُظلم الماء.

ولمّا اختنقَ سليمان انتفض كمن أفاق من كابوس. وأوشك أن يفتح فمه في الماء وهو يحاول النّهوض، فتسلّق شبيه الأقزام ظهره، يتشبّث به مثل عنكبوت الشّبَث، واعتلى كتفيه وثبّت رأسه بين فخذيه، يُجبره على إنهاء التّبّةِ كاملة. فأطبق ولد شايعة كفّهُ على دِشداشَةِ ابن صاجّةِ الجزيرة الذي يعتلي كتفيه، وهو يرافس تحت الماء في الظلمة، وقبضته مُطبقة على ياقة صَنقُور تجرُّه إلى أسفل. فصاح عليه مُعاونه على التّبّة ورأسه يُقارب الماء وهو يُقاوم:

«اترك دِشداشَتي يا ولد!».

وانحنى صَنقُور بعقلِه كلّه يصيحُ بـ سليمان، ولا يسمعُ الفتى في لُجّةِ الماء إلا نثارًا من كلمات صَنقُور:

«شهر.. شهر لا بارك الله فيك.. شهر..».

فغطسَ ابنُ صاجّة الجزيرة مغصوبًا في مياه الخليج، ملتصقًا بظهر صاحبه العالق في التّبّة. وطفَت غترة سليمان، وسكنَ الماءُ واقتربت طلائع الضِّياء. وانخفضت مياهُ البحر وتقهقرَ الموجُ هاربًا إلى الجَزر.

فتبدّت في ضوء السّراج مع غبشةِ الفجر صخرةُ السّاحل فاقدة الذّاكرة، وبانَ خيالُ خَليفُوْهْ إلى جوارها يقفُ بين قِطّتيه تحت سماءٍ شهباء، يُقاطع ساعِدَيه ويضمُّ نعلَيّ سليمان إلى صدره. ولا يَحيد ببصره عن موضع تَبّةِ صاحِبِه مُبحلق العينين يُقاوم جفنيه كيلا يرمشا كما أوصته صاجّة الجزيرة. غير أن التّبّة لمّا طالت هبّت ريحٌ مالحةٌ في وجهه، فرمشَ وما خرج سليمان ولا صَنقُور، ثمّ أغمضَ وأطال إغماضته والدّمع يسحُّ على خدّيه. فتح عينيه وحثّ خطوَه إلى الغترة الطّافية، وما كاد يستلُّها من الماء حتى تراءى له خيال كائن يظهر غير بعيدٍ في البحر رافعًا يديه يصيح:

«يُبه!».

ارتعدت فرائص خَليفُوْه وشُلّت ساقاه، لا يصدّق أنه يُبصر ذاك الشيء الذي ظهر من البحر وصاح يُنادي أباهُ مرّةً فظلّ ساكنًا يواجه الدِّيرة. وارتفعَ صوتُ نورسٍ من بعيد، فانطلقت أُنشودة شُيوخ البحر تنثرُ شظاياها في فضاء السّيف ثانيةً:

«هولو هيهْ.. هولو هيهْ».

فخرجَ المُصلُّون من المساجد. وأدارَ خَليفُوْه للسّيف ظهره معقود اللسان لا ينظرُ إلى الوراء. ويمّمَ صدره وجهة سوق الحريم يحمل سراجه ونعليّ سليمان وغترته، يعبر أمام «بيت الزجاج»، فيُبصر سركيس باشّ الوجه، يقتعدُ كرسيًا أمام مَشفى الإرسالية بالكاد

يرفع رأسه المترنّح. يُحيِّي المصلِّين الخارجين من مسجد «السّاير» القريب:

«تقبّل الله».

ولا يردُّ المُصَلُّون على الأرمني الثّمل كاظمين غيظهم، ولا هو ينتظر منهم ردًّا. فيشاهد خَليفُوْهْ مُقبلًا من السّيف ويستوقفه:

«أتحمل النعال بيديك وتمشي حافيًا؟!».

بدأها سركيس مُزحةً، ثُمّ أبصرَ الدّمع على وجنتي خَليفُوْهْ يلمعُ في ارتعاشات شُعلة السّراج. يمشي دونما إبطاء أمام الأرمني.

«خليفة! هل أنت بخير؟!».

نهضَ سركيس عن كرسيِّه وهرول وراء أبي القُطاوَة فسايره. وواصل الاثنان السّير وحُلّت عقدة لسان خَليفُوْه يُجيب:

«أنا بخير.. لكن سليمان.. ابتلعه البحر وهذان نعلاه بين يديّ».

«قُل غير هذا الكلام! سليمان غوّاص، أيبتلعه البحر على السّاحل؟!».

أجاب خَليفُوْه:

«راح بكيفه».

ثُمّ تفرّقت دروب الشّابين بين السّكك الدّكناء، وارتفع قرعُ طبول العَرْضة تحت الشور لليوم الثّاني. طارت سكرةُ سركيس فطار متعثّرًا بخطوهِ إلى الحَوطَةِ يُخبر سعدونًا. ومشى خَليفُوْه إلى داره قُرب سوق الحريم. وجاوز رُكن الصاجّة أُم عبدالرّحيم وهي تفرش موضعها بالحصير بين قِدر الباقلاء وقربة اللّبن الرّائب. وانعطف في السّكّة اليُمنى فواجه كريمَ العين، خارجًا من المسجد يطوي بِشتَهُ الرّمادي على ساعِدِه الأيمن. تسارع نبضُ خَليفُوْه وأطبق أصابع يمينه على إبهامه. تحفّز أشهب وإلينور. وارتدّت آذانهما إلى الوراء واتّسعت حدقاتهما وانتفشا أمام الشّيخ المقبل. فسدّ صاحبهما عليه الطّريق في السّكّةِ الظلماء. وتوقّف الشّيخُ في مُنتصف السّكّة باهتًا، واقترب منه خَليفُوْه مسافةً لم يقربها منذ ضُحى مغسل المسجد قبل أحوال. رفع السّراج أمامه وبحلقَ إلى وجه المُلّا يُنقّل بصره بين لحيته الحمراء وغصابته البيضاء وعينه اليُمنى والتّجويف الغائر محلّ عينه اليُسرى. واسترجع كلماتٍ قديمةً ما خفتَ صداها يومًا

داخل رأسه. *يا أملط يا أمرد. إنقلع عن وجهي فإن النّظر إلى وجهك حرام.* تمسمرَ خَليفُوْهْ قُدّامَ مُلّاهْ القديم. اقشعر بدنه وخَرخَرَت أنفاسه، ولم يلتفت إلى الوراء على مألوف طبعه. فبادره التّحية ضاغطًا فكّيه:

«السّلام عليكم مُلّا».

وما ردّ كريمُ العين لأبي القُطاوَة سلامًا، ولا ابتسامًا، ولا إيماءة رأس. وأزمع المُلّا أن يتجاوزه في المسير، فماءَ أشهب مُكشّر الوجه مبحلق العينين بارز الأنياب. وجاوبته إلينور مواءً أطول وأحدّ. فهبطَ صمتٌ قصيرٌ في السّكّةِ الظّلماءِ تخلّلته زقزقة زرازير الفجر. فمزّق المُلّا إبراهيم هدأة المكان بصرخةٍ دوّت في فضاء السّكّك، وولّى أبو القُطاوَة الأدبار ينحاش صوبَ «المطبّة».

***

(40)

غابةُ الصُّوف

يا أخا الرُّوح آهِ ما ضَرّ لو ودّعتَني أو خصَصْتني بالسّلامِ

يا أخا الرُّوح كيف أصدَرَتِ الأقدارُ حُكمًا عليكَ بالإعدامِ

كيفَ نفّذتَهُ بنفسِكَ يا هذا بلا رهبةٍ ولا إحجامِ

فهد العسكر

ولمّا حمل له الأرمنيّ نبأ انتحار سليمان هجسَ المأفون ذاهلًا. *راحت السّكرة وجاءت الفكرة*. ثمّ اشتفّ ما في كأسه السّادسة. *فعلها الطفل!* وترك سركيس وبهيجة في مجلس المَتسَى. *هذا ليس مكاني!* ومضى مترنحًا إلى مخدعه.

«اتركاني لوحدي قليلًا».

***

وما كاد يُطبق عليه باب الحُجرة حتى تخايل له المكان جديدًا أليفًا آمنًا، لا يشبه أي مكانٍ زاره في حِلّه وترحاله عبر البحار والخلجان. ألفى نفسه في غابةٍ ما رأى لها مثيلًا، لا في جُزر أسفاره ولا في موانئ مُدنها، وما زار مثلها في حُلمٍ ولا خيال. أشجارٌ عملاقةٌ ظليلةٌ ممتدّةٌ مثل الأبد. يتدلّى من أغصانها الصُّوفُ ناعم الملمس عَطِر النّفح نَضِر اللّون وَهّاجًا تحت أشعّة شمسٍ رحيمة، يتأرجح في الهواء مع هبّات نسيمٍ غربية؛ صوف أبيض كالبَرَدِ على تربةٍ داكنةٍ بليلة، أسود مثلَ ليلِ السّدِيس لا نجم يُنير ولا قمر، رماديٌّ مثلَ عباءةٍ

أبهت ملحُ البحر نسيجها، وبَنّي داكن مثل ليفِ النّخل المُعمّد بماء المطر.

غابةٌ عظيمةٌ تنبث فيها شجرةُ صوفٍ بين شجرةِ صوفٍ وشجرةِ صوف. غابةٌ تضجُّ بأصواتٍ مُتناغمةٍ مثل أنشودةِ ابتهالٍ جماعية؛ عجيج نهرٍ بعيد، وهمهمات تشبه الأناشيد، وحفيف يُشبه الصّلوات تهمس به أشجارُ الصّوف الكثيفة الظليلة المتمايلة مع هبّات النّسيم. يتنزّهُ زارِعُها متهاديًا بينها يتطلّع إلى الأعلى، غائبًا في غابته، يبهره غرسه القديم نابتًا في الغصون التي تُلوّح له في كُلّ مكان، تُحيِّيه وتُشير صوبَ النّهر تُرشده إلى الطريق. يتلفّتُ إلى كل الوجهات يُبصر الأشجار الشّامخة من حوله. لا مثيل لواحدتها بين الأخريات، تنحني عليه تُظلّله بصنوفِ أصوافها؛ صوفٌ مضفورٌ يتهدّلُ مثل جدائل تؤرجحها النّسائم، صوفٌ ممشوطٌ ومنفوشٌ ومدبوغٌ وآخر بالحِنّاء مصبوغٌ يتدلّى مثل عناقيد العنب. وصوتٌ مألوفٌ يجيئه من مكانٍ قصي، يهبطُ مثل شلّالٍ يندلقُ على السّفح من جبلٍ عظيم ذِيغ من الصّوف، تتردّدُ أصداؤه في غابة الحُلم. جِسٌّ رخيمٌ شَجيٌّ مثل ندائه على سطح بيته طِفلًا يُردِّد الأذان في الفجر. صوتٌ له رائحة مهدٍ وحليب:

«نام يا وليدي نام، نام ولك ربٌّ لا ينام..»

طَرِب للصّوت البعيد واستعذبته روحه، غير أنه في هذه السّاعةِ بالذّات، بخلاف أي ساعة، ما أرادَ أن يُسدَل له جفنٌ على نوم.

«نام يا وليدي نام، بحضن موسى وعيسى، والنّبي عليه السّلام»

صاحَ بصوته المخمور ينتزُ أصداءه فوق رؤوس أشجار الصّوف

الشّامخة:

«يُمّه!».

كمِنَ الحِسّ الشّجيّ وتناهت إليه أصواتٌ نائيةٌ صوبَ عجيج النّهر، تنسكبُ مثلَ مَور الموج الهادئ:

«هولو هيهْ»

فأطرقَ ينظر إلى قدمَيه الحافيتين. ينبث في مواطئهما الصُّوف ناعِمًا بين خطوة وأختها. ابتسم الذي نسيَت شفتاه الابتسام. ضحك ثُمّ قهقه فانسكبَ الدّمعُ على وجنتيه. وراح تحت أشجار الصُّوف يزفُن، يُنقّل خطواتِه بخفة ويهزُّ كتفيه ببطء. ويتطلّع إلى الوراء يُحصي منابت الصُّوف في آثار خطواته الموزونة في زفانه. فيركض بين الأشجارِ والصُّوف ينبت. ويزفن. يضحك. ويركض. ويتوقّفُ أمام شجيرة في مثلِ طولِه مُسربلةً بثوب الزّري الشّفيف، ينحدرُ الصُّوف الكستنائيُّ من قمّتها متموّجًا برّاقًا مثل الحرير، يتضوّع بريح المشمومِ والبخورِ والزّعفران. وعلى جذعها آثار فؤوس مزّقت لحاءها. يمدُّ ذراعيه يُمسك بغصنيها النّديين المطوقين بالأساور الرّخيصة. يُراقصها مُنتشيًا تحت الشّمس والريح الغربية تُنسنس برودةً عطوفًا. تُسدّد الشُّجيرة غصنها ناحية طريق النّهر بودّها لو تتبع معه الهدير، غير أنها محكومة بالمكوث في مكانها أبدًا، تشدُّها الجذور إلى حيث تقفُ موشومة بالنُّدوب وآثار الفؤوس. يلتفتُ مُخضّل العينين، يهابُ إطباق جفنيه لئلّا ينتهي هذا الشيء الذي لا يُشبه الحُلم ولا خيالات السُّكر ولا هلوسات العَرَق في هجماتها المباغتة. شيءٌ لعلّه السّحر. شيء ما رأى مثله قط في موانئ الدُّنيا

البعيدة. شيء لا يَقدر راوي أعاجيب القصص على تخيّله ولا وصفه ولا تدوينه في كرّاسه جِلدي الغلاف.

مشى يتتبّع إشارات الأغصان مثلَ أذرع ممدودةٍ نحو خرير الماء والتّرانيم الخاشعة الشجية. وتملّى في الأرض بين زحام أشجاره، لا يترك مساحاتٍ خِلوًا من زرعه الذي أثمر أخيرًا. ينثرُ خطواتٍ تُنبت الزّرع. يركض تارةً ويزفنُ أخرى ويضحك من قلب قلبه ضحكة نسيها منذ زمن بعيد. يُباعد بين ذراعيه، ويُحدّق إلى الأرض حيث ينبت الصُّوفُ في مواضع نطيطه. يفرشُ الأرضَ ببراهين الغُفران أخيرًا، ويُبطل لعنة أبيه.

لاح له النّهرُ ينسكبُ من قِمّة جبلٍ عظيم، يشقّ طريقه بين أشجار الصّوف انحدارًا، أبيضَ مثل شراب اللّوز الفارسي، يتربّع على ضِفّتِه شيوخ البحر السّتة كالِحي الجلود، ينسجون الشّباك مُطأطئين ويُهمهمون:

«هولو هيه.. هولو هيه».

مالت عليه عند ضِفّة النّهر شجرةٌ سامقةٌ تُرخي جديلتها الصّوفية الطويلة. أمسكَ الجديلة بكلتا يديه يتحسّسها، ويتشمّمُ عطرها القديم. ثمّ عقَدَ في آخر الجديلةِ أنشوطةً، يتلفّت حوله يُحصي موجودات الغابة التي لن يدوّنها في دفتره البُنّي.

فهمدت أصوات شيوخ البحر في فضاء غابة الصّوف مرّة ثالثة في بداية هذا اليوم الغريب.

***

وأقبل بن شاؤول على المَتسَى بُعيد الشُّروق على رأسه البُلبُل، جاء على دأبه ليستبدل بسخّارة الزُّجاجات الفارغة السخّارة الجديدة. وفتحت بهيجة باب مخدع سعدون تستأذنه استبدال عاموس الزُّجاجات. فأفلتت صرخةً فزعَ لها سركيس وبِن شاؤول الذي طارَ البُلبُل من رأسه.

وعاود شُيوخ البحر السّتة حياكة شِباكهم الأبدية..

يُغنّون لموجةٍ لا تجيء.

***

(41)

ثاني أمارات الختام الخمس

«ظهور بُوْدَرِياه في سِيف الحَيّ القِبلي»

وحانت صلاة الظهر، وارتفعت تكبيرات الأذان تبذرها مآذنُ الدّيرة، فنبتت في القلوب طمأنينة تُسكّن رعشاتٍ خلّفها قرع الطُّبول عند السّور. وغصّت المساجد بالمصلّين حتى صَلّى الأكثر حولها في ظلال أسوارها، إلا مسجد سوق الحريم الذي خلا مِن إمامه، تلهو الريحُ ببابه ونوافذه الخشبية، فتتصافق بإيقاع رتيب كأنما تُكبّر وتُصلي في سكون المكان بغير مُصلّين. ورفع المصلُّون الكفوف في مسجد السّوق الكبير، يؤمّنون وراء المُلّا عبدالمحسن خاشعين، وهو يدعو الله لُطفًا بالأمير ورجاله، ويحث المصلّين أن يهبّوا لنداء الفارسَين اللذين كسرا حصار القصر، وأقبلا من الجهراء يطلبان نجدة الشّيخ أحمد.

وكبّر المُلّا ودعا الله أن يُرسل مع الجندِ جُندًا من عنده لنصرة المحاصرين في القصر الأحمر. ومرّ الوقت غريبًا مقيتًا يحمل من غرائب الأخبار ما لم يتخيّل الأهالي سماعه إلا في أحاديث الخرافة، إذ تصايح النّاس بُعيد صلاة الفجر، يردّدون اسمَ بُوْدَرِياه. وتكاثرت الأقاويل واختلفت في مساراتها، واتفقت على أن المسخ ابن الآدميّ واللُّخمة قد ظهر من البحر في الحَيّ القِبلي، كما وصفته أُم حَدَب؛ لا جِنّي لا إنسي، جسدٌ آدمي ووجهٌ شائهٌ بعينين كبيرتين يُشبه وجه شيخ الذُّباب. أقسم البعض بأغلظ الأيمان إنه رآهُ خارجًا من البحر ماشيًا على السِّيف. وقال بعضٌ إنه هجم على المصلّين الخارجين

من مسجد «السّاير». وادعى بعضٌ رؤيته ينسلُّ إلى «بيت الزجاج». وأكّدَ بعضٌ أنه اختفى في سِككِ الدّيرة الضاجّةِ بتراتيل شيوخ البحر يسأل عن أبيه.

***

يا ربي يا حبيبي أخبرني أن ما شفته بعد صلاة الفجر لم يكن حلمًا. ذاك وقتٌ وهذا وقت وأنا بينهما ما فارقتُ حصيرة صلاتي هذه أرجوك إجابة. أنت تدري وأنا أدري، ما كان حلمًا ولا تراءى لي وهم. ما نمتُ ولا غفت لي عينٌ يا رب العباد، فأقول إن شوقي إلى ولدي جاء به في منامي. أتزورنا الأحلامُ والعيون مفتوحة يا الله؟

غفوت على الحصيرة ربما لكني صحوث حينما أقبل. كنت صاحية. ورب الكعبة يا ربي صاحية. أشوف وأسمع وأشم وأحس الملمس وما كانت لمسته إلا حقيقة. ما الحقيقة يا الله؟ والله يا الله كنت صاحية ساهية أناظر السقف بعد صلاتي. دائخة متعبة. يا ربي إني أشهدك أنه زارني وكلمني وقبّل رأسي مرتين وراح على وعد. لا أدري كيف دخل الحوش وباب الشّكّة مغلق بالمزلاج. كيف فتح باب الشّكة وجاءني هنا في حجرتي؟ ما أعرفه أني كنت على حصيرة صلاتي هذه بعد صلاة الفجر أدعوك أن تردّه إليّ. وإذ به يدفع باب حجرتي هذا ويُقبل عليّ مبتلّ الدّشداشة. انحنى عليّ حاسر الرأس بلا غترة تغطي أُذنَي الخضني يا لشوقي إلى أذنيه. قبّل رأسي وقال إنه عاد ليعود ويُعيد. ويقولون إني لا أفهم! أنا والله أفهم ولست مثل الحبارى جازى الله من أسماني الحبارى. أنا أفهم، حتى لو انحاش الجنّي الذي عشقني وأنا طفلة بنصف عقلي. أنا أفهم بنصف عقلٍ لكن كلامه لم يكن مفهومًا يا ربي. وماذا تُعيد يا ولدي؟ قال أعيد ولدي يا يُمّه وأعود لزوجتي فضّه. فقبّل رأسي ثانية وركض إلى الخارج. وأنا على حصيرة الصّلاة ما برحتها أدعو الله ألا يكون حلمًا ما رأيت. أين راح ولدي؟ أتراه راح ينبش التراب في مقبرة «هلال» فيخرج ولده؟ هل جن ولدي أم أني جننت؟ أيعود اللحم يكسو العظام يا محيي العظام وهي رميم؟ أين ذهب الولد؟ أتراه لحق بالأمير ورجاله المحكورين في الجهراء؟ كان واثقًا بعودته يا ربي والله العظيم. هل أقوم الآن وأزف البشارة إلى فضّة؟ أم أنه وهمٌ تراءى لي فأُسعدها بخبر كاذب؟ أم حدَب قالت لي إنه مثل المولاف سوف يعود. يُبطئ ولا يُخطئ دربه إلى بيته. حلّفتك بالله يا ربي، يا واحد يا أحد، إن كان كل ما مرّ بي حلمًا أن تُعيده كلما

أغمضت لي عين، وإن لم يكن حلمًا فقل لي وطمئن قلب عبدتك شايعة بنت عبدتك نورة، واسعد قلب فضّة اليتيمة يا رحمن يا رحيم، يا مجيب الداعي يا علّام الغيب أنت تدري بما في قلبي.. وا حرّ قلبي حرّاه.

***

صاح ديك في حوش دار شايعة فاستبشرت بمرور مَلَك. وحمّلَت المَلَكَ العابرَ دعاءً إلى السّماء أن يرُدّ الله سليمان. نهضت تتكئ على ركبتيها. *آمين*. طوَت حصيرة الصّلاة، وخرجت من الحجرة التي ما فارقتها مُذ تخايل لها طيف ولدها فجرًا. خشيت أن تركض وراءه تستمهله حينما أدار ظهره. *فيدبر المولافُ إذا ما أقبلتْ عليه*. فسكنَت على سجّادتها حتى صلاة الظهر تُصَلّي لمولافِها أن يعود. *يا ربي يا حبيبي*. وأتمّت صلاتها فغادرت الحجرة بالكاد تجرُّ خُطاها. *يا الله عليك ولا على غيرك*. تعبر الليوان تكنس الأرض بقدميها الثقيلتين، ماضية إلى دار الكَيل تجهّز من الحبوب ومُجَفَّف السّمك غداء اليوم. *تعال وأنا أسَوّي لك غترة ما مثلها غترة*. ولاحت لها قطعة قماشٍ بيضاء أعلى سور بيتها وهي تقطع الحوشَ إلى المخزن في الليوان المقابل. *ما هذا؟!* تلكأت قدماها في منتصف الحوش، فأسرعت إلى سُلّمٍ خشبيٍّ مُلقى عند باب دار الكَيل.

رسمت خطّين في رمل الحوش وهي تجرُّ السُّلّم الخشبي الثقيل من الرُّكن إلى باب السّكّة. وأسندته إلى الباب وارتقت درجاته راجفة القدمين حتى اعتلته، وأطبقت كفّها على طرف خرقة القُماش البيضاء أعلى الجدار، وألفتها غُترة مكوّمة جافّة الأطراف رطبة القلب. *هذي غترة وليدي!* هبطت شايعة السُّلّم وأظّلت بنصف وجهها

من الباب على السّكّة. *لا أحد*. فأطبقت الباب وصاحت: فضّة!

اقتحمت حُجرة فضّة وأسقطت نفسها على الفراش لاهثة. جلست على طرفه وأمسكت بكتفي الفتاة توقظها من شرودها في السّقف، وقالت متقطعة الأنفاس:

«سليمان رجع يا بنيّتي. سليمان رجع ليرجع سيف ويرجع لك!».

أفاقت فضّة من شرودها تنظرُ إلى وجه حماتها. *الحبارى*. وهي تلوّح بالغُترة أمام وجهها برهانًا على أن سليمان كان في الجوار. *الله يخلف على عقلك يا خالتي*. بدت شايعة كالبلهاء بوجهها الضّاحك وعينيها الذّاهلتين الدّامعتين. *ويخلف على قلبي*. ومدّت شايعة يدها بالغُترة إلى فضّة، مثلما مدّها سعدون إليها قبل ثماني سنوات يُبشّرها بختمة القرآن. وقالت لكنّتِها:

«سليمان رجع وهذي غترته!».

أمسكت فضّة بطرف الغُترة ولم يعنِ لها الأمرُ شيئًا، غترة مثل أي غترة. فأفلتت أُم سليمان زغرودة لَعْلَعَت في فضاء الحُجرة. وبينما الفتاة تناظرُ حماتها ذاهلة يلفها الخوف من أن تُجن؛ تعالت طرقات على باب السّكّة. قطعت أُم سليمان زغرودتها ولملمت أطراف درّاعتها، وسارعت إلى الطّارق بلا عباءةٍ ولا بُوشِيّة تحمل في يدها الغُترة:

«وصل!».

صاحت تاركة الحُجرة تسابق خطوها الثّقيل إلى الباب. تُجيب الطّارق في هرولتها المتعثرة وهي تُردّد:

«لبّيه يا يُمّه لبّيه».

وأجفلت حينما ألفت غريبًا يقف ببابها، سارعَ يُطأطئ فردّت الباب وعادت إليه ثانية تتسربلُ العباءة وتسدلُ على وجهها البُوشِيّة. وأطلت بِنِصف وجهها من وراء الباب تُبادر راجية:

«خير؟».

قطّب الرّجل جبينه، ورفع رأسه يعلّق نظره فوق كتف المرأة لا ينظر إلى وجهها:

«البقا في راسكم».

اتّسعت عينا شايعة تُبحلق إلى وجه الرّجل المغبّش وراء بُوشِيّتها، مالت برأسِها توليه أذنًا وعيناها على شفتيه:

«فيمَن؟».

وما كاد الرّجل يلفظُ سين سليمان حتى خرّت شايعة وجثت عند عتبة الباب:

«وا فؤادي! من يقول؟! كيف وأين ومتى؟».

«لا أدري.. يقولون إنه أغرق نفسه عامدًا في الوطية.. بعد انتهاء أذان الفجر».

تحاملت شايعة على رعشات ساقيها ونهضَت تصيح على الرّجل وهي تلوّح بالغُترة:

«كذّاب! كيف بعد أذان الفجر، وهو بعد الصّلاة كان عندي؟!».

مدّت ذراعها بالغُترة إلى الرّجل وصاحت:

«ما مات سليمان وهذي غترته!».

حوقل الرّجل مأخوذًا بالشّفقة لحال الثّكلى المنكودة بولدها. أدار ظهره وأنصرف وصياح المرأة يهبّ من ورائه:

«والله ما أنت إلا من رجال بن حامد.. ما كذّبتم خبرَ موت ولدي حتى تأخذوا البيت سدادًا لدَينه ودَين أبيه!».

وجدّ الرّجل في المسير حتى انعطف في آخر السّكّة. وتسارعت الجارات والتففنَ حول شايعة يهدئنها ويذكرن الله ويُذكّرنها، وهي في غمرة نشيجها تصيح وتلوّح بالغُترة:

«ما مات سليمان وهذي غترته».

وانفرطت شبحة البكاء وانخرطت النّسوة في حفل النّشيج، وشايعة تلوّح بغُترة سليمان وتقول إن الصاجّة قالت إنه مثل العَنقُوْز لا يزين في غير محلّه، وإنه مثل المولاف يعود. وردّدت نائحة أهزوجة الصاجّة:

«يا صاجّة يا صاجّة.. ما كذبتي».

***

(42)

موكب الجوع

«ثالث أمارات الختام الخمس»

ولمّا فرّ الصّبية، فجر اليوم، فرار الزّرازير من قِطّ يتسّحب؛ تناثروا في السّكك مخطوفي اللّون جاحِظي الأعين مُغبري الأقدام، ودحرهم الذّعر إلى بيوتهم التي غادروها قبل لحظاتٍ يسيرة. فتدثّروا باللّحف في فُرشٍ ما بردت من نوم البارحة. يتغصّبون النّوم على قرع الطّبول، يُغمضون عيونهم عن سوءٍ مُنقلب مُلّا مسجد سوق الحريم. يُمنّون نفوسهم بألا يُبصروا ذلك الوجه الفزِع المُفزِع.. أبدًا.

ولاحَ للمارّةِ أمام تقاطع السّكةِ كريمُ العين. يحبو على الأرض معفّر البِشتِ بالغُبار. يئنُّ مُطأطئًا مكشوف الرأس بلا شِماغٍ ولا غصابة:

«سوّد الله وجهك يا ولد إبليس».

ويبلغ ناصية السّكة الضيّقةِ حبوًا. فتنتفض بائعة الباقلاء ذُعرًا أمام المُلّا الحابي يرفعُ للسّماء رأسه في أوّل الشّروق. ويُبصر النّاس وجهه فاغر الفمِ بلا صرخة، غائر المحجرين بلا عينين. ومثل زلال بيضةٍ مكسورةٍ في غُشٍ خَرِب؛ اندلقت عينه اليُمنى وعلقت في تلافيف لحيته الحمراء، تاركة محلّها غورًا رطيبًا بين الجفنين، يجفّ في قابل الأيام ويصيرُ إلى حالِ الغَور القديم محلّ عينه اليُسرى. وفرّ المارّةُ من الرّجال والنّساء فرار الصّبية من قبلهم لمرأى وجه كريم العين.. بلا عين. وعلى غرائب هذا اليوم الغريب؛ لن يلحظ أحدٌ من الأهالي أن الشّيوخ الذين عرفتهم الدّيرة سِتّة، غائري المحاجر

بلا عيون، صاروا منذ صُبحِ هذا اليوم.. سبعة، يحيكون الشّباك ويُغنّون لموجة مستحيلة المجيء.

وأمضى خَليفُوْهْ ساعاتٍ في حُجرتِه يُلصِق ظهره بجداره الآمن. يضمُّ ساقيه إلى صدره ويُسند جبينه إلى رُكبتيه دونما حراك. والأرض من حوله مليئة بالقِطَط شاخصة العيون. ثلاثة وخمسون من الإناث والذُّكور، صغيرةُ السِّن يافعةٌ وكبيرة. تتمسّح بجسده كأنها النّسوة حول المقامِ في ضُحى يومٍ مباركٍ في الجزيرة. وتموء مواء الجوع في حضرة صاحبها الذي أقبل بُعيد الفجر لاهثًا، يُطبق كفّيه على إبهاميه، يحملُ بدلَ سَقْطِ سوق السّمك نعلَين. *نعليَن؟! مِياااااو!* وهو الذي، مُذ غادر بطن أمِّه، ما عرفته سِكَك الدِّيرة إلا حافيًا مُغبّر القدمين.

تزايد المواء وارتفع وطالَ أمده مثل وَلوَلة النّادبات في عزاء منصور الغَيص الحَوْل الماضي. فرفعَ أبو القْطاوَة رأسه وقد شاع ضياء الشّمس في الحُجرة التي دخلها أوّل الشُّروق معتمة. وقرّبَ قبضتيه أمام وجهه يُقلّبهما. اليُمنى على حالها القديمة؛ مُطبقةٌ على الإبهام مُنذ ظهيرة مغسل مسجد سوق الحريم قبل سنين. واليُسرى في حالٍ جديدةٍ؛ مُطبقةٌ على الإبهام مُنذ لقاء السّكّةِ الظلماء قبل ساعات، وإلى أن يوافي صاحبَها الأجلُ في سِفرٍ بعيد.

أطرقَ خَليفُوْهْ يُبحلق إلى نَعلي شليمان إلى جواره على الأرض. ثُمّ أرسل بصره بعيدًا وراء بابه المفتوح مُخزِّر العينين أمام وهج شمسِ الظهيرة، مُتناسيًا كريم العين في مشهده الأخير يحبو في السّكّةِ الظلماء يصرخُ دونما صوت. وما نسيَ ولا أراد نسيان كلمات سعدون، جرح الحَوْطة الذي أدمى روحه قبل طلوع شمس هذا النّهار. دفعَ

الأرض بكفّيه واستقام واقفًا مُقطّب الجبين مزموم الشّفتين. *والله ما هان عليّ أن أتفل في وجهك لكنك تستأهل أن يُتفل عليك*. طردَ القِطط إلى ساحة الدّار الخالية إلا من حَسَكِ أسماك الأمس. وأوصد على نفسِه باب حجرته، فتربّع أمام المرآة الصّغيرة فوق الصّندوق الخشبي المطعّم بالنّحاس المطروق. وأخرج من مَخبَى دِشداشَتِه المكحلة النّحاسية. *أنا بَرَنْتى يا سعدون؟* وراح على دأبه يفعل بالمكحلة فعله كلّ ليلة، يُبحلق إلى عينيه الدّامعتين في المرآة، ويخطّ الكُحلَ ساهمًا في قسمات وجهه الأملط.

ولمّا فرغَ من الكُحل تلثّمَ بإزاره، وأطبق باب حجرتِه على نعلي سليمان. فأزمع الخروج من داره يقصد المَنسَى الذي نفضَ قدميه على عتبته لحظةَ خروجه فجر اليوم. وأطبق وراءه باب الدّار في وجوه قِططه الجياع، لكن إلينور تقدّمت إلى اللّوح الخشبي الذي يسدّ الكُوّة أسفل الباب وأزاحته بكفّها. ثمّ وسّعت الفتحة برأسها مقدار ما يسمحُ لها بالعبور. وانسلّت تؤرجحُ ذيلها في الهواء، يتبعها أشهب ومن ورائه واحدٌ وخمسون قِطّا وقِطّة، تخرجُ من الكُوّةِ تباعًا مثل الخارجين من المسجد في عِزّ الظهيرة.

ومضى خَليفُوْه يغذّ في المشي من سِكّةٍ إلى أخرى دونما التفات. عن يمينه إلينور وعن يساره أشهب. وتزاحمت وراءهم جموع القطط تموء من الجوع. بدا خَليفُوْه كأنه أم حَدَب، بين أُم غايب وشريفة، تقودُ نساء الدّيرة إلى السّيف صبيحةَ يومِ قُفّالٍ أكيد. وارتفعَ قرعُ طبول العَرْضة يتناهى إلى مسامع النّاس والقِطَط، يجيءُ من ناحية المرابطين عند بوابة السّور وينتشر في فضاء الدّيرة في هذا اليوم الغريب. وتطيّرَ المارّةُ وانقبضت صدورهم لمرأى المُلثّم الغريب، يقود

كتيبة القِطَط النائحة خروجًا من سوق الحريم الخالي من الحريم، صعودًا صوبَ المرقاب. ينعطفُ في دهاليز الذّيرة وتنعطفُ وراءه حيواناته الأثيرةُ جائعة ويحسبها النّاسُ مسحورة. تؤرجحُ أذيالها في الهواء، وتتلمّظُ مُبحلقة إلى ظهر صاحبها الذي يتقدّم الموكب، لا يتقصّع على مألوف مشيَتِه، يغذُّ في سَيره ثابت الخُطى، مخفيّ الإبهامين.

وقطعَ المسافة كلها من مأوى القِطَط قُرب سوق الحريم إلى حَوْطة سعدون في المرقاب، وما التفتَ إلى الوراء مرّة.

***

(43)

My Arabian Days and Nights

زيارة الرجل الغريب

ـذين تزاحموا في المساجد، فقد خرج كثير منهم إلى ساحل «شرق». وتطوع أكثر من ستمئة رجل للذهاب إلى الجهراء بحرا، بعد تجهيز بعض السفن والزوارق لنجدة المحاصرين في القصر الأحمر، ومن بينها الزورق البخاري «مشرف» الذي يملكه الشيخ أحمد وله مدفع واحد. ضم الزورق بعضا من الرجال يرأسهم الشيخ عبدالله ابن الأمير الحاكم. وسخر القبطان بن حامد سفينة ضخمة اسمها «الحميدي»(15) لخدمة المتطوعين، وكان يرأسهم في سفينته المحملة بالرجال والطعام والذخيرة، ويتلقى الأوامر من الشيخ عبدالله في اليخت البخاري الذي يقود الحملة. وبن حامد واحد من أثرياء الكويت، وسفينته الكبيرة من نوع السنبوك الذي وصفته سابقا، لكنه أكبر من حجم السنبوك الاعتيادي بأضعاف ولا يشبهه بشيء إلا اسمه.

امتلأ الزورق والسفينة والمراكب متوسطة الحجم بالسلاح والمؤونة والرجال، وأمر الشيخ أحمد بإبحارها إلى قصر الجهراء، وتزود قائد الجناح الأيمن مع رجاله بالذخيرة بعدما غلبهم الإخوان وانسحبوا إلى البلدة يوم أمس، وفتحت البوابة لخروجهم إلى الجهراء ثانية لنجدة القصر من ناحية البر.

وقال الميجور مور للدكتور ميلريا بعد الظهر إن الشيخ أحمد

بدا متعبا، فهو لم ينم منذ وصول الفارسين طلبا لنجدة الأمير والمحاصرين في قصر الجهراء. أعد خطته لنجدة المحاصرين بفرقة بحرية وأخرى برية، لكنه لم يتراجع عن قرار منع الشيعة من المشاركة في المعركة رغم محاولات السيد القزويني بإشراك أتباعه لخطورة الوضع، والغريب أنه -الشيخ أحمد- ملأ السفن والمراكب بالعتالين وعاملي الميناء من الفارسيين وفيهم ربما من المسلمين الشيعة. كان نائب الأمير في حاجة إلى عدد كبير من الرجال، فقام بتحرير بعض المساجين لإيهام الإخوان أن الجموع المقبلة من البحر تحمل نجدة من المقاتلين، وإذا استثنينا الفرقة البرية، فلم يكن بين رجال الفرقة البحرية في حقيقة الأمر مقاتل واحد.

هكذا أكون قد دونت -دونما تركيز- ما سمعته من أخبار نقلها إلينا الدكتور ميلريا عن الميجور مور، وما وردنا في الإرسالية من شائعات الواصلين إلى البلدة من البدو الرحل الذين وفدوا ليلا من ناحية الجهراء. كتبت المعقول من تفاصيل البارحة واليوم وما يقبل به العقل. لكن في اليد الأخرى أشياء كثيرة لا تُصدق، أشياء لم أسمعها فقط، بل رأيتها وكنت شاهدة عليها. من أين أبدأ؟

كل شي غريب اليوم. كل شيء غريب. انتشرت أخبار سرقة العباءة من قصر الحاكم، تلتها أخبار أخرى عن وحش ظهر من البحر أمام مستشفى الإرسالية. بدا الأمر في حدود المقبول من خرافات يتداولها بعض الأهالي في الحياة اليومية، تلك الخرافات التي يحاربها أئمة المساجد والمتعلمون. لكن رجلًا مشوه الوجه اقتحم مستشفى الإرسالية وقت الفجر! استقبله عمال الإرسالية فاقد الوعي بسبب رصاصة اخترقت كتفه الأيمن من الخلف، وكان

وجه الرجل يحمل آثار حروق قديمة مستحيلة العلاج. كان يخفي معظم وجهه بنظارة شمسية كبيرة وغريبة. وكان فاقد الوعي مبتل الثوب يرتجف ويقول من بين أنينه -وين أبوي؟- «أين أبي»، كان في حالة صدمة اضطررنا معها أن نعالجها بحقنة مورفين منومة لم يستفق منها حتى الآن. واجتمع الرجال الخارجين من المساجد بعد الصلاة الأولى -صلاة الفجر- أمام بوابة المستشفى يطالبون بتسليم «الوحش» الذي نخفيه في المبنى. وحملنا النزيل بعيدا عن المرضى والجرحى إلى الغرفة رقم 5 التي لم تكن مجهزة. وحذرنا المتجمهرين من الدخول وإلا شكوناهم إلى الشيخ أحمد. لكن الشيخ أحمد أرسل الملا صالح يسأل عن الرجل الجريح وما يثار حوله من أقاويل. طلبت من الملا أن يبلغ الشيخ أحمد تحيات الإرسالية، وأن الجريح مجرد رجل مصاب، لكنه مشوه الوجه، ولا شيء يدعو للاهتمام. وخرج سكرتير الشيخ بعدما شدد على ضرورة بقاء الرجل في المستشفى إلى حين تجاوز الأزمة منعا لإثارة الفوضى.

ربما أكتب عن تلك الغرابة لاحقا، أو لا أكتب، على الأرجح هو أحد الفارين من الجهراء، أما الأمر الأشد غرابة فقد حدث بعد زيارة الرجل الغريب تلك. كنت قد عدت إلى البيت بعدما تركته نائما في الغرفة رقم 5 في مستشفى الرجال. بالكاد فرغت من تناول فطوري في البيت عندما طرق بابنا أحد الممرضين، يخبرني بأمر مبروكة. كان يوما طويلا وغريبا معها.

طلبت إدوين في غرفة مبروكة في سكن الممرضات على وجه السرعة بعد الغروب. بدت الممرضة المقيدة بالسرير كأنها فقدت عقلها تماما. تشنجت وتقلصت عضلات وجهها في نوبات غريبة تشبه

الصرع. كلما ارتفع صوت البنادق عند بوابة السور القريبة تصرخ بأن أحدهم قد وصل. وبين نوبة وأخرى كانت تبكي وتتحدث بتلك الرطانة الغريبة بصوت غليظ، وعروق رقبتها نافرة وهي تطبق أسنانها وتصرخ «لقد جاءوا»!

أمسك بها عمال الإرسالية في الصباح -بعد زيارة الرجل الغريب بحوالي ساعتين- وكانت توشك على الخروج عارية. سارعت إحدى عاملات الإرسالية بتغطية جسدها بشرشف المرضى وأعادوها إلى حجرتها. فهربت ثانية بعد الظهر، لكن لحسن الحظ أنها كانت ترتدي ثوبها الأصفر هذه المرة، وعلى رأسها قبعة التمريض البيضاء على عادتها. ولحق بها أحد عمال الإرسالية، وأعادها عند الغروب منهكة خائرة القوى. قال إنها ركضت إلى صخرة الساحل السوداء تبحث عن تعويذة العرافة المسنة بعدما أخبرها جيران العجوز أن صاحبة البيت المثلث ما عادت تسكن بيتها ناحية «المرقاب». وخافت مبروكة حينما لم تشاهد طيور الغاق على سور البيت -فهي ما زالت تصدق هذه الخرافات- فضربت رأسها بكفيها وتطايرت ضفائر شعرها وصرخت أن ذاكرتها وكوابيسها لن تهدأ من دون تعويذة العرافة المسنة التي فقدتها قبل عشرين يوما عند لقائها عطا الله. لكنها لم تعثر على التعويذة قرب الصخرة، فأعادها عامل الإرسالية آخر النهار إلى غرفتها في سكن الممرضات، وقيدها بمساعدة إحدى الممرضات إلى السرير، وبقيا إلى جوارها طيلة الوقت قبل حضوري ثانية وقت الغروب.

وحينما جاء إدوين بعد مغيب الشمس إلى سكن الممرضات حيث طلبته، سمع كلمات مبروكة الغريبة، وقال إنها على الأرجح تتحدث

اللغة السواحلية. أمسك بكتفيها وهزها وهو يصيح بها يكرر اسمها. وهي ترد عليه بكلماتها غير المفهومة. لا أتذكر منها إلا «ماريامو» لتشابهه مع الاسم العربي مريم. وعندما عادت إلى رشدها صاحت بإدوين أول ما رأته تطلبه النجدة وهي تصرخ مذعورة «لقد جاءوا لقد جاءوا». كدت أبكي لمعاناتها وأنا أعرف أنها تريد من إدوين تهدئة آلامها بالإيمان، أو هكذا كنت أتمنى، لكنها توسلت إدوين وهي مقيدة، تشير بذقنها إلى ذراعها اليمنى وترجوه أن يستعيد التعويذة المفقودة. طلب إدوين من العامل أن يحضر له الكتاب المقدس، وطلب من الممرضة الخروج، ثم أمسك بيدي يقودني إلى خارج الغرفة: «وأنت أيضا».

وقبل أن يطبق الباب طلبت منه أن يقنعها بعدم جدوى تلك التعويذة التي لا تليق بامرأة مؤمنة وذكية مثلها.

- اتركونا لوحدنا.

قال إدوين، ثم أطبق الباب.

***

وجاء عامل الإرسالية بالكتاب المقدس للقِس المتورط مع الممرضة الملعونة بذاكرة مباغتة، يحاول تهدئتها بليِّن الكلام ونصوص الإنجيل، يُصلي ويحصنها ويطرد الشيطان ويطلب لها من الرّب ملجأ من الشّرير. وما الشرير إلا ذاكرة نامت سنين فأفاقت شرِهة، وراحت تنهش طمأنينة المرأة التي فقدت حِرزها الحريز عند صخرة السّاحل.

وأمضى القِش في حجرتها ساعات، ونضح من العرق ما يفوق الذي نضحته الممرضة الممسوسة. وهي تتلوّى لا تقوى على التملّص

من وثاقها المعقود بأطراف السّرير. تتراقص ضفائرها منتصبة حول قُبّعة التمريض مثل أعشاب البحر. وما استطاع القِسّ أن يحتمل منظر المرأة وهي تصيح وتئن من الألم، ترجوه بلغة غير مفهومة وتُشير بذقنها إلى عَضُدِها الأيمن. فأطبق إدوين الكتاب المقدّس وهرع يخرج من الحجرة.

اقتحم القِسّ مكتب زوجته في عيادة النّساء أصفر الوجه شاحب البشرة يابس الشّفتين، يحملُ الكتاب المقدّس في يمينه ويمدّ شِماله إلى إلينور:

«أين تعويذة العرافة؟».

قال يستعجلها، فنهضت من مقعدها وطلبت منه أن يجلس ويرتاح قليلًا، غير أنه أصرّ أن تعطيه الحِرزَ الذي احتفظت به بعدما أزالته من عَضُد الرجل الذي مات مبتلعًا لسانه.

«إدوين أنت تمزح!».

«إلينور أرجوكِ!».

شحبَ وجهُ الطّبيبةِ ونظرت إلى وجه القِس الذي صاح متوتّرًا وهو يمدّ إليها كفّه مبسوطة:

«أسرعي!».

أخرجت إلينور الحِرزَ من درج المكتب ومدّته إليه. قلّبه إدوين بين يديه واستلّ خيطًا ناتئًا في طرفِه، فانفتق أحد جوانب الحِرز مثل فَم السّمكة، وسقطت على الأرض ثلاث وريقات. قلّباها يُحاولان فكّ طلاسمها؛ شيءٌ من القرآن الكريم، وشيءٌ لا يُقرأ، وشيءٌ أثار

الريبة في نفس إلينور. فاحتفظت الطبيبة بثالث الوريقات في جيب مريلتها البيضاء، وسارع إدوين يُعيد القُصاصتين إلى الحافظة، وطلب من إلينور أن تخيط طرفها بإبرة وخيط التّقطيب. ولمّا ناولته زوجته الحافظة الجلدية مخيطة الأطراف أطبقت كفّها على ذراعه:

«جئنا لنهدي الناس إدوين.. ما جئنا لنؤمن بهذا الجنون؟!».

اختلجت شفتا القِسّ يُقلّب ناظريه إلى المكان شارد الذّهن. أردفت زوجته:

«لا يوجد في البلدة مُلّا يصدّق هذه الأشياء.. أيصدقها القساوسة؟!».

وافترّ ثغر القِس عن ابتسامة مفتعلة:

«لن يضرها ولن ينفعها.. لكن لعل الأمر يريحها ما دامت تؤمن به».

استدار إدوين يسابقُ خطواته إلى سكن الممرضات، يحملُ الكتاب المقدّس في يمينه ويُطبق كفّه الشّمال على الحِرز. ولحقت به زوجته ودخلت معه حُجرة مبروكة وأُطبق البابُ على الثّلاثة. وما صدّقت عينيها حينما عقد إدوين سير الحافظة الجلدية حول عَضُدِ الممرضة. شخصَ بصرُ الطبيبة إلى مبروكة التي انطفأت ثورتها وهدأ روعها، وأراحت ظهرها على السّرير، وأغمضت عينيها يرتسمُ على وجهها طيف ابتسامة طفلٍ تجرّع قبل نومِه «ماي غريب». فسارع إدوين إلى إلينور التي تهاوت جالسة على المقعد تحجب وجهها بكفّيها وتنشجُ بصوتٍ مكتوم:

«ليس لأجل هذا جئنا يا إدوين.. ليس لأجل هذا».

***

وهدأت مبروكة بعد قراءات متواصلة في الكتاب المقدس. فما كان في المحفظة شيئ يستدعي الاهتمام. المحفظة الجلدية التي ناولني إياها الفارس الذي ابتلع لسانه يوم أمس. اقترح إدوين أن يعقدها حول ذراع مبروكة لعلها تصدق فتهدأ، لكنها مثلما توقعت لم تهدأ. كانت المحفظة مخاطة في جوانبها الأربعة، لكن إدوين وجد فتقا في أحد أطرافها حينما تفحصها في مكتبي قبل عودتنا إلى سكن الممرضات، وقبل أن نعقد التعويذة حول ذراع مبروكة. فتحها إدوين برفق وأخرج منها ثلاث قصاصات ورقية، اثنتين صغيرتين جدا عليهما كلمات تبدو عربية بحروف شديدة الصغر غير واضحة، والقصاصة الثالثة تحمل كلمات عربية واضحة مكتوبة بخط أكبر ومختلف. قرأ إدوين القصاصات الورقية وقال إن الأولى تحمل كلمات من القرآن، والقصاصة الثانية تحمل طلاسم بحروف عربية غير مفهومة، أما الثالثة فقد احتفظت بها، لأني شعرت أنه من الواجب أن أحتفظ بها، وأن أحدا عليه أن يعرف شيئا ما يبدو بالغ الأهمية. كانت القصاصة غريبة ولا تُشبه القصاصتين الأخريين، كتبت عليها كلمات اعتراف عربية بخط مرتجف، يقول كاتبها إن اسمه عبدالعزيز وأن شخصا اسمه غايب هو ليس ولده هو وزوجته، إنما هو ابن امرأة أخرى.

أعدت القصاصتين إلى داخل المحفظة الجلدية واحتفظت بالثالثة. ربما «خليفة وبس» يستطيع أن يدلنا على بيت أهل القتيل. واستدعيت «خليفة وبس» في ساعة متأخرة من الليل ووعدني أنه سوف يتكفل بأمر الرسالة. كان مساء ثقيلا بعد ما جرى لمبروكة،

لكنه ازداد ثقلا حينما قال لي «خليفة وبس» قبل انصرافه من مكتبي قصة خرافية غريبة عن الرجل الغريب، الرجل الذي يهذي تحت التخدير: أين أبي؟ لن أكتب قصة «خليفة وبس»، لأني وعدته أن أحتفظ بها سرا إن لم أصدقها. والأمر المؤكد أني لم أصدقها.

كل شي غريب اليوم. كل شيء غريب.

* ملاحظة:

من غرائب اليوم أيضا سلوك القطة مبروكة. كانت ما تزال نائمة عندما استيقظنا في باكر الصباح، وهذا شيء غير معتاد وهي أول من يستيقظ ويوقظنا في العادة. وبعدما استيقظت كسولة عند عودتي إلى البيت بعد تطبيب الرجل الغريب الذي وصلنا في الفجر. أصابها غثيان صباحي حينما كنا نتناول الفطور، واستفرغت في حجرة الجلوس وسارعت تختفي وراء الأريكة الكبيرة. وعندما عدت في آخر اليوم إلى البيت قالت لي غريس إن مبروكة أمضت اليوم كله تركن في الزوايا الهادئة وتنام، وإذا ما استيقظت تبدو كسولة وأليفة وحنونة. بحثت عنها فوجدتها تغط في النوم تحت الجدار وراء الأريكة. أمسكت بها وقلبتها على ظهرها أداعب بطنها، فوجدت حلماتها بارزة وداكنة.

أفترض أي شيء إلا أن تكون القطة العجوز حبلى!

كل شي غريب اليوم. كل شيء غريب.

Eleanor J. T. Calverley

Monday, October 11, 1920

11:45 PM

(44)

أُم أربعة وأربعين
ثلاثة سكارى وصَبيٌّ صاجّات

على أصداء قرع طبول الحرب أقبل خَليفُوْه على الحَوْطَةِ مُلثّمًا بإزاره، يُطبق قبضتيه على إبهاميه، يتقدّم موكب الجوع المهيب يزفُّه المواء. وفي حَوْش الحَوْطة التُّرابي ألفى عاموس يتربّعُ على الأرض. يستندُ إلى الجدار ويُشعل سيجارة بين شفتيه. يرسل بصره إلى الأمام شاردًا في خياله. والبُلبُل على رأسه، مثله، ثابت في نوبة خَرَس.

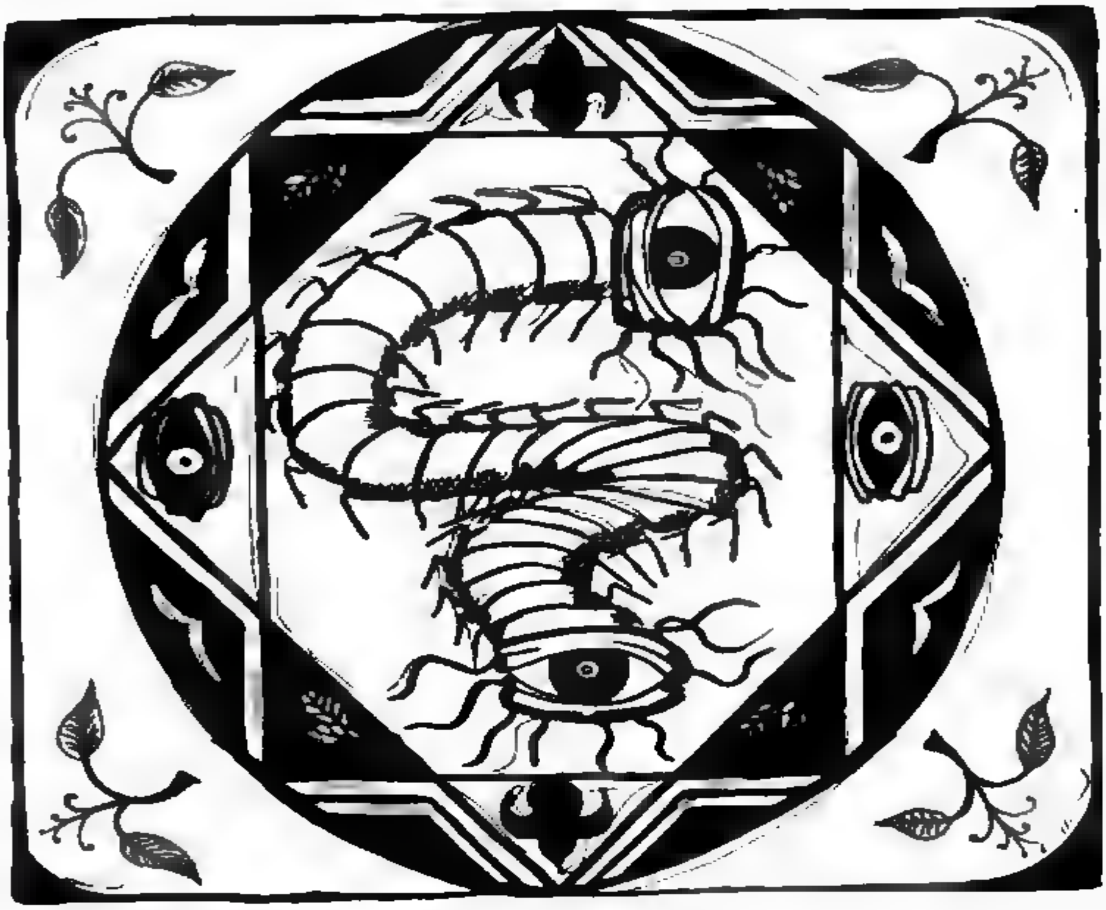

وأبصر خَليفُوْه عن يمين بن شاؤول زجاجةً فيها من السائل غير

المخفّف بالماء نِصفها، وعن يساره مجرفة. والأرضُ مُقلّبة الثّربة كأنما خبّت فيها الخيل، أو كأنما مرّ بالحَوْشِ الثّرابي زاروغ حرثه فانصرف قبل أن يبذُره.

«ما الحكاية؟ أين سعدون؟».

زجره خَليفُوْهْ فنفخ عاموس الدُخان كثيفًا من منخريه، وأبصر الحاجبين العريضين يُطلّان من لِثام أبي القُطاوة واستغرب. وافترّ ثغره بشفتين متردّدتين كأنما انفرجتا في وجه تمثال:

«تغسله بهيجة».

يمّمَ خَليفُوْهْ وجهه شطر مجلس الحَوْطةِ يحثُّ الخُطى إلى صاحبه الذي أهانه فجر اليوم. وتبعه أشهب وإلينور، على حين انتشرت بقية القِطط في الحَوْش تتشمّم الثّراب وتلعق من الجوع الحصى. وبِن شاؤول يتفكّر في أمر الحاجبين اللذين نَبَتا في وجه صاحبه الأملط فجأة. *أصدّق أيّ شيءٍ في هذا اليوم الغريب!* ومضى خَليفُوْهْ مُتبرّمًا إلى حُجرة المَنسَى. *ويقول السكّير إنه لا يسكر! لكنه من فرط الشُّرب يستفرغ ما في جوفه على دِشداشَتِه. يُوسّخ نفسه مثل الأطفال. فتتكفّل عاشقته الحمقاء بتنظيفه من القيء وحمله إلى فراشِه مثل طفل محموم، لعن الله الأطفال أينما حلّوا.*

وولجَ أبو القُطاوة حُجرة المجلس ولقيَ سركيس، مُحمَرّ الأنف بالكاد يرفع رأسه مائلًا، ينظر إليه بعينين نصف مطبقتين، يتحاشى ضياء الشّمس وراء خَليفُوْهْ الواقف على عتبة الباب لا ينفضُ قدميه من غُبار السّكك.

«أين سعدون؟».

سأل أبو القطاوةِ مُتوتّرًا، وأجابه الأرمني يُشير بكفّه إلى مخدع سعدون دونما التفات:

«مع بهيجة».

وتناهت إلى مسمع خَليفُوْه شهقات وتأوهات مكتومة وراء الباب الموارب، فاحمرّ وجهه خجلًا. فقال له سركيس من دون أن يلتفتَ صوبه:

«كان يجب ألا أخبره بانتحار سليمان».

ففطن خَليفُوْه لما يرمي إليه سركيس وتقبّضَ وجهه، وارتفع نشيج بهيجة، فاستدار إلى جهة الصوت في مخدع سعدون:

«بل كان يجب ألا يصير كل هذا. *سامح الله أُم حدَب*».

هجس خَليفُوْه بما يُخيفه وهو يُصارع في دواخله وساوس الغضب. يمضي إلى مخدع صاحبه مرتبك الخُطى. دفع الباب الخشبي على مهلٍ حابس الأنفاس. واندسّ أشهب وإلينور تحت دِشداشَتِه. وضيّق عينيه لحظة فُتح البابُ على بهيجة في الحُجرة التي بالكاد يضيءُ ظلمتها سراجٌ مسوَدُّ الزُّجاج. ألفاها مشقوقة الجَيب بين دِلاء الماء جاثية عند رأس سعدون المستلقي على الأرض، ينحدرُ خطٌّ وشمِها على صدرها المُحمَر بآثار كفّيها، ويهبط الوشم الذي يقولون عنه بين نهديها ويختفي تحت شقّ الجيب. يتلامع وجهها بالدّمع وسيل الأنف أمام شعلة السّراج. تُمسك بيد سعدون وتُؤرجح رأسها يمينًا وشمالًا، وتئن كما لو أنها تُردّد تهويدة:

«ألا يا ليت هذه الكف صفَعت خدّي فأرتاح وأكرهك مع من كرهت

وأنساك مع من نسيت.. لكنك ما رضيت».

لطمت وجهها بيد سعدون الهامدةِ بين كفّيها:

«اِضربني يا سعدون اِضربني! إن رخيصة مثلي تستأهل الضرب والله، لو كان بي خير منذ مولدي لما رمتني في أمي السّكّة.. اِضربني».

بدَت ثملةً كما لم يرها خَليفُوْهُ من قبل. جاثية ورأس سعدون فاغر الفم بين رُكبتيها الظاهرتين من تحت ثوبها الحاسر، وحزُّ أنشوطةِ

الغُترةِ داكنٌ في عنقه.

أسندت كفَّ حبيبها إلى صدره، ورفعت سبّابته ثلقّنه الشّهادة، فعاودت صفع خدّها بكفّه الهامدة وهي تنشج، ولثمَت شفتيه اليابستين ثُمّ دلقت الماء من دلوٍ على جبينه وقمّة رأسه، فانحلّ الكُحل وأبلجَ أثرُ الكيّ القديم أعلى أذنه اليُسرى. والجسدُ عار مُمدّدٌ على ظهره لا يستر عورته إلا عانته ورغوة السّدر. ناتئ الأضلع غائر البطن شاحب الجلد على العظم. رجعَ خَليفُوْه بظهره ووارب الباب، وأطبق شفتيه وراء لِثامِه يقمعُ شهقات البكاء. وانسلّ مع قِطتيه المتواريتَين تحت دِشداشَتِه إلى حَوْش الحَوطة. مشى مضطرب الخُطى في الأرض مُقلّبةِ الثُربة. وخرجت القِطّتان من تحت الدِّشداشَةِ وانضمتا إلى القِطَط المنتشرة في الحَوْش. وما فاه بِن شاوُول بكلمةٍ لمّا فكّ خَليفُوْه لِثامه وتبدّى له، غير الحاجبين العريضين، شاربٌ داكن السّواد. *ليس هذا بأغرب ما رأيت هذا النّهار*. وتربّع خَليفُوْه إلى جوار عاموس على الأرض، ومثله أسند ظهره إلى الجدار. ثمّ مدّ كفّه مرفوعة الإصبعين مثلَ مقص:

«سيجارة».

أشار عاموس إلى وجه صاحبه يستفهم عن الحاجبين والشّارب:

«ما هذا؟».

«ليس شأنك».

أجابه خَليفُوْه، فلم يُبالِ بِن شاوُول وأخرج علبة التّبغ الفضيّةِ من مخبَى دِشداشتِه، واستلّ من نصفها الأيمن دودة ألقمها البُلبُل الواقف على كتفه، وقد اصفرّ جوف منقاره ولسانه المُدبّب لشدّة الجوع.

اِلتقمَ البُلبُل الدُّودة ورفرف فحطّ على رأس صاحبه. ومن نصف العلبة الأيسر أخذ بِن شاؤول سيجارة لـ خَليفُؤه ووضعها بين شفتيه، وكاد يُشعلها لولا هبوب الرّيح الذي أهدر ثلاثة أعواد ثقاب بغير طائل.

رفع الاثنان رأسيهما إلى السّماء وُجهة الرّيح، ولاحت لهما سوئ الغيوم من بعيدٍ مُقبلة والشّمس فوق رأسيهما وجِلة. وافترّ ثغر عاموس بابتسامةٍ منطفئة وهو يشعل سيجارة خَليفُؤه بجمرة سيجارته قبل أن يُناولها لصاحبه. *كل شيء غريب هذا النهار!* تبادل الاثنان نظرة صامتة يضمران خشيةً ما يُشبه نذيرًا حدّثت عنه أم حدَب. ودخّن الاثنان وهُما يحملقان إلى الغيوم المقبلة على مهل، مُثقلة بأمطار الوَسمِ قُبيل مألوف موعدها، تشعُّ بالبروق مثل نارٍ تشبُّ في كومة صوف. فيتناهى الرّعدُ إلى مسامع الرّفيقين خافتًا يتردّدُ من بعيد، هادرًا مثل رغاءِ بعيرٍ ثائر.

أنهى خَليفُؤه سيجارته ببضع مزّاتٍ شرِهةٍ قبل أن ينترها بإصبعه بعيدًا على الثّراب. وتسارعت القِططُ تتشمّمها فأشاحت بوجوهها وابتعدت خائبة.

«ما أنتم فاعلون؟».

سأل خَليفُؤه، وأجابه عاموس بعدما عبّ من زُجاجته زُبعًا وأعادها إلى الأرض زُبعًا:

«ذهبتُ إلى بيت أهله. سألتُ عن أبيه فأخبرتني أم السّواعد أنه خرج مع أبنائه إلى الحرب.. وسألتني مِن وراء الباب: خير؟ فما قدرت أن أقول كلمة إلا.. خير اِنشالله».

هل في الموت خير؟

مرّ لُفافته مرّة أخيرة ورمى عقبها بعيدًا على الثّراب المُقلّب، وهو يُفكّر في سؤال الموت وصاحب الحَوْطة المسجّى بين فخذي بهيجة في الدّاخل. وتراكضت القِطَط إلى عَقِب السيجارة فابتعدت بخيبتها ثانية. ومشّط عاموس الحَوْطة ببصره يهجش بذاكرة المكان. *هُنا قال سعدون. وهُنا فعل. هُنا زَقّنَ وهُنا بكى وهُنا نَظَمَ الشّعر، وهُنا فتح كرّاسه وروى حكايات أسفاره. وهُنا أصابه الصرع لمرور بريعصيّ أسرع يتسلّق الجدار. وهُنا أحبّ بهيجة وما صارح نفسه بحُبّها مرّة. وهُنا ماتَ الذي يكره أن يحبّ فيتعلّق بحياةٍ لا يُحب.. مات وما عاش الحُبّ لحظة. فهل أسلّم للموت مثلك يا سعدون بلا مكاسب يا صاحبي المخبول؟* زفرَ ريحَ اليانسون من صدره قبل أن يقول لأبي القطاوة:

«قُل لا إله إلا الله خَليفُوهْ».

أجابه صاحِبُ القِطَط في الحال:

«لا إله إلا الله ومحمدٌ أفضل الخلق عبده ورسوله».

فرفعَ عاموس المجرفة بيده وهزّها بغضبٍ وهو يُخبر خَليفُوهْ أنها ما حفَرَت في حَوْش الحَوْطة شبرًا إلا وظهر من تحت الثّراب صوف:

«صوف.. وغَبْ الكعبة يا مُسلم صوف..».

أطال خَليفُوهْ النّظر إلى وجه صاحبه مخضّل العينين. يتذكّر المرّات التي جاء بها إلى الحَوْطةِ يحملُ من أُم السّواعد زكائب الصّوف إلى صغيرها سعدون. وتجمّعت الغيومُ في سماء الحَوْش

تلقي بظلالها على الحَوْطة. ونهضَ خَليفُوْهْ ونفضَ عن دِشْداشَتِه الغُبار. وسار بين مواضع الحفر غير مصدِّق ما يُبصر تحت التُّراب والحصى. تراءى له الصُّوفُ في كل مكان ينبجش في الحُفَر. صوفٌ مُتيبِّسٌ مُعفَّرٌ بتراب الحَوْش كأنما انقلبت الأرضُ على قطيعٍ من الغنم. وتذكّرَ المرّات التي رشّ فيها صاحبُ الحَوْطة الماء في الحوش. *كي لا يُثار الغبار يا كذّاب؟!* وكزَّ على أسنانه والتمعت عيناه. *وهل آمنتَ أن الصُّوف يُثمر يا سعدون؟!* فهجسَ ينظرُ إلى الحُفَر وهو يدقُّ رأسه بسبّابتِه. *شَغْل هذا!!*

والتفتَ إلى بِن شاوُول الذي هبطَ البُلبُل من رأسه إلى كتفه ثانيةً، يلتقمُ من بين إصبعيه دودة صغيرة أخرى ما أعادت الحُمرة إلى لسانه الأصفر. ولم يفُه خَليفُوْهْ بكلمةٍ وانهمر الدّمع من عينيه، وسالَ أنفه حتى ساح شارب الكحل على شفتيه. فرفعَ عاموس صوته وهو يُشعل سيجارة جديدة يواصل الحديث بِلُثغةِ أهلِه:

«وَغّطنا بوصيّتِه.. أين ندفنه ولا مكان في الحَوْش إلا للصوف؟! الله يَعْحمه».

مسَّ خَليفُوْهْ سيلَ أنفِه بِكُم دِشداشَتِه، فتلطّخ وجهه بسواد شاربه المزيّف. أطرقَ ينظرُ إلى الصُّوف المعفّر بالتُّراب قبل أن يلتفتَ ثانية إلى عاموس:

«أوصاكم بدفنه في حوش الحوطة..».

فأشار بسبّابةٍ مرتعشةٍ إلى رُكن الحَوْش:

«..وأوصاني أن يكون قبره تحت النّخلة أم الفسائل».

أبرقت السّماءُ وقصفَ الرّعدُ فزخّ المطرُ مدرارًا. فطار البُلبُل من كتف بِن شاؤول إلى النّخلةِ المائلةِ يتذرّى بسعفها اليابس. وتراكضت القِطَط إلى مجلس الحَوْطَةِ تلوذُ به عن البلل. وعبّ بِن شاؤول من زجاجته رُبعها الأخير وأعادها إلى الأرض فارغة. واستقام واقفًا يتكئ على مقبض المجرفة. ومشى بالكاد يُوازن خطواته. وعند النّخلة اليابسةِ وفسائلها التّسع وقفَ يرفعُ حاشية دِشداشَتِه المبتلّةِ، فأحاطها حول خصره وعقدها. وبالمثل فعل خَليفُوْه الذي التصقت دِشداشَته بجسده تحت وابل المطر، وسالَ كُحل حاجبيه وبقايا شاربه عن وجهه وانهمر على ثوبه. وطعنَ بن شاؤول الأرض الرّطبة بحافّةِ المجرفة، وداسَ حديدها بقدمِه فشقّ الأرض شِبرَين دونما صوفٍ يعرقل الحفر. وتناوب الاثنان يحفُران إلى أن انجلت الظلمة، وبانت في سمائهما شمش العصر ثانية بين فلول غيوم الوَسْم المُسبّقة لأوانها خمسة أيام. طلعَ عاموس من الحفرة وجلس على التّل الترابي الذي أخرجه من أحشائها، ونزل خليفُوْه يُكمل الحَفر. وانتهى حينما بدا له عمق القبر مناسبًا. وما كاد يستندُ إلى مقبض المجرفة يمسُّ وجهه عن العرق وبقايا كُحل حاجبيه حتى صاح بهما سركيس من باب مجلس الحَوْطة:

«شيلوه».

قال الأرمنيُّ رغم أنه من كان في حاجةٍ إلى من يشيله لشِدّةِ سُكرِه. بالكاد يقفُ على عتبة الحُجرةِ المطلة على الحَوْش، وتقفُ إلى جواره بهيجة وخطوط الكحلُ على خدّيها. وبين أقدام الاثنين كان جسد سعدون مُكفّنًا بغطاء فراشه وحصيرة الصّلاة. التفتَ عاموس إلى خَليفُوْه في الأسفل مادّا كفّه يُعاونه على الخُروج من

قبر سعدون تحت النّخلة الميتة. ومضى الاثنان إلى جثمان صاحب الحَوطة الممدّد عند عتبة المجلس. والبُلبُل بين السّعف اليابس يتمطّى ويفردُ للشّمسِ جناحيه الرّطيبَين. يُشرف من عليائه على الجنازة المترنّحة، حيث الأكتاف الأربعة تشيلُ جثمان صاحِبَ الحِوطَةِ سعدون بن عبدالله أبي السّواعد، تتبعهم القِطَط. وبهيجة غائبة في هواجسها تُفكّر في الكفّ التي ما ضربتها قط، الكفّ التي قادتها إلى مخدع اللّهو في الليالي الماضيات. صارت بهيجة تقودُ صاحب الكفّ اليوم إلى مخدعه الأخير.

قهقه بُلبُل شاؤول بتغريدةٍ ضجّ بها حَوش الحَوطة. *وشيّعهُ ثلاثة شكارى وصبيٌ صاجّات.. مسيحيٌ ويهوديٌ وعاهرةٌ وبَرَنتَى.*

وإلى جوار القبر وضعوا جثمان صاحبهم، ونزل بِن شاؤول وسركيس يسبقانه إلى الحفرة، فاستمهلتهما بهيجة:

«ما أوصاكم بدفنه في حوش الحوطة إلا لأن أحدًا من أهلِه لن يُصلي عليه ولن يمشي في جنازته..».

تبادل بِن شاؤول وسركيس النّظر فيما بينهما صامتَين، ونظرا إلى بهيجة، ثَمِلان يستغربان قول ثَمِلة. وفكّ يَقِظُهم الوحيدُ حاشية دِشداشَتِه من خصره. أسبل خَليفُؤه الدّشداشَة على ساقيه، ثُمّ واجه القِبلة. ووقفت وراء ظهره بهيجة، وخرج من القبر عاموس وسركيس ينضمّان إليهما. وقف المغضوب عليه عن يمينها، والضّالُ عن شمالِها، ورفعَ خَليفُؤه في المقدّمةِ التّكبيرات الأربع أمام جثمان سعدون. فسلّم يمينًا، وسلّمت بهيجة يمينًا وشِمالا. وصلّى بِن شاؤول كيفما صلّى، وهلوسَ سركيس في صلاته يُغالب ثُقل رأسِه، وغنّى

البُلبُل أطوارًا غريبة من التّغريد يُلَعلِع بلسانِه الأصفر. وأُنزِلَ سعدونْ إلى قبره في زكن الحَوْطةِ تحت النّخلة اليابسة المائلة على فسائلها التّسع. وهالَ الأربعةُ تلّ التّراب عليه وساووا سطح القبر بأرض الحوش. ووقفوا ينظرون عند أقدامهم صامتين، يعيشون لحظةً تُذكَر ولا تُعاد، لحظة يُغادرُ فيها سعدون الحَوْطة ولا يُغادرها.

وما طالَ وقوفُهم حتى اختلج التّراب على سطحِ القبر، فظهر بريغصيٌ خطفَ من بين سيقانهم، واختفى وراء فسيلة النّخل التي لطّخت الخُضرة منابت سعفاتِها الصّغيرة بين الفسائل اليابسة. بكى خَليفُوْه أمام ما رآه، وهو الوحيد الذي أبصر بين الشكارى البريغصيّ مبتورَ الذّيل يخرج من قبر سعدون. فأجهشَت بهيجة وسركيس لبكاء خَليفُوْه، إلا بِن شاؤول الذي ما أبعد عينيه عن بهيجة لحظة. كأنما أجّل النّشيجَ للحظةٍ ظهرت فيها من إحدى حُفر الصّوف التي حفرَها؛ أم أربعة وأربعين.

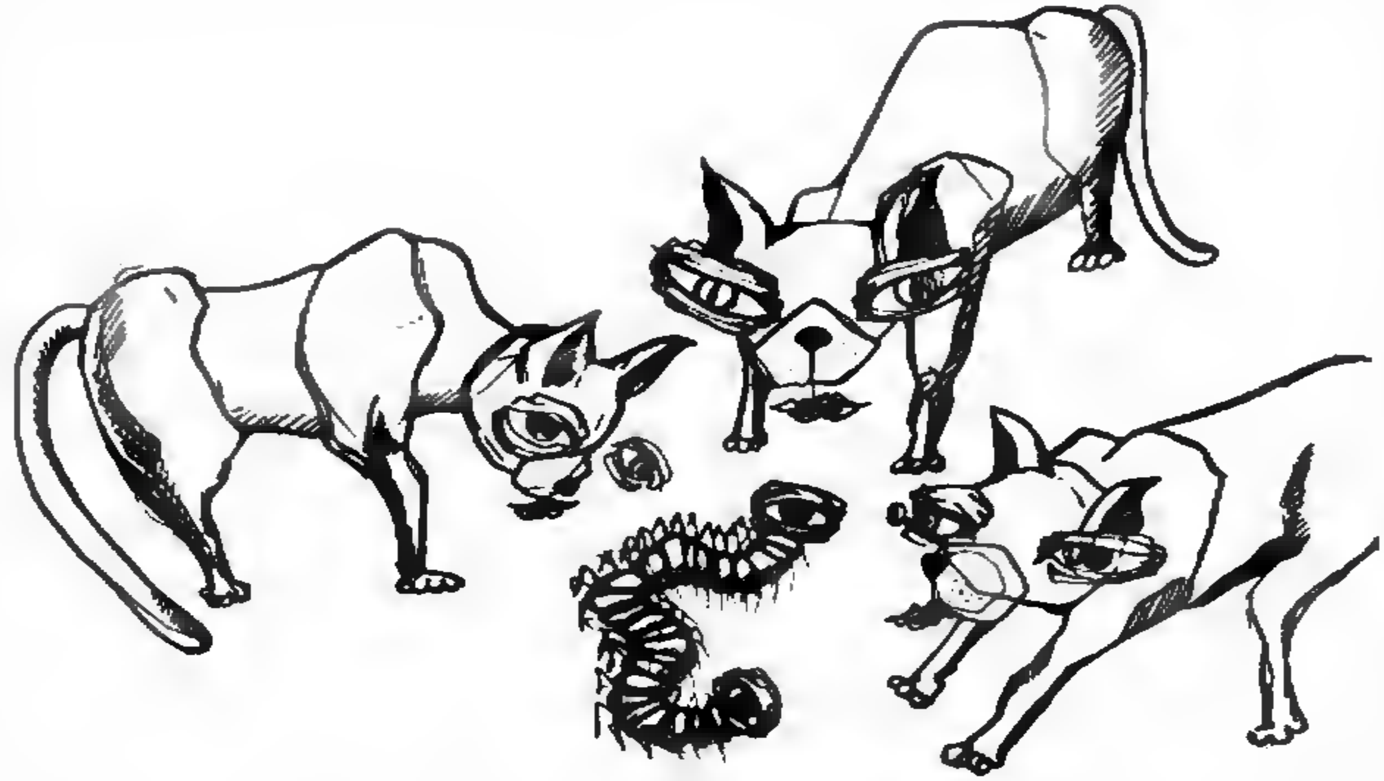

ظهرت الدّودة العظيمة مثل فرخ الحيّة، لامعة طريّة شهيّة مكتنزة مشبعة. انتبه إليها البُلبُل أصفر اللّسان، فحطّ من النّخلة اليابسةِ وخطفَ الدُّودة فخطفته إلينور. أطبقت فكّيها على جناحٍ وأطبقَ أشهب فكّيه على جناح. فلفظَ البُلبُل الدُّودة وأفلت تغريدة خابية انطفأت بين المواء. ونطّ قِطٌّ ثالثٌ وأطبق فكّيه على ما بين الجناحين. وتجاذبته القِطَطُ الثّلاث تنفُضُ رؤوسها متحفِّزة الأنياب والمخالب إلى أحد أركان الحوْش. وتسابقت إليهما بقية القِطَط وتزاحمت حول الوليمة فقيرة اللّحم.

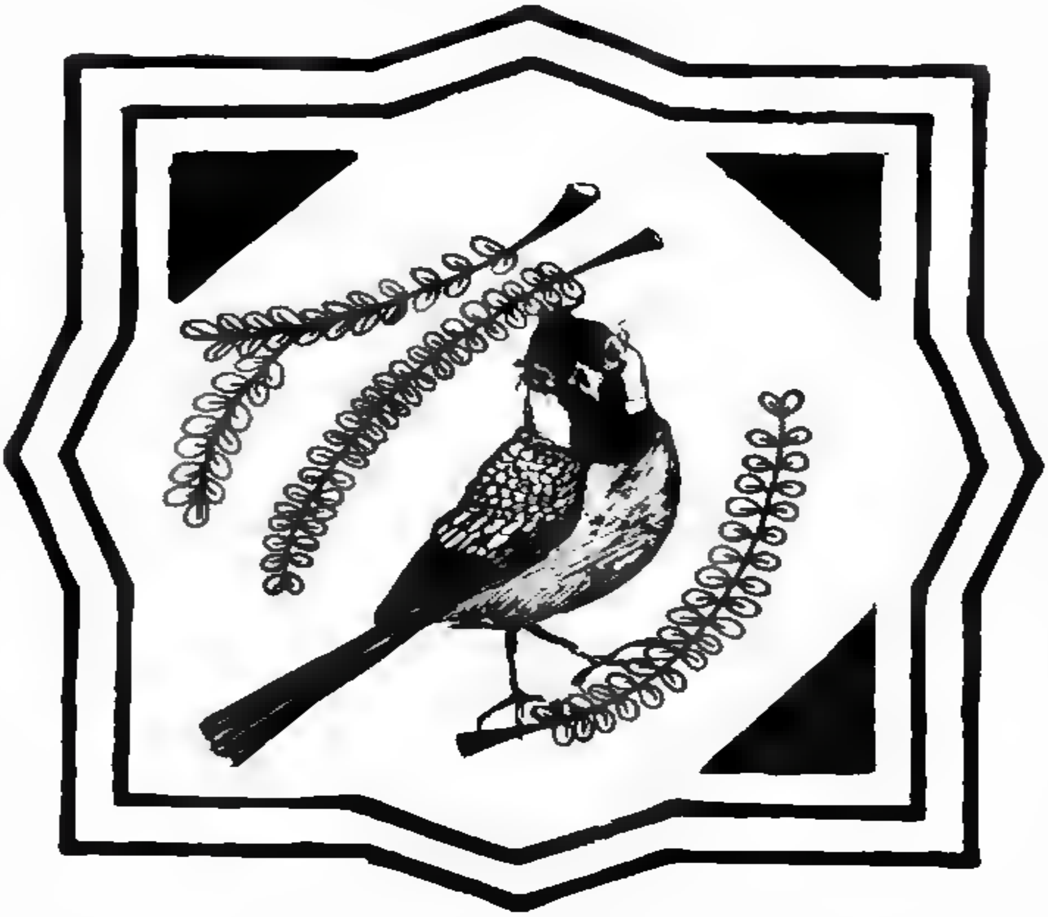

فشلّ خَليفُؤهْ في مكانه ذاهل العينين أمام ما اقترفته قِططه.

وما تحرّك بِن شاؤول وهو يُبصر رفيق السِّنين الماضيات تتقاسمه وحوش خَليفُؤهْ الجائعة، لا تُبقي منه إلا ريشة صفراء سقطت من عَجُزه.

ذرتها الرِّيحُ ودحرجتها على الرّمل فاستقرّت في واحدةٍ من حُفر الصُّوف، شاهدة على نهاية خمس عشرة سنة من عِشرة الذّرق والتّغريد. وجثا بن شاؤول مُبتلِعًا عبراته عند قبر الرِّيشة يحثوه بالتّراب. يتذكّر قول أُم حَدَب قبل سنواتٍ عن شيءٍ ينتهي بعد نفوق البُلبُل. ثمّ نشجَ مثل طفلٍ مذعور يخشى من شيءٍ لا يدريه.

يضربُ ركبتيه بكفّيه ويئن:

«شيءٌ ما سوف ينتهي».

انتهى سِفرُ التّبّة

يعقبه سِفرُ العَنقُوز

صادق عبدالرزاق بوحَدَب

روائي كويتي. من إصداراته:

- «ناقشة الحِنّاء»، مجموعة قصصية 1950 (16).

- «القُفّال»، رواية 1952.

- «سِفر الخلود»: رموز مدينة الطين، طبعة خاصة ومحدودة 1954.

- «ربّة الذكرى»، ديوان شعر 1955.

- «النّوخِذا الأخير»، رواية 1956.

- «المسكوت عنه في الأمثال الشعبية الكويتية»، دراسات 1958.

- «على أطلال الشور»، مجموعة قصصية 1959.

- «كائنات مدينة الطين»، أساطير شعبية، دراسات 1961.

- «في المباركية كانت لنا أيام 1927-1933»، ذكريات بواكير التعليم 1962.

- «لغة الصُّخور: افتعال البلاغة في الأدب»، دراسات 1964.

- «أهزوجة الشّراع الحزين»، رواية 1967.

- «الصقر والفهد»، تأملات مع الشاعرين صقر الشبيب وفهد العسكر 1968.

- «بعد جفاف الزّيت الأسود»، مسرحية 1969.

- «حُرّاس الغبار: محاربو الخيال»، مقالات 1971.

- «الصامتة»، رواية 1975.

- «في القاهرة كانت لنا أيام 1939-1948»، ذكريات البعثة الجامعية 1976.

- «على أطلال المقام»، مسرحية 1978.

- «شرق، قِبلة، المرقاب»، ثلاثية الديرة 1982.

- «وارث لغة البحر»، ديوان شعر 1983.

- «ناخ الجمل»، مجموعة قصصية 1983.

- «عناقيد اللؤلؤ»، ديوان شعر 1986.

«..لو أبحرت إلى الدَّيرة في الحال على طريق خطوة الخِضر عليه السَّلام، تصلُ بعد منتصف اللَّيل. وهُناك في الوَطْية، اخلع نعليكَ وادخُل الماء عند ارتفاع أذان الفجر. واجعل صخرة الخِضر وراء ظهرك، وقِف حينما يُحاذي الماء سُرَّتك. وبعد سماعك آخر كلمةٍ من الأذان اِبدأ بعدِّ الموج.. واحدة... اثنتان.. ثلاثة.. حتى إذا ما أقبلت الموجةُ السَّابعةُ ادخُلها تبَّةً كاملة، ولا تخرج وإن انقطع نفَسُك.. حينها فقط تتحقق مطالبك يا ولد شايعة».

ارتبك سليمان:

«لا أخرج وإن انقطع نفسي؟! هذا موتٌ ثانٍ يا أُم صَنقُور!».

هزَّت رأسها:

«لن تموت، ولكنهم يحسبون».

(سِفر التبة) هو الجزء الثاني من ثلاثية الروائي الكويتي صادق بوحدب (أسفار مدينة الطين)، يسبقه الجزء الأول (سِفر العباءة)، ويلحقه الجزء الأخير (سِفر العنفوز).

ويسر المركز الوطني للثقافة والفنون والآداب أن يصدر هذا العمل الروائي في جزأيه الأول والثاني ضمن سلسلة «إبداعات كويتية» شهر أبريل ١٩٩٠، لحين صدور الجزء الثالث واكتمال هذه الذخيرة الإبداعية المستوحاة من الماضي في جزئها الأخير.

مطبعة الحكومة

1990

(ذخيرةُ أيام الخَرَف)..

فصلٌ هاربٌ من مُذكّرات كاتب الأسفار؛ صادق بوحَدَب

الجمعة، 22 يونيو 1990

الرّجُل الذي ما عاد غريبًا

«ربيبُ زَمزَم سيِّدةِ الاحتضارات»

دفع باب مكتبي يوم أمس قبل المغيب دونما طرق، ودخل بهدوء على موعد لم نتفق عليه، رغم أني منذ نحو أسبوعين كنت أنتظر.

لم يهاتفني قبل مجيئه من فيلكا مثلما فعل قبل زيارته الأولى. ولم يكن يتلثم بغترته هذه المرة، واكتفى بإلقائها على كتفه. اتسعت رقعة جبهته المحروقة حتى قمة رأسه حيث ينبت الشّعر الأشيب. والنظارة الشمسية الكبيرة تغطي نصف وجهه الشائه. جلس على الأريكة الجلدية السوداء صامتًا أمامي، يرتفق ركبتيه ثابت الوجه. وشممت عطر ماء الورد في قدومه مثل زيارته الأولى.

قدّم لي التعزية في وفاة زميل الأدب وزميل الدراسة في القاهرة، الأديب الكبير أحمد مشاري العدواني الذي توفي قبل ستة أيام. نعته الجرائد وعددت مناقبه وإسهاماته الأدبية، وما قدرث أن أكتب عنه حرفًا رحمه الله بسبب قراري الامتناع عن الكتابة في الجرائد بعد فرض الرقابة المسبقة، لكني كتبت عنه شهادتي في هذه المذكّرات، ذخيرة أيام الخَرف، فأحمد رحمه الله، أكبرُ من اختزاله بكتابة قصيدة النشيد الوطني وبضع أغنيات عظيمة لكوكب الشرق أم كلثوم وعبدالحليم حافظ ونجاة الصغيرة بحسب ما عاصرته.

«شكرًا لتعزيتك».

أجبت تعزيته قبل أن أهم بالنهوض متكئًا على مكتبي فأشار لي بكفه أن أجلس:

«لا تتعب نفسك أستاذ.. لا أريد قهوة..».

عاودت الجلوس فأردف:

«..أريد شيئًا آخر لو تكرمت».

بما إني أكتب هذه اليوميات لي، ذخيرةً لأيام الخَرَف، وهي ليست للنشر ما بقيت حيًا، أستطيع أن أقول إني ما ارتبكت في حياتي مثلما حدث لي عند دخوله، رغم أن تعزيته بثّت طمأنينة في نفسي وأنا الذي حسبته يجيئني غاضبًا بعد قراءة الجزء الثاني.. لم يكن ارتباكًا في الحقيقة، كان خوفًا شابه فضول تملكني وشلّ قدرتي على التفكير بما هو آتٍ، وحرت في كيفية الخروج من هذا المأزق. أو كما أسماه الشايب قبل أربع سنوات؛ المشكلة التي لن تخطر لك على بال. وهل هذه مجرد مشكلة؟ وهل يخطر في بال روائي أن يقابل شخصية كتبها في رواية مثلما يشاهَد في أفلام السينما؟

«رواية مؤثرة.. استمتعنا بها أنا وعمتي زمزم.. أين الجزء الثالث؟».

قال غايب، أعني سيف.. سيف بن سليمان بن سهيل. وحانت مني التفاتة إلى درج مكتبي حيث المخطوط غير المكتمل، ينتظر لقائي المقبل بالشايب لأستأنف كتابة هذه الرواية اللعينة. أجبت من دون أن أنظر إلى وجهه:

«قلت لك في زيارتك السابقة؛ ما كتبت منه إلا فصولًا متفرّقة».

فأجبرت نفسي على النظر إلى وجهه رغم الجهد الذي أكابده وأنا أفعل. كان وجهه يثير الفزع لولا طمأنينة يبثها هدوء صوته. أفلت زفرة بعدما أسند ظهره إلى الأريكة، فقال:

«لست هنا لأسألك إن كانت هذه القصص حقيقية، لأنها حقيقية. ولست مهتمًا لحقيقة أن عبدالعزيز الهذار لم يكن شهيدًا في معركة الجهراء، أو أنه مات هاربًا مبتلعًا لسانه كما كتبت في سِفر التَبّة.. فهو

لم يكن في يوم من الأيام أبي، مثلما لم تكن أمينة البيعاريّة أمي، ولا زمزم أم الخير عمتي.. رغم أني عشت من العمر سبعين سنة في فيلكا أتجرع الوهم بأنها عائلتي، وأفاخر بمن لم يكن والدي، شهيدًا ما عرفت الديرة ولا الجزيرة رجلًا بحجم شاربه قَط..».

أطرق يفكر قبل أن يقول:

«..إطمئن أستاذ، لست غاضبًا. ولن ألجأ إلى القضاء مثل غيري فأمري مختلف.. أنت تدري، محاكم الدنيا كلها لا تغير بأحكامها حكم القدر.. أنا أريد أن أفهم وحسب».

لا أظن أحدًا يريد أن يفهم بقدر ما أريد. رفع رأسه ينظر إليّ، أو هكذا حدست عينيه من وراء النظارة الشمسية. واستطرد على طريقته بالتلكؤ بين جملة وأخرى:

«سليمان بن سهيل، والدي، لو كان حيًا اليوم فهو في السابعة والثمانين. وأمي فضة، يفترض أن تكون، في السادسة والثمانين».

نهض ودس كفّيه في جيبي دشداشته المتغضنة. ومشى بضع خطوات إلى النافذة المطلة على دوار بوابة الجهراء، ينظر إلى الشارع تحت الشمس الغاربة ويقول:

«جئتك قبل ثلاثة أسابيع أسألك عن الهذار وأم غايب.. أسألك اليوم، أين سليمان وفضة؟ أو أين دُفنا؟».

على الشايب أن يضع حدًا لكل هذا، قلت في نفسي قبل أن أجيب الرجل الذي ما عاد غريبًا:

«أرى أنه من الأفضل ألا تسلم لخيال رواية على أنه حقيقة سيد

غايب».

«اسمي سيف.. لكن معك حق.. أنا غايب».

قال دونما التفات إليّ. فأفلت ما يشبه ضحكة وهو أمام النافذة يجيل النظر:

«ترددت على الديرة في الأيام الماضية. وتسللت إلى المقبرة المهجورة قرب البحر. مقبرة هلال في شرق. لم يكن من بين قبورها المهملة إلا قبران لكل منهما شاهد صخري يحمل اسم المتوفّى وسنة وفاته بالتاريخ الهجري. نقش على الشاهد الأول اسم صاحب المقبرة هلال فجحان المطيري 13 جمادى الأولى 1357. أما القبر الآخر فهو صغير جدًا، يبعد عن الأول مسافة، ويستظل بجدار المقبرة الغربي. قرأت على الشاهد الصخري اسم سيف بن سليمان بن سهيل محفورًا في 11 محرّم 1339».

سعلت أهيئ حنجرتي لعبور كلماتي المترددة:

«ليس هذا إلا من قبيل المصادفة، رحمه الله إن كان الأمر حقيقيًا».

استدار صوبي وكفّاه في جيبيه ما زالا:

«رحمه الله؟! رحمني الله حيًا يا أستاذ..».

أخرج من جيب دشداشته الأيمن منديلًا ورقيًا لفّه على شيء صغير. فك المنديل ووضع الشيء على سطح مكتبي وقال:

«أتعرف ما هذا؟..».

لم أجبه بأنه «غزيزو»، آخر فقرة في نهاية العمود الفقري. عرفتها

طفلًا هي كل ما يتبقى من العظام بعد فناء الجسد وتحلل عظامه. ولطالما صدق البعض خرافة أن من يرمي غزيزو قِط بين اثنين فإن مصيرهما الخلاف والفراق لا محالة. لا أنكر أني أستلذ كتابة الخرافة، لكن أن أبصرها ماثلة أمامي على سطح المكتب! تمنيتها تجيء بالعجب، فيعمل سحرها ويفرق بيني وبين الرجل الماثل أمامي إلى الأبد.

استدار غايب، وعاود الجلوس على الأريكة والعظمة على سطح مكتبي. استطرد:

«..حفرت القبر الصغير فجرًا، وما وجدت إلا هذا الغزيزو تحت الأرض.. أخذته إلى مختبر وزارة الصحة أفحصه، وكانت النتيجة على ما جاء في سِفر التَبّة؛ رفات قطة مقبورة بين موتى الديرة».

ما فهت بكلمة وليس لدي ما أقول. ونسيت كل ما ترتب عليه نشر جزأي الرواية ومنعها وإتلافها وما تلا ذلك من قضايا مرفوعة في المحاكم. نسيت هجوم حُرّاس الغبار في الصحف، ودعاء خطباء المساجد على أيدينا أنا وفياصل المشيعل بالشلل. نسيت كل شيء أمام ذاك الرجل الماثل أمامي مثل حقيقة صارخة انبجست من خيال.

«أخبرني من فضلك أستاذ.. ماذا تعرف أكثر؟».

فتقدمت بصدري وارتفقت سطح المكتب وصورة الشايب متجسدة داخل رأسي:

«أنا لا أعرف أكثر مما كتبت».

«أنت تعرف كل شيء».

«أنا لا أعرف أي شيء».

فأفضى لي بكل شيء عن حياته في الجزيرة، متوسلًا أن أخبره من أين جئت بحكايات أولئك الناس في الديرة. فوافقت، وليذهب الشايب إلى الجحيم.

***

بعد بضعة شهور من إشاعة خبر استشهاد الهذار في المعركة.. ماتت أمينة.

قال لي سيف -الذي ما زلت أسميه غايب- ما سمعه من عمة أبيه المفترض؛ زمزم أم الخير. أخبرته عن أمينة التي لا يتذكرها، العاقر التي عرفها أكثر بعد سبعة عقود من موتها حسرة على زوجها. تعرّف إليها في رواية من خيال أوقدته في رأسي يجمع شتات قصص رواها لي الممثل الهرم. بلغ أمينة خبر موت زوجها فما حملت الرضيع بعدها قط. وما تخيل الرجل لأمه المفترضة صورة إلا ما رسمتها العمة في خياله، وقد أخذ الموت أمينة بعدما أخذ عقلها الندم على شيء لم تعرفه زمزم. تُركت البيعاريّة في حسرتها للإعياء والوهم والوساوس تقض مضجعها، تضرب على فخذيها بكفيها: «يا ليت ما جاءنا الولد». وصياح الرضيع يخرق أذنيها مثل صرخة لائم لا تسكته المرضعة ولا يخدره ماي غريب. نبذت الرضيع وطردته من حجرتها، فتلقفته زمزم. وغاصت حجرة أم غايب في صمت مثل ليل المقابر، فاشتاقت هذرَ الهذار أكثر. تتذكره فجر يوم المعركة يتنكب صرة أغراضه، يعانقها ويشمُّ مِلفعها ويملأ صدره بريحِه، كأنما يدري أنه لا

يعود. وتاقت إلى صوته يهز أركان الصمت بهذره. واشتاقت عِشرة العشرين عامًا من الصبر على مجيء ولد جاء فنبذته. ماتت أمينة تشتم نفسها وغباءها وجهلها بعدم تصديق نبوءة أم حدب قبل سنين طويلة حينما أفضت؛ يشرب الحلو والمالح، فينجو بحصانه ويموت بلسانه. ماتت تتولّه رجلًا أراد الولدَ خوفًا أن يموت فتطيح أمينة ولا يشيلها أحد. ماتت تبكي رجلًا ما خان زوجته العقور، ولا نكد عليها العيش بضُرّة. «مات أبوشارب حلو، مات وما زعلني مرة».

خافت المرضعة من رضيع وُلد على موت أبويه، ورأت فيه سوء الفأل فرفضت إرضاعه. وحملت أم الخير الرضيع وطافت على بيوت الواضعات الجدد، تطرق أبوابهن تتوسم فيهن مرضعة. ويتلقف غايب الأثداء يمصمصها كل يوم في بيت جديد. يرضع من النهود الأسود والأسمر والأبيض، والناهد والعامر والضامر، حتى صار أخًا بالرضاعة لكل أقرانه في القرينية وما حولها. وصار نصف نساء الجزيرة، بطبيعة الحال، أمهاته من الرضاع.

كان قد بلغ شهره العاشر في كنف أم الخير، صحيح البدن تدب فيه العافية وتضيق عليه دشداشته الصغيرة. حبا ذات صبيحة في حوش البيت، في آخر موسم حصاد الجَزَر البنفسجي والقثاء والبطيخ. بين دجاجات خيبر وأفراخها، لا يسكت ضجيجها منذ طلوع الشمس من البحر الشرقي، حتى تغطس في البحر الغربي. وكان قِدر زمزم على الموقد يغلي بالسمن، وسمك الغُوْم المجفف في وعاء كبير، وعجينة الكليچة تتخمّر على مهل إلى جوار التنور المتقد بحطب الطبخ وجمر نارجيلتها. وزمزم، يشعُّ نسيج ثوبها الأخضر بالورد الأصفر. يفوح منها عطر ماء الورد الفارسي، واقفة في

ظل شجرة الطلح المُباركة في موسِم تفتّح زهورها الصّفراء، تُقشر لحاءها قبل أن تغليه علاجًا للمبطونين.

أغمضت عينيها تشم ضوع المزروعات في حوشها الكبير، والريح تهب أنفاسها خضراء منعشة مع وشوشة أوراق الشجر. ولا تدري في لحظة السكينة تلك، وهي تنصت إلى حوار أوراق الطلحة المُعمّرة وأوراق السّدر وسعف النخيل، من أين تناهى إليها ما حسبته مواء قِطة عالقة في بئر. اهتزت زمزم وسقطت حزمة الأخشاب من يدها وقت وافتها صرخة الطفل مكتومة الصدى تجيء من قريب. التفتت فأبصرته محشور الرأس حتى كتفيه في التنور، يرافس ويعارك الهواء بساقيه والنار تشب في ثوبه. شُلّ تفكير زمزم للحظات، فهبت تجر ساقيها المتخشبتين. ركضت وتعرقلت وسعلت طعم التبغ المحشور في صدرها مثل القطران. فأطبقت كفيها على خصر الصغير تشده إليها. وحررته من فوهة التنور المتقدة مثل فم الشيطان. وطالعها الصغير بوجهه المتقد شعلة من نار، فخلعت مِلفعها عن رأسِها وكومته على رأسه، وحينما أزالته رأت مكان الوجه كتلةً من اللحم المشوي، كأنما نزع الطفل جلده المسلوخ داخل التنور، وخرج بغير وجهٍ والنار تشب في دشداشته اللصيقة بجسده. وفمه المفتوح بلا شفتين يطلق صرخة متصلة بدت لأم الخير، من طول النفس، أنها لن تنتهي إلا على موته. صرخة توجع السامع في قلبه قبل أذنه. فصرخت زمزم، وألقته من بين يديها فسقط في قِدر السمن المغلي، فانطفأت صرخته.

وفيما مكثت زمزم في بيت الطلحة صامتة باهتة لا تدري كيف فعلت ما فعلت؛ شرع البعض يتحدث عن حفر قبر صغير إلى جوار

قبر أم غايب. أكثر من شاهده من أهل الجزيرة قال إنه ميت لا محالة، لا صوت ولا نفَس، إلا أم صنقور أقبلت على بيت الطلحة تقول إياكم! إن القبر لن يُحفر، وإن هذا الرضيع لن يموت محترقًا مرّة ثانية. ولا أحد يفهم كيف للمرء أن يموت مرتين. وبينما زمزم تنصت إلى أحاجي أم صنقور، وإلى همسات المتجمهرين في بيت الطلحة دونما إدراك، هذا ينصح بإكرام الميت بدفنه، وذاك يريد حمله إلى بيت الزجاج في الديرة، حملت أم صنقور جثة الصغير يقطر منها السمن الأصفر بين يديها، وامتطت حمارًا إلى المقام وأطبقت بابه في وجوه الزائرات. ومكثت تدهن الرضيع بزيت السمسم وعسل السدر وأعشاب الجزيرة، وتخدره بماي غريب، وتسقيه وتغسله بلبن الأتان ثلاثة أيام وليلتين.

وفي فجر اليوم الثاني، أرسلت خادمة المقام صبيًا مكويّ الرأس يحمل طاسة ماء إلى المسجد الفوقي، ومال المصلون على الطاسة واحدًا بعد آخر، يتمتمون في الماء وينفخون فيه ثلاثًا. وعاد الصبي بعد صلاة الفجر يطرق باب المقام. وسقت أم صنقور الرضيع بالماء المبارك بصلاة رجال الجزيرة. وخرجت في ظهيرة اليوم الثالث، ومضت إلى القرينية قرب أطلال القلعة القديمة. وفي بيت الطلحة أخرجت الرضيع من شق عباءتها ملفوف بغلالة بيضاء. فعانقتها أم الخير: يا صاجة يا صاجة ما كذبتي. فدست أم صنقور في كف أم الخير خرقة مدبوغة من وبر البعير، لفتها على قرطاس مطوي وقالت:

«يقرؤه الصغير، ليس من حقي ولا من حقك أن نعرف ما فيه».

سألتها زمزم كيف يقرؤه وهو صغير؟ فأجابتها كبيرة الصاجات:

«عندما تموتين».

وفُطم الرضيع بعدما نفرت وفرت منه المرضعات. لا تكاد واحدتهن تكشف عن ثديها حتى تخفيه ثانية أمام الفم المفتوح الخالي من الشفتين. رفضته أمهاته الكثيرات، وانفض من حوله إخوة الرضاعة. ومكث في بيت أم الخير تطعمه هريس الخضراوات والعدس وتسقيه حليب المعزة المحلى بالتمر، فيكبر صحيح العافية شائه الوجه. ولا تغفل زمزم يومًا عن التفكير في القرطاس المحفوظ في صندوق حليها. وأدخلت الغلام حصص الكتّاب، وداوم على الدروس وهو لم يبلغ سن الدرس، وقبل به أقرانه صامتًا ملثمًا، ونبغ غايب بقراءة الكلمات والأرقام قبل بلوغه الثامنة. فصارحته زمزم بأمر قرطاس أم صنقور. أسندت ظهرها إلى جذع طلحتها ذات ظهيرة، وسحبت نفسًا عميقًا من النارجيلة وقالت:

«تحرم عليك قراءته ما دمت حية».

عين الغلام على قصبة الدخان في فم العجوز، يتحرى مثل كل مرة خروج دخان يدخل صدرها ولا يخرج أبدًا. أشارت صوب خزانتها الخشبية تقصد صندوق حليها:

«إذا أخذ الله أمانته ومتّ.. تجد القرطاس هناك فاقرأه».

وما انفكت زمزم منذ ذلك اليوم تموت. ولأم الخير احتضارات كثيرة شهدها غايب. تموت فضولًا علّها تعرف السر. كانت في كل أسبوع تحتضر. واختارت يوم الجمعة يومًا مباركًا مناسبًا لملاقاة وجه الله. تشيلُ المرشّ وتنثر ماء الورد على فراشها فتستلقي. وتسعل كأنها تستفرغ رئتيها المعطوبتين، ويضيق صدرها وتصير

فيه الأنفاس مثل الشخير. رفعت سبابتها ذات احتضار، فهمدت. وأطبق الصبي جفنيها وهو يقبل جبينها باكيًا. فركض ليخبر الجيران بوفاة أم الخير، وما كاد يبلغ عتبة حجرتها حتى صاحت به على طريقتها:

«غايبْؤة!».

استدار مقفلًا غير مصدق ما سمع. فأبصر العمة زمزم متربعة على فراشها، تشير له صوب الخزانة الخشبية:

«متى تفتح قرطاس أم صنقور؟».

وماتت زمزم مرات ومرات، وللصبي معجزة تحييها من الموت في كل مرة. يطبق جفنيها ويلثم جبينها بغير بكاء. فيفتح الخزانة ويخرج قرطاس أم صنقور من صندوق زمزم. فتفتح زمزم عينًا عليه. فيقول لها: «الحمد لله على السلامة». وتعتدل العجوز في فراشها تهم بالنهوض مبرطمة:

«هذا فعلُ مغلي الطلحة.. الحمد لله الشافي».

فينساها الموت لأيام وتموت بعد أسبوع، ويطبق الصبي جفنيها مثل كل جمعة، ويخرج مطوية القرطاس ولا يفكها، يتظاهر بالقراءة قبل أن يصيح:

«جانا الخير.. جانا الخير».

تنهض العجوز واسعة الابتسامة:

«احلف؟!».

فيلوِّح غايب بمطوية القرطاس محكمة الرباط، ويحمد الله على سلامة العمة زمزم، ويشيد بماء طلحتها المباركة. وتموت زمزم بعد أسبوع، ولا يفك غايب مطوية قرطاس أم صنقور، والعمة تكرر احتضارات لا تفضي إلى جنازة.

كأنما حرّمت عليه سقطة التنور وغطسة السمن مصادقة الأقران، وأبناء الجيران من إخوة الرضاعة. ما ربت على رأسه رجل، ولا قبّلته امرأة، ولا صافحه صغير ولا كبير. يقولون رحمة به خشية أن يؤذوا جلده المتغضن إن هُم لامسوه. ويلمس الصبي وجهه بأصابعه الصغيرة ويقول:

«هو لا يؤذيني».

ثم إن وجهه أجمل الوجوه في عين زمزم، لكنه لسبب لا يدريه يؤذيهم. وما انفكت ملامحه تتعقد بعد بلوغه الحلم. اشتدّت عظامه وبرزت، وأضفى صوته البالغ مزيدًا من الصدود عنه، فأسماه أهل الجزيرة بودرياه. والتصقت به التسمية حتى صار يعرف نفسه بها إذا ما طرق بابًا وسأله أهل البيت من الطارق؟

«أنا غايب».

«أي غايب؟».

«أنا غايب بودرياه».

رضي بلقب يكرهه، لكنه في المقابل عاهد نفسه ألا ينادي أحدًا باسمه إلا زمزم. كره الأسماء، أما أهل الجزيرة فهُم على لسانه: أنتَ وأنتِ، وهو وهي. علّمته الجزيرة أن يكره مناداة أهلها بأسمائهم

وهُم ينادونه بودرياه، أبغض الأسماء إلى نفسه. ولا أحب نفسه إلا بما تناديه العمّة زمزم بلسان عرب السّواحل والجُزر: «غايبُوْه». لكن النّاس ميّزته عن أي غايب آخر في الجزيرة، وأصرت على إلحاق اسمه باسم وحش البحر. ففزع منه الأطفال، وهو الذي ما أحب مثل الأطفال شيئًا، ولا تمنى إلا إنجاب الكثير منهم. وهو يدري أن فعل التنور والسمن المغلي عيبٌ لا يُورّث.

ومكث في بيت الطلحة لا يخرج إلا للدرس، أو مرافقًا لأم الخير في زيارات مقام الخِضر لقضاء الحوائج، والمرور على مزار محمد البدوي وشيخ غريب لجلب البركة، والدعاء عند أضرحة سعد وسعيد وشقيقتهما سعيدة. تجلس العجوز متدثرة بعباءتها عند كل قبر، وتدعو لصاحبه لم شمل في الجنة يجمعه بشقيقيه، بعدما فرقتهم صاجّة لا تخاف الله قبل قرون، دفنت في بيتهم غزيزو فدب النزاع بين الشقيقين والشقيقة بلا سبب. وفارق الشقيقان شقيقتهما، وماتوا على خلاف فدُفن الشقيقان جنوبي الجزيرة، ودُفنت سعيدة في الشمال قرب المقام وحيدة. لا تنفك أم الخير في كل زيارة تحمل مرشّها وتنثر على القبر ماء الورد، تمسح عليه بكفها، وتتمنى:

«ليت قبري جنب قبرك يا سعيدة، أحكي معك وأسعدك وأسليك».

وما كان الصبي قد جاوز الثامنة آمنًا في بيت الطلحة، حين سافرت أم الخير إلى الديرة لتبيع في سوقها حلوى «الكليچة» المعجونةِ بالسكر والبيض والهال والزّعفران، و«المَهياوة» المحضّرة من مسحوق سمك الغُوْم المجفّف، رغم أنها ما حملت في إبحارها إلى الديرة شيئًا. وقد أبحرت مع قطتين في قارب يقوده شاب أملط. وفي الديرة مكثت زمزم نهارًا في بيت الزجاج، تسأل الطبيبة خاتون

حليمة عن علاج لصدر أرهقه التبغ. فطلبت منها الطبيبة الأمريكية التوقف عن الدخان لأنه دمر رئتيها، والكف عن شرب مغلي لحاء الطلحة لأنه أهلك كليتيها. فخرجت العجوز من المشفى:

«الحقيقة أنكم ما تفتهمون!».

فمرت على السوق تشتري تبغ النارجيلة. وفي السوق الداخلي أبصرت دكانًا صغيرًا يعلق الكتب والمجلات على دفّتيه. ولما استفسرت عن الدكان قيل لها إنها مكتبة. يعني ماذا؟ يعني كتب خانة. يعني ماذا؟ يعني تبيع الكتب.

«تقرئين يا حجيّة؟».

مازحها رجل معمم كان يجالس صاحب المكتبة. خجلت أم الخير أمام ضحكته، وعينيه الباسمتين وراء نظارتيه المستديرتين تنتظر إجابة. أخفت زمزم سلة التبغ في عباءتها، وهمت أن تنصرف لولا أوقفها الرجل يسألها إن كان لها أولاد أو أحفاد يقرؤون. أجابت:

«ابن ابن أخي».

مد إليها مجلة وقال:

«تنفعه».

وحيّا الرجل بائع الكتب الشاب وانصرف. فسألت أم الخير البائع عن المعمم الذي أهداها المجلة من يكون؟ فأخبرها أنه صاحب المجلة، الفقيه عبدالعزيز الرشيد.

غيرت مجلة «الكويت» منذ عددها الأول حياة غايب، ومدت له جسورًا من ورق بين الجزيرة والديرة، بل إلى الدنيا كلها، وهو الذي

ما كاد يفارق بستان زمزم. ومكث الشهر تلو الشهر يطلبها من مكتبة بِن زُوَيّح مع المبحرين المقفلين إلى الجزيرة. ويتحرى وصولها بشغف في كل مرة. ويقرؤها مرتين، أولاهما لوحده، والثانية لـزمزم. وبعد سنة الجراد الثالثة بلغ الصبي العاشرة؛ سنة توقف المجلة عن الصدور. عاد المبحرون من الديرة إلى الجزيرة أسبوعًا تلو أسبوع وما جاء أحدهم بالمجلة. وبعد مرور شهر أقبل صاحب أحد المراكب من الدِّيرة، شابٌ رخْوٌ أخبره أن الفقيه -على ما يقول بن زُوَيِّح- أوقف مجلته بعدما أرسله عبدالعزيز بن سعود ملك نجد والحجاز للدعوة إلى الإسلام في إندونيسيا. فعاود غايب قراءة المجلدات العشرة مرات ومرات، يحفظ ما فيها من شؤون الدين والتاريخ والأدب والأخلاق واللغة.

ورغم عزلته في بستان زمزم، وخروجه القليل للدرس وزيارات الأضرحة صحبة أم الخير، أحب غايب مثل كل صبي يحب في الجزيرة، يحب من بعيد، لا يقابل محبوبته، لا يكلمها، ولا يتذكر منها إلا هيئة الطفلة التي كانتها قبل سنين. لكنه يحبها مثلما هي بعيدة، فيرصعها بما يتمناه من صفات في خياله، حتى إذا ما شب أرسل أهله لطلبها زوجة. وقد أحب غايب شأن الفتيان بنات الجزيرة كلهن، وما أحبته فيهن واحدة. ويجيب أهل كل زوجة تمناها إذا ما أرسل إليهم زمزم خاطبة:

«أخوها من الرضاعة».

حتى تلك اللاتي ما دخل بيوتهن للرضاعة قط. وتحملق أم الخير إلى لا ملامح وجهه طويلًا وتقول:

«لو يرون هذا الوجه بعين زمزم..».

تنبجس دمعة من عينها اليُمنى، وتسارع بتجفيفها بكُمّ درّاعتها:

«..لكن ليس لهم نصيب».

فيرتمي الفتى في بستان زمزم، أرض سخية يحفر فيها بعمق ذراع، فتهبه الماء عذبًا لشهور، حتى إذا ملَح الماء حفر حفرة جديدة فينبثق منها عذبًا، لتقوم في البستان مملكته الخضراء موسمًا بعد موسم، تحت ظلال النخيل والسدر والأثل والطلحة العظيمة المباركة. أرض مفروشة بعشب الخبيز والعاقول وأصابع العروس والعنصل. يلقح فيها النخيل، ويزرع في براحها الطماطم والخيار والقِثاء والبصل، ويسقي الكراث والفجل والجرجير. ولا يترك دابة تعلف من بستان زمزم، إلا غزلان الجزيرة حرة آمنة مثل أبقار الهند، منذ أطلق شيخٌ من أقرباء الحاكم زوج غزلان قبل عقود، ومنع المساس به، فتكاثر نسله. وضيقت أجيال الغزلان على المزارعين، وكادت الجزيرة أن تغص بها، لولا رحمة الله بما يصيده أبناء الشيوخ في مواسم القنص.

ويبلغ الفتى السابعة عشرة وقت افتتحت دائرة المعارف المدرسة الصلاحية الأميرية قرب المسجد الفوقي على ساحل الجزيرة، فتصير مكتبتها البدائية، رغم بعدها عن بيت الطلحة، ملاذه بما يقرأ فيها من كتب، وما يعود به إلى البيت إعارة. وسلمه أمين المكتبة الصغيرة نسخة من مفتاحها، كي يُمضي فيها من الوقت ما يشاء في الأماسي وأيام إغلاقها كل جمعة. وما حدّث غايب عن معارفه الجديدة أحدًا إلا العمة زمزم. يتربع أمامها في الحوش، يحكي لها

عن ابن الوليد والقعقاع وهو يقلب جمرة نارجيلتها. وتدب الحماسة في نفس أم الخير، فتصالب ساقيها متربعة وسروالها القطني المقلّم تظهر حواشيه المكشكشة من تحت دراعتها البنفسجية المرقّطة. تشهر قصبة الدخان عاليًا مثل سيف، وتحكي قصصًا عن ابن أخيها الشهيد بطل الجهراء، الفارس الذي يقف على شاربه الصقر ويمشي على زنده التيس. وتوشك أن تروي قصة معادة، فتتدارك وتنتحل من قصص عنترة اثنتين وتنسبهما إلى الهذار.

عاد غايب من مكتبة المدرسة الصلاحية ذات غروب يوم جمعة، يحمل كتابًا ليقرأه أمام زمزم، لكنه ألفى سراج البيت منطفئا، وجمر التنور خامدًا، وعجينة الكليچة متخمّرة فاسدة فوق لوح خشبي. سارع إلى حجرتها وقد فهم فور ما رآها أنه احتضارها الأسبوعي الأخير. كانت شاحبة غريبة السعال، ينفجر من صدرها يابسًا كأنما يمزق أحشاءها. ما أطبق جفنيها فكانت من قبل دخوله مغمضة. لثم جبينها البارد، وما فتحت عينًا ولا تحرك لها جفن لما أخرج الفتى القرطاس من الخزانة. أمسكه مطويًا ووقف عند رأس العجوز يشهق كأنما قرأ في القرطاس ما أفزعه. مكث مدة غير مصدق أن العجوز لم تأت بفعل. بكى، وتقطعت أنفاسه ونشج لموت زمزم.

«ما الذي أبكاك في القرطاس يا غايبؤة؟!».

فتحت عينيها فسقط على صدرها يقبل كفيها ويشم فيهما الحناء:

«ما فتحت القرطاس يُمّه زمزم.. حسبتك ميتة، فبكيت عليك».

وبكت أم الخير لبكائه. نزعت اللحاف وقررت أنها لن تموت. وعاهد غايب نفسه بعدم فك رباط القرطاس، مبقيًا على معجزته بإحياء

أم الخير بعد الموت، حتى جاءت سنة الجراد الرابعة فحصدت من ضمن حصيدها زمزم.

عبر الجراد سماء الديرة في برد العجوز أواسط موسم تلقيح النخيل. وحط على سواحل الجزيرة في غير موعده. أقبل لحيمًا مكتنزًا بالبيض، كسولًا قليل الحركة في برد السواحل. وخرج بعض الأهالي إلى أسياف الجزيرة يصطادون الجراد الأليف، يغلونه في الماء المالح حيًا، ويملؤون ما يفيض بأكياس الخيش ويبيعونه في السوق. وحينما عاد غايب إلى بيت الطلحة يحمل خيشة جراد صغيرة أوقفته أم الخير صارمة الملامح:

«زمزم لا تأكل الجراد».

داعبها بالقول إنها ليست ملزمة، وإنه سوف يأتي على ما في الخيشة لوحده. وما بادلته زمزم الابتسام وهي تقول:

«لا تتحرش بالجراد وبيتك أخضر».

لم يكترث غايب، وظل يطعَم من الجراد المغلي المملح لأسبوعين وبضعة أيام. حتى انتشر في الجزيرة تحذير أم صنقور من الجراد الذي طال مكوثه على أسياف الجزيرة:

«غدًا يفقس بيضك يا جراد ويخرج علينا الدّبا».

وفقست البيوض وخرج منها الدّبا المسعور يزحف قبل أن تُبرعم أجنحته. وحجب الجرادُ الطائرُ الشمسَ عن الجزيرة، وأحال رائعة النهار فيها إلى ليل واقب، ودبّت صغاره الزاحفة على الأرض مثل بساط أصفر يمتد لأميال. وصامت زمزم عن الكلام حينما باغت

الجراد أهل الجزيرة، وأكلهم قبلما يجهزوا عليه مغليًا مع الملح في القدور. خرج الأهالي يمشون تحت ظِلّ الجراد الطائر فوق الدّبا، يخيفونه بقرع الأواني بالمغارف. ويحرقون أكوام الحطب والروث اليابس حول مزروعاتهم، ويطلقون الدخان كثيفًا في الهواء. والجراد لا يكف اجتياحه للجزيرة المنكوبة. لا يبعده الدخان على العادة، وتجذبه النيران عوض طرده في بارد الطقس. وطيور اللوهة في سماء المقام تصفق أجنحتها وتطبق مناقيرها على الأسراب الشرهة ناثرة دماءها الصّفراء الدّبقة. والمقام موصد الباب تعتكف فيه أم صنقور بعدما قالت: «لا منجى».

طفا الجراد والدّبا على سطوح الآبار حتى نتن ماؤها وعف الحيوان عن شربه. وأتى على الأخضر واليابس في جزيرة قلّ يابسها. وجاء على الملبوس والمنجور. وغار على البيوت وأتلف الأبواب والوسائد واللُّحف، وماتت غزلان الجزيرة من الجوع والعطش. وتكدّس المصلُّون في المساجد يدعون المولى رفع البلاء. وبخلاف أهل الديرة الذين أسموا سنواتهم على كبير الأحداث، سارع أهل الجزيرة يسمون 1941 سنة المدرسة الفَيْلَكاوِيّة. تلقفوا مناسبة افتتاح ثاني المدارس الأميرية في آخر السنة، وكرسوها اسمًا للسنة المشؤومة، كي لا يتذكروا سنة الجراد الرابعة تلك. واتفق الناجون كلهم، دونما تصريح، أن الجراد ما حط على أسياف الجزيرة يومًا، ولا طار في سمائها، ولا زحف على أرضها الخضراء الدّبا. ولا دوّن التاريخ من سنين الجراد إلا ثلاثًا، والرّابعة منسية. ونسي الأهالي، إلا غايب كابد بنسيان ما ألحقته الحشرات الجائعة ببستان زمزم وبزمزم. سممت الآبار بأجسادها النافقة، وعصفت زرع البستان

وتسلقت أشجار النخيل والسدر والأثل، وأصابت دجاجات وديوك خيبر بالمجاعة. فخرجت زمزم من صومها عن الكلام بكلمتين، حينما أطالت النظر إلى وجه غايب قبل أن تقول:

«سامحني غايبْؤهْ».

وما أجابته عن أي شيء يُسامحها، وأضربت عن الكلام ثانية. والجراد يفعل فعله، ولا عاف في بيت أم الخير إلا تبغ النارجيلة فخلّفه سالمًا. فحرقت زمزم الوقت وأعطبت صدرها المعطوب أكثر، وهي تحتضن نارجيلتها تستنظر طلحتها تحت وابل الجراد وتسلُّق الدّبا، لا يسلم منها غصن مورق ولا لِحاء ندي. وقصبة الدُّخان في فمها كأنما تنفخُ في النّاي لحن وداع. والجراد يحط على رأس زمزم وعلى كتفيها ويتسلقها الدّبا، فتموت الطلحة.

وقف غايب عند رأسها في ليل جمعة، موعد احتضاراتها القديمة. لثم جبهتها وما أطبق لها جفنًا. وفتح صندوق الحلي في الخزانة الخشبية. أمسك الخرقة المدبوغة من وبر البعير ملفوفة على قرطاس أم صنقور، وجلس إلى جوار أم الخير الممددة على فراشها العَطِر بماء الورد. كان الجراد النافق يملأ الخرقة يابسًا. وفي القرطاس داخلها كلمات مرتجفة الخط:

ولدي سَيف.. بعد السلام عليك ورحمة من الله وبركاته.. اِعلم يا ولدي أني أبوك سليمان بن سهيل، وأني والله ما تر..

وما قرأ غايب مزيدًا من سطور قرطاس تقاسمه الجراد والدّبا. انقبض صدره، وأقنع نفسه أنه وعمته انتظرا قراءة رسالة مرسلة بالخطأ منذ عمر طويل، من أحد اسمه سليمان بن سهيل إلى ولد

اسمه سيف. فز قلبه حينما أبصر وجه زمزم مفتوح العينين، فتذكر أنه ما أطبقهما هذه المرة. خرج من حجرة زمزم، وألقى بقية القرطاس في التنور الذي ولد فيه من جديد قبل عقدين. وعزم على نسيان سنة الجراد، والقرطاس الذي أكله الجراد، التعويذة السحرية التي أبطلت الآفةُ مفعولها. وعاد إلى حجرة أم الخير يطبق جفنيها مرة أخيرة.

«في أمان الله يَمّا زمزم».

ماتت زمزم سيدة الاحتضارات. وأورثت ابن ابن أخيها المزعوم بيتًا وبستانًا وصندوق حلي ما نال الجراد من لآلئه ومصوغاته الذهبية والفضية وأحجاره الكريمة. وأمضى الشاب حياته مرهونة بإحياء زمزم في طلحتها المعمّرة، يقلّب التربة حولها كل نهار، يسمدها ويسقيها ويلون البستان بالأخضر. ويقطع كل ليلة ميلين غرب القرينية، يحمل سراجًا وسلة فيها كتاب ومَرَشّ ماء ورد ونارجيلة. يجلس عند قبر زمزم إلى جوار قبر سعيدة في ساحة المقام. يلقي السلام على عمّة أبيه نزيلة القبر، وقبل أن يقرأ لها كتابًا يمازحها:

«ليت قبري جنب قبرك عمّة زمزم، أحكي معك وأسعدك وأسليك».

وبعد سِتّ سنوات من رحيل أم الخير، قرأ غايب عند قبرها قصة «ناقشة الحِنّاء» في مجلة «البعثة»، مذيلة باسم كاتب الأسفار - القاهرة. أحب الكاتبَ كما أحبته زمزم في قبرها. وتقصّى كتاباته وأعمدته الصحفية وإصداراته الأدبية لسنوات طوال، أمضاها لا يفعل شيئًا سوى الزّرع والقراءة، منذ كان كاتب الأسفار طالبًا مبتعثًا

في مصر، حتى تخلى عن اسمه المستعار ونشر كتبه باسم صادق بوحدَب. حصل غايب على عنوان الكاتب ورقم هاتفه في الصفحة الأخيرة من أحد كتبه سنة 1964. وأوشك أن يراسله لكنه آثر عدم مراسلته خشية أن تهتز صورة الكاتب في ذهنه وهو الذي أحبه، مثل الأشياء التي أحبها، من بعيد. لكنه عقد العزم على زيارة الديرة سنة 1978، لحضور مسرحية صادق بوحدَب «على أطلال المقام»، ولقاء الكاتب الذي كتب مسرحيته عن مقام الجزيرة بعد عامين من هدمه.

جلس في صف المقاعد الأخير في مسرح سينما الأندلس، مثلما جلس في زيارته الأولى للمسرح نفسه قبل عشر سنوات حينما زارت أم كلثوم الكويت. أمضى النّهار في الزيارة الأولى طوافًا على مكتبات العاصمة يجمع الكتب، «الصقر والفهد» لـ صادق بوحدَب، «كنت أول طبيبة في الكويت» لـ إلينور كالڤِرلي، وآخر روايات نجيب محفوظ «ميرامار». وفي المساء كان من أوائل حضور الحفل. جلسَ مذهولًا من أعداد النّاس التي فاقت سكان جزيرته تجتمع في صالة الجمهور، مبهورًا من ضخامة المسرح وفخامة ستائره المخملية التي فُتحت على أُم كلثوم وفرقتها الموسيقية. أنصت إليها في أول زيارة له إلى الديرة، وهو يتذكر سنة الجراد في الجزيرة ويسفح الدمع على «الأطلال». غير أنه في زيارته الثانية، بعد سنوات عشر، ضحك في آخر المسرحية، وهو يتابع معالجة العرض لفتوى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بهدم المقام، وما تلاها من حادثة إرسال البلدية حفّارة من الديرة إلى الجزيرة محمولة على عبّارة. كان ملثّمًا بين الناس في الجزيرة يشهد الحدث، كما هو ملثم بين جمهور المسرح يتابع المشهد..

أنزل سائق مصري الحفّارة في ميناء الجزيرة، وقادها بعجلاتها الضخمة سريعًا إلى المقام، لكن شوكة الهدم الفولاذية تعطلت قبل أن تمس جداره المشيّد من الطين وصخور البحر. فكبّر أهل الجزيرة وهللوا للمعجزة، وفاجأتهم أم صنقور بخروجها من المقام، فترجل السائق من الحفّارة يصرخ مستغفرًا، وركض إلى الميناء تائبًا طالبًا العفو من الخِضر صاحب الكرامات. وفي اليوم الموالي أرسلت البلدية من الديرة مهندسًا كوريًا، يتقلد سلسالًا ذهبيًا لمجسم بوذا محفورًا على حجر اليَشَم الأخضر. وصل الكوري إلى الجزيرة وأصلح عطل الحفّارة، ونسف المقام على كراماته.

تذكرها غايب ليلة حزينة في الجزيرة، ماتت فيها أم صنقور عن المئة. وتذكرها ليلة سعيدة في مسرح سينما الأندلس، ضحك الجمهور مع الممثل المصري، وقهقه لمؤدي دور الكوري. وصفق هو وطفر الدمع من عينيه، بعدما أنصت لقول الممثل حمَد حمَد الذي ارتدى العباءة وأدى دور خادمة المقام يصرخ بجملته الشهيرة:

«اتركوا المقام شاهدًا على قبر جزيرةٍ ماتت».

وتأكد لـ غايب أنه سوف يستمر يقرأ لهذا الرجل ما دام يكتب، وما دام هو قادر على القراءة، وأصرّ بعد العرض ألا يلتقيه وقد أحبه بغير لقاء. وخرج من المسرح وعاد إلى الجزيرة بالعبّارة. ولبث يقرأ عند قبر زمزم على العهد سنين، سنة بعد سنة. وقرأ على مسمع القبر ثلاثية الديرة؛ «شرق، قِبلة، المرقاب»، وديوان الشعر «وارث لغة البحر»، ومجموعة القصص «ناخ الجمل»، وديوان الشعر الأخير «عناقيد اللؤلؤ» سنة الانقلاب على الدستور وتعليق البرلمان. وواصل القراءة لـ زمزم حتى أنهى قراءة «سِفر العباءة» في إبريل 1990،

وهاتف الكاتبَ على رقمه القديم، وزاره في مكتبه الذي يعرفه منذ الستينيات. فقرأ «سِفر التّبّة» وقرر أن يبصق على صورة كاتب الأسفار في ذهنه، بعدما ألفى نفسه في السِّفر يعود إلى أصلِه؛ سيف بن سليمان بن سهيل.

***

وأنهى غايب قصته بدءًا من سقوطه في التنور، وانتهاء بدفعه باب مكتبي اليوم بغير ميعاد. لم أسأله ولم أقاطعه ولم أنظر إلى وجهه. بالكاد كنت أرفع عيني عن الورقة على سطح مكتبي. كان يروي متدفق الذهن، وأنا أدون أهم ما يقول. ولما طال صمته وضعت القلم على الأوراق متأثرًا، وحملقت إلى نظارته السوداء دونما كلمة. وهو بالمثل لازَم السكوت بعد حديثه الطويل. فقال بعد صمت:

«عمتي زمزم وأنا ننتظر الجزء الثالث».

ما أسعفتني لغتي على قول شيء. سألني:

«من أين جئت بتلك الحكايات؟.. أستاذ».

«من واحد شايب..».

أجبت كما طلب مني الشايب في لقائنا الأول قبل سنين، ثم وجدت أني في قلب المشكلة، والشايب نفسه سمح لي بذكر اسمه إذا ما وقعَت. أجابني واثقًا:

«إذن هو سليمان ولد سهيل وشايعة.. أبي».

استغربت حدسه وإصراره على أن يكون سليمان هو مصدر الحكايات، وشككت لوهلةٍ أن الشّايب هو سليمان. فطردت الفكرة من

رأسي:

«..بصراحة.. سمعت هذه الحكايات من حمَد حمَد».

كرر الاسم يتأكد، وحدقتاه تتدحرجان يمنة ويسرة، فأكدت:

«نعم، الممثل».

«أما زال حيًا؟!».

أجبته بهزة رأس فقال:

«لا يتردّد اسمه إلا في نكات الشياب المعمرين.. لكن.. غريب.. كيف جاء بتلك القصص؟».

أجبته إن هذا ما سوف نعرفه. ألقيت نظرة على ساعة الجدار وكانت العاشرة إلا ثلث. وأمسكت بسماعة الهاتف وأنا أبحث في دفتر الأرقام. اتصلت فرد الشايب تحيتي وقلت له إني في مشكلة، فأجاب:

«الغايب وصل؟».

ما حرت جوابًا وأنا أنظر إلى وجه غايب المحروق أمامي، ولا أفهم والشايب يكرر:

«الغايب وصل؟».

لم يكن قلبي يدق، في لحظتها كان يرافس. ضاق صدري فأمسكت ببخاخ الفنتولين، لكن لا غبار. تحجرت الكلمات في فمي اليابس، وصوت الشايب في السماعة يلقنني عنوان بيت في منطقة الشامية، ويختم:

«حياكم الله».

لم أفكر إلامَ تفضي هذه الدعوة. لم أُرِد توريط نفسي أكثر في الحرج مع غايب، هذا الرجل المحترم الذي اقتحمت خصوصيتّه في الرواية بشكل فج وهو رجل حقيقي، وقد يكون بالفعل هو سيف. قلت للشايب إن الأمر بينهما، وأنا لا أريد إدخال نفسي في هذه المشكلة، لكنه رد:

«المشكلة لم تبدأ بعد».

أطبقت السماعة فتحسست أطرافي، ولمست دشداشتي ونظرت إلى كفيّ. فسألني غايب هل أشكو من شيء؟ قلت له لا شيء، لكن شيئًا كان غير حقيقي، ربما يكون أنا. نهضت بسرعة، وحملت مفاتيح سيارتي والبيجر، فطلبت من غايب أن يتبعني:

«الشايب ينتظرك».

انتهى الجزء الثّاني

إصدارات سعود السنعوسي

1. «سجين المرايا»، رواية، 2010.
2. «ساق البامبو»، رواية، 2012.
3. «فئران أمي حصة»، رواية، 2015.
4. «حمام الدار: أحجية بن أزرق»، رواية، 2017.
5. «ناقةُ صالحة»، رواية قصيرة، 2019.
6. «أسفار مدينة الطين»، ثلاثية روائية:
   - «سِفرُ العباءة» 2023، I.
   - «سِفرُ التَّبَّة» 2023، II.
   - «سِفرُ العَنْقُوْز» III، قيد الطباعة.

---

(1) قراءة الطالع أو الفأل، أو ما يسمى في بعض الدول العربية (ضرب الودع)، هو أمر دخيل على المجتمع الكويتي المحافظ، ولا يعتبر ظاهرة شائعة وقد يحدث في أضيق الحدود، وقد وفدت إلينا مثل تلك الخزعبلات من الساحل الشرقي لإفريقيا. (محرر وزارة الإعلام).

(2) فُرضة البحر: مرسى، ميناء، محط الشفُن. (محرر وزارة الإعلام).

(3) حرّاس الغُبار: ومما ورد في باب ملوك الجان في سِفر «حوليات مدينة الطين» أنهم: [ملوك وملكات من غُبار. مُحاربو الخيال أزليُّون في كل زمان. لا يُحصى لهم عدد، توّجوا أنفسَهم بأنفسِهم وصاروا للغبار حرّاسًا، يتنفّسون غبارًا ويَطعمون غبارًا. وإذا ما مسّ امرؤٌ كذبة الماضي ولو بالخيال هبّوا غبارًا..].

(المؤلف).

(4) الشّريْكة: أسلوب تقليدي للتصفيق المشترك يتم بواسطة ثلاثة أشخاص على الأقل. (محرر وزارة الإعلام).

(5)تحريا للدقة، تسمى أنثى الحمار في اللغة الفصحى: أتان. (محرر وزارة الإعلام).

(6) النصوص بين علامات التنصيص: وضعناها تحريًا للأمانة والدقة وهو ما أغفل الكاتب توضيحه. فالأبيات المميزة بعلامات التنصيص من قصيدة «إذا هجرت»: الحلاج (858 - 922). (محرر وزارة الإعلام).

(7) المسيوقة: جملة من الإبل تربط وتساق في مقدمة المقاتلين لتقيهم وابل الرصاص. (محرر وزارة الإعلام).

(8)هذه مبالغة من الكاتبة، فطبيعة المجتمع تمنع مثل هذا السلوك، لا سيما أن الإسلام يحرم الانحناء لغير الله تعالى، والإنسان العادي لا ينحني لأحد فكيف ينحني شخص وجيه مثل التاجر المعروف عبدالرحمن بن حامد؟! (محرر وزارة الإعلام).

(9) أذن الحمار ولحية التيس ودماغ الجربوع وساق الجمل: هي من النباتات المحلية ولا يخفى على الكاتبة ذلك وقد أقامت في الكويت ما يربو على العقدين. والأسماء هنا لا تدل على المدلول الذي تحاول الكاتبة أن توحي إليه لشد انتباه القارئ الغربي، وكان ينبغي أن توضح أن المقصود هو التداوي بالأعشاب. (محرر وزارة الإعلام).

(10)عبدالله الهولي، وعبدالله بن علي النجدي، وعبدالله بن حبيب العازمي، وعبدالله بن زمانان. (محرر وزارة الإعلام).

(11)تحريا للأمانة التاريخية وللإشارة إلى أن النص منسوب إلى كتاب «تاريخ الكويت»، للفقيه والأديب والمؤرخ عبدالعزيز الرشيد. وقد تحققنا من

طبعته الثانية الصادرة عن منشورات دار مكتبة الحياة في بيروت عام 1959، وقد وردت تفاصيل معركة الجهراء لكن لم تُذكر في طبعة مكتبة الحياة الأسماء الواردة في النّص أعلاه المنسوب للطبعة الأولى، طبعة المكتبة العصرية في بغداد 1926، وهي طبعة مفقودة مضى على صدورها ما يزيد على الستة عقود، ولم يتسن لنا التحقق منها. (محرر وزارة الإعلام).

(12)العاشر من أكتوبر 1920. (محرر وزارة الإعلام).

(13) القلّاف: صانع السّفينة، والقلافة؛ صناعة الشفُن. (محرر وزارة الإعلام).

(14) ثريك: مصباح يدوي، التّسمية مُحرّفة من الكلمة الإنكليزية Electric. (محرر وزارة الإعلام).

(15)ورد ذكر السنبوك «الحميدي»: في أكثر من موضع من كتاب الطبيبة إلينور كالڤرلي في الأصل الإنكليزي، والمحقق أن أسماء السفن والمراكب موثقة في المراجع، وليس من بينها سفينة اسمها الحميدي، والصحيح أنه السنبوك «الحامدي» بدلالة إشارة المؤلفة للنوخذا والتاجر المعروف عبدالرحمن بن حامد (1867-1957). وقد كان أكبر سفينة غوص عرفتها الكويت تتسع لأربعة وتسعين بحارًا، قبل أن يبني النوخذا عبدالله بن ناصر بورسلي بوم الغُوص الذي أسماه «نايف» عام 1921، والذي حمل على ظهره مئة وتسعة من البحارة. (محرر وزارة الإعلام).

(16)نُشرت القصة منفردة في مجلة بيت طلبة الكويت في القاهرة؛ «البعثة» عام 1946 قبل نشرها في مجموعة قصصية حملت الاسم نفسه في العام 1950.